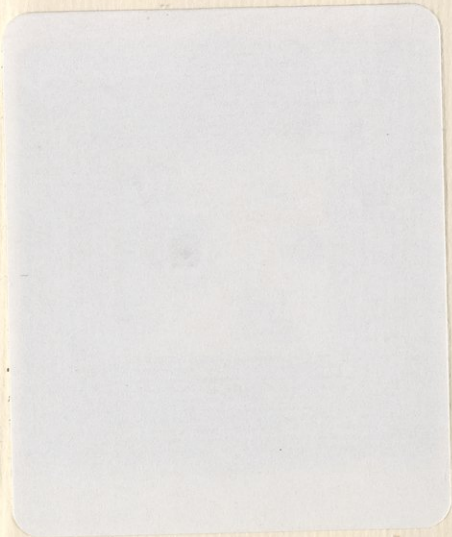


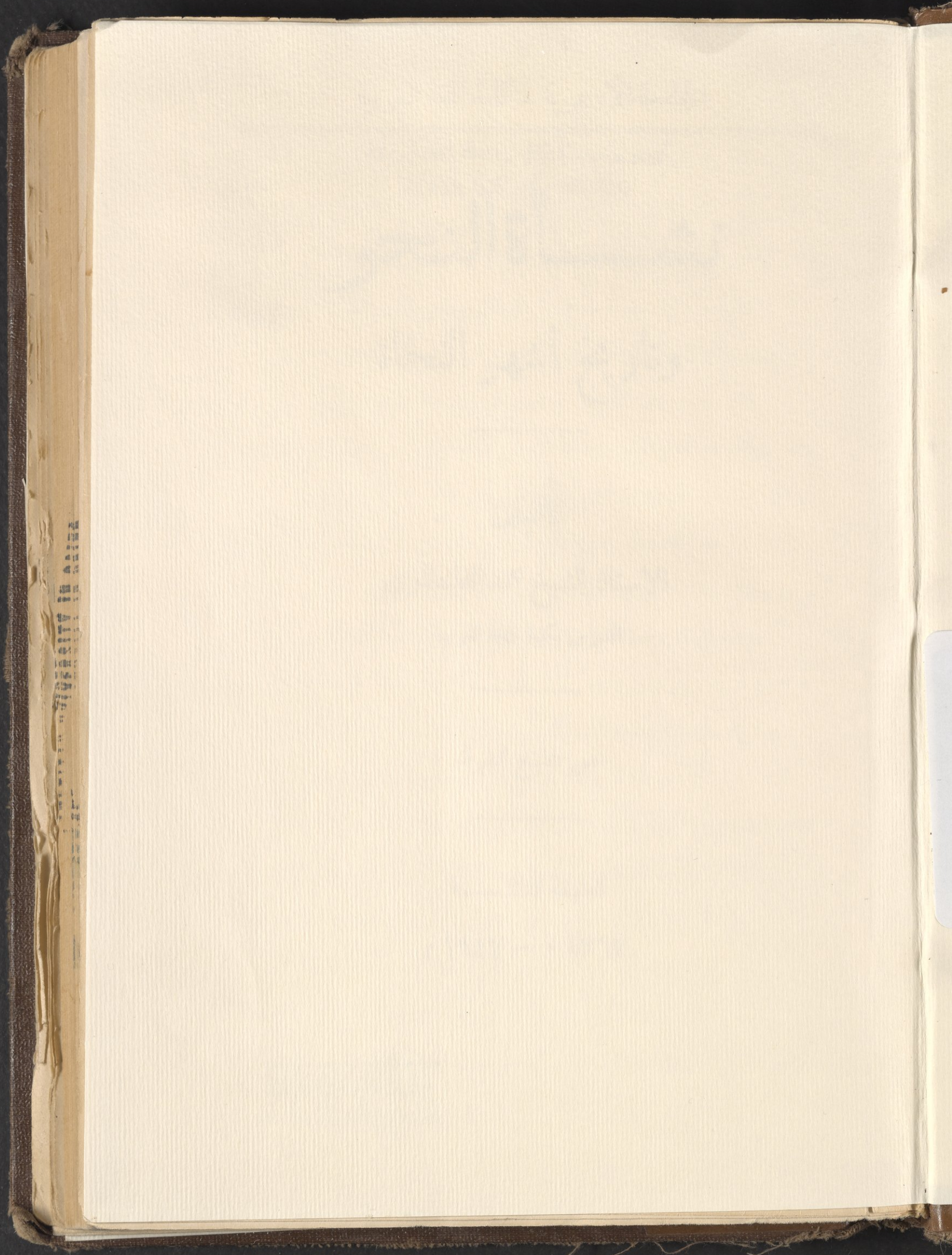
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00971 2773

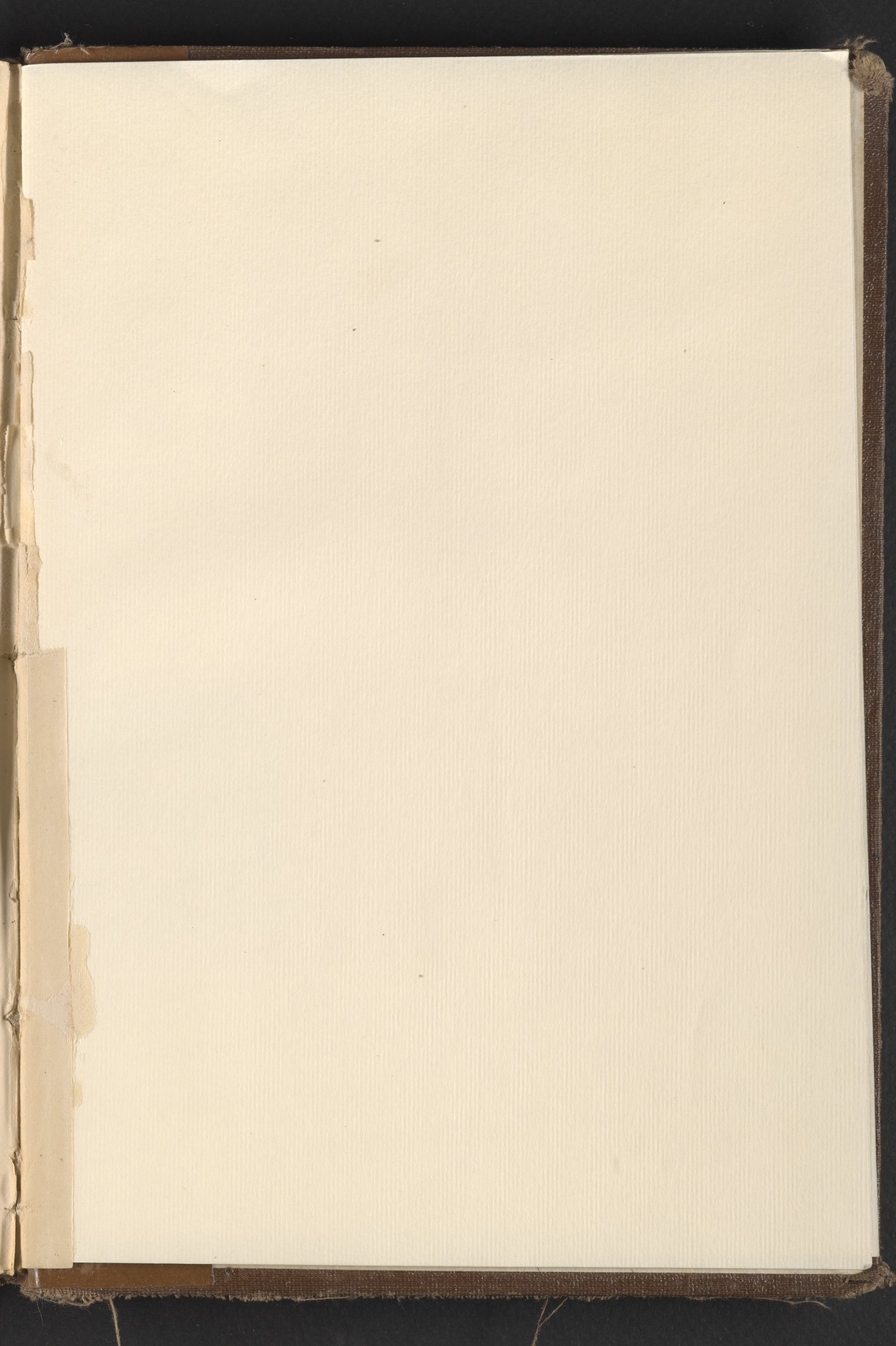
PA
6A
+ I
19

THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
WASHINGTON, D.C.

Acquired by
Gift of the American University







فانكبر الله تعالى

الجامعة الأزهرية - كلية اللغة العربية

al-Tamṭāwī, Muḥammad
Nashrat al-nahw

PJ

6053

T3

1947

نشأة النحو

وتاريخ أشهر النحاة

تأليف

الاستاذ الشيخ محمد الطنطاوى

المدرس بكلية اللغة العربية

هو الطبع محفوظ

الطبعة الثالثة

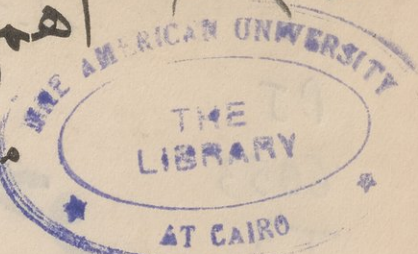
١٣٦٧ هـ - ١٩٤٧ م

مطبعة وادي الملوك

بأول شارع البرموني رقم ٤ بمصر

أهم مراجع الكتاب

مراعى فيها الترتيب الزمنى



- ١ - الكتاب . لسيدويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ
- ٢ - أدب الكتّاب ، وعميون الأخبار ، والشعر والشعراء .
لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ
- ٣ - الكامل . لأبى العباس المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، وشرحه
رغبة الآمل . للمرصفى المتوفى سنة ١٣٤٩ هـ
- ٤ - الأمالى . لأبى القاسم الزجاجى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ
- ٥ - مراتب النحويين . لأبى الطيب عبد الواحد اللغوى .
المتوفى سنة ٣٥١ هـ مخطوط بالخزانة التيمورية رقم ١٤٢٥
- ٦ - أخبار النحويين البصريين . للسيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ هـ
- ٧ - طبقات النحويين واللغويين من البصريين والكوفيين .
للزبيدى المتوفى سنة ٣٧٩ هـ
- ٨ - التصحيف والتجريف . لأبى أحمد العسكري المتوفى سنة ٣٨٢ هـ
- ٩ - الفهرست . لابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ هـ
- ١٠ - الخصائص . لأبى الفتح بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ
- ١١ - الصاحبى . لأحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ
- ١٢ - تاريخ بغداد . للخطيب المتوفى سنة ٤٦٣ هـ
- ١٣ - المفصل . للزنجشمرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، وشرحه لابن يعيش
المتوفى سنة ٦٤٣ هـ

١٤ — نزهة الألبا في طبقات الادبا (النحاة) ، والانصاف في مسائل
الخلاف بين البصريين والكوفيين . لجمال الدين الأنباري

المتوفى سنة ٥٧٧ هـ

١٥ — التبيينان شرح ديوان المتنبي . لأبي البقاء العكبري

المتوفى سنة ٦١٦ هـ

١٦ — معجم الادباء ، ومعجم البلدان . لياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هـ

١٧ — الكافية ، والشافية . لابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ

وشروحهما وحواشيهما

١٨ — الألفية . لابن مالك المتوفى سنة ٦٧٢ هـ وشروحها وحواشيهما

١٩ — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . لابن خلدون

المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وفوات الوفيات . لابن شاكر المتوفى

سنة ٧١٤ هـ

٢٠ — أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، ومغنى المبيد عن كتب

الأعاريب لابن هشام المتوفى سنة ٧٦١ هـ وشروحهما وحواشيهما

٢١ — المقدمة . لابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ

٢٢ — الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . لابن حجر العسقلاني

المتوفى سنة ٨٥٢ هـ

٢٣ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . للسخاوي المتوفى

سنة ٩٠٢ هـ

٢٤ — الاقتراح في أصول النحو ، وجمع الهوامع على جمع الجوامع ،

والأشباه والنظائر ، والمزهر ، وبغية الوعاة في طبقات

اللغويين والنحاة ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة .

للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ

٢٥ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها

لسان الدين بن الخطيب . المتوفى سنة ١٠٤١ هـ

٢٦ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب . لابن العماد الحنبلي

المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ

٢٧ — خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب شرح شواهد الرضى

على الكافية ، وشرح شواهد شرحى الشافية للرضى والجاربردى .

كلاهما للبغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ

٢٨ — خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر . المحبى المتوفى

سنة ١١١١ هـ

٢٩ — عجائب الآثار في التراجم والأخبار . للجبرتى المتوفى

سنة ١٢٤٠ هـ

٣٠ — البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . للشوكانى

المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل الكتاب ، على خير الخلق وأفصح من نطق بالضاد ،
 صلاة الله وسلامه عليه وعلى عترته الأمجاد ، وأصحابه الأئمة بذلوا مهجهم
 في سوح الجهاد ، فنالوا الزلفى عند ربهم يوم التناد .
 وبعد فإن علم النحو من أسمى العلوم قدراً ، وأرفعها أثراً ، به ينتشف
 أودُ اللسان ويستأس عنان البيان ، وقيمة المرء فيما تحت على لسانه
 لا طيلسانه ، ولقد صدق إسحق بن خلف البهراني في قوله
 النحو يَنْسُطُ من لسان الألف والراء تَكْرِمُهُ إذا لم يَدْحَن
 وإذا طَلَبَتْ من العلوم أَجَلُهَا فَأَجَلُهَا منها مَقِيمُ الأَلْسُنِ
 وبه يسلم الكتاب والسنة من عادة اللحن والتعريف ، وهما موئل الدين
 وذخيرة المسلمين ، فكان تدوينه عملاً بهراً ، وسعيًا في سبيل الدين مشكوراً
 وبه يستبين سبيل العلوم على تنوع مقاصدها ، وتفاوت ثمارها ،
 فإن الطالب لا يسلكها على هدى وبصيرة إلا إذا كان على جد من هذا
 العلم موفور ، على أن المتحادثين في أي جزئية علمية إنما يعتمدان عليه
 في تحديد المعنى الذي يتحادثان بشأنه فهو الدريعة لتقريب تفاهمهما ، وأداة
 الحكم الصحيح بينهما ، قال ابن خلدون (إذ به يبين أصول المقاصد بالدلالة

(١) راجع البيتين في عيون الأخبار (كتاب العلم والبيان الأعراب والالحن)
 مجلد ٢ ص ١٥٧ ، والكامل مع الرغبة ج ٤ ص ١٣٢ ، والعقد الفريد (كتاب الياقوتة
 في العلم والأدب باب في الأعراب والالحن) ج ٢ ص ٤٧٩ طبع اللجنة ،
 ومجمع الأدباء الفصل الأول فضل الأدب بعد مقدمة الكتاب ج ١ ص ٨٥

فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ، ولولاه لجهل أصل الافادة (١)
 وإن من يحاول إقامة الدليل على فضله بالبرهان كان كمن يتكلفه على
 إشراق الشمس وضيء النهار — فلذا قدر المؤرخون للنحويين جهودهم ،
 ورفعوا لهم أعلام الحمد ، وخلدوهم في صحائفهم بمداد التبجيل والتكريم .
 وخليق بمن يدلف إلى روضة هذا الفن النصير أن يعرف سبب
 وضعه ، وكيف نشأ ، والمراحل التي اجتازها حتى استوى قائماً — وأن يقف
 على تاريخ مشاهير رجاله الذين عبدوا منهيه ، وأقاموا صدى الهداية
 على حفاية خوف الدثور والضلال ، وعلى طبقاتهم في عصورهم المختلفة
 وأوطانهم المتغيرة ، وعلى ما شجر بينهم من خلاف في الآراء رغبة منهم
 في استكناه الحقيقة — وأن يلم بمؤلفات هذا الفن الكثيرة ، وبتنوع
 اتجاهاتها ، وبترتيبها الزمني ، وبالصلة بينها نفلاً أو تعليقاً أو نقداً ،
 ففي الحق أن هذا العلم قد أربى على سائر العلوم في مصنفاته .
 لقد غبر كثير من طلابه يدرسونه آماداً متطاولة ونفوسهم توافقة
 إلى تعرف هذه النواحي التي لا ينتظمها سفر خاص ، بل تشتتت في بطون
 الكتب ، فلا تنال منها إلا بشق الأنفس
 هذا الذي حفزني إلى وضع هذا الكتاب ، والله أستمعين في السداد
 والتوفيق .

(١) المقدمة ، للفصل السادس في العلوم الخ ، فصل في علوم اللسان العربي

تمهيد

نشأت اللغة العربية في أحضان جزيرة العرب خالصة لأبنائها
مذ ولدت ، نقيصة سليمة مما يشينها من أدراج اللغات الأخرى
لبثت كذلك أحقاباً مديدة كان العرب فيها يغدون ويروحون داخل
بلادهم على ما هم عليه من شظف العيش ، غير متطلعين إلى نعيم الحياة
وزخارفها فيما حولهم من بلاد فارس والروم وغيرها ، وإن دفعتهم الحاجة
إليها حيناً وتبادل المنافع حيناً آخر ، على أنه كان في أسواقهم الكثيرة
التي تقام بينهم طوال العام غناء أى غناء في عيشتهم البدوية القانعة ،
ومن أشهرها عكاظ (بين نخلة والطائف) كانت تقام شهر شوال ،
وبعده بجنة (بمر الظهران) من أول ذى القعدة إلى عشرين ، وبعده
ذو الحجاز (خلف عرفة) إلى أيام الحج

ولقد كان في هذه الأسواق فوق ما تضمه من مرافق الحياة
ومتطلبات المعيشة منتديات للأدب ، يعقدون فيها المجالس ذات الشأن
يتبارى فيها مداره الخطباء ومفوهو الشعراء من القبائل المتناحرة
الأصقاع ، يعرضون فيها مفاخراتهم ومنافراتهم ومعاظمتهم وكل ما يعن لهم
في جيد الخطب وبديع الشعر

عاد ذلك كله على اللغة بتنشيط دعائمها وإحكام رسوخها وجودة

(١) أخبار أسواق العرب وأماكنها مبسوط في معجم ما استعجم للبكري ،
ومعجم البلدان لياقوت ، وصفة جزيرة العرب للهمداني ، ومع التوزيع في أجزاء
الأغاني ، وفي الجزء الأول من بلوغ الأرب للأوسى فصل ضاف فيها

صقلها ، وبقيت كذلك متماسكة البنيان غير مشوبة بلوثة الأعجام ، إلى أن
سطع نور الاسلام على ماحول الجزيرة العربية بالفتوحات الاسلامية
ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ثم تتابعت الفتوحات في عهد الخلفاء
الراشدين ، فوصلت في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه شرقا
إلى نهري السند وجيحون وغربا إلى الشام ومصر ، فكان من الطبيعي
هبوط العرب ومعهم عشائرهم وعمائرهم إلى هذه الأمصار التي افتتحوها
ودخلت تحت حوزتهم ، وبحكم الفتح قد كثرت ملكهم الموالي في البلاد
المفتوحة عنوة ، كما كان من الطبيعي تقاطر الوافدين من هذه الأمصار
المفتوحة إلى الجزيرة العربية ، إذ فيها المدينة المنورة حاضرة الاسلام
ومقر الخلفاء الراشدين وعلية الدولة ، وفيها مكة المكرمة وبها الكعبة
المشرفة التي يؤمنها كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهكذا ازداد
هذا النزوح من الجانبين كلما توالى الفتوحات تترى في عهد بنى أمية
فلقد بلغت الفتوحات في عهدها شرقا الهند والصين وشمالا سيبيريا وغربا
ماوراء جبال البرانس بالاندلس وجنوبا السودان ، كما امتدت إلى جزائر
البحر الأبيض المتوسط ، فهذه الممالك المترامية الأطراف كانت تخفق عليها
الراية الاسلامية التي تأخى تحت ظلها الجميع (الأحمر والأسود) وأمتحت
بينهم فوارق الجنس والوطن ؟ دينهم الاسلام وكتابهم القرآن ولغتهم
العربية ، وكان أثرا لهذه الفتوحات من لدن كانت أن اختلط العرب بغيرهم
اختلاطا مستمرا في البيوت والأسواق والمناسك والمساجد ونصاها روا
واندجوا في بعضهم ، حتى تكون منهم شعب واحد اجتمع فيه العرب
والهجين والمقرف ، اقتضى كل أولئك أن يستمع بعضهم من بعض

وأن يتفاهموا في كل ما يتصل بهم ، ولغة التخاطب الوحيدة بينهم في كل ما يحيط بهم هي العربية ، فكان لازماً على غير العربي أن تكون لغته العربية مهما عالج في ذلك وعانى ، كما كان لازماً على العربي أن يترفق بغير العربي ويتريث معه في التخاطب ضرورة التعاون بين الطرفين فكل منهما يسمع من الآخر ، والسمع سبيل الملكات اللسانية فما اللغة إلا وليدة المحاكاة وما يصل إلى السمع ، وبطول هذا الامتزاج تسرب الضعف إلى نحيزة وسليقة العربي ، على أن غير العربي كان ينزع قسراً عنه إلى بني جلدته وإن طال لبثه بين ظهراني العرب فقد كان في عهد الرسول ﷺ صهيب يرتضخ الرومية ، وسلمان الفارسية ، وبلال وسحيم عبد بني الحسحاس الحبشية ، تولد من هذا كله أن اللغة العربية تسرب إليها اللحن ووهنت الملاحظة الدقيقة التي تمتاز بها وهي اختلاف المعاني طوعاً لاختراف شكل آخر الكلمة ، فإن هذه الميزة كانت موفرة لديهم وهم بعيدون عن مخالطة سواهم من ذوى اللغات الأخرى التي خلت منها ، ولقد كان هذا النوع أول اختلال طرأ على اللغة العربية منذ كان الإسلام ، وكان الموالي والمتعربون ، وطفق يزداد رويداً رويداً باطال الزمن وتفسحت رقعة الإسلام

سبب وضع النحو

قال أبو الطيب (واعلم أن أول ما اختل من كلام العرب وأحوج إلى التعلم الأعراب لأن اللحن ظهر في كلام الموالي والمتعربين من عهد النبي ﷺ فقد رويناه أن رجلاً لحن بحضرته فقال « أرشدوا أخاكم فقد ضل »

وقال أبو بكر لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أن أقرأ فألحن) ١ -
 وقال ياقوت (و مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه على قوم يسيئون الرمي
 فقرعهم فقالوا إنا قوم « متعلمين » فاعرض مغضبا وقال : والله لخطؤكم
 في لسانكم أشد على من خطئكم في رميكم) ٢ - وقال ابن جنى (ورووا
 أيضاً أن أحد ولادة عمر رضى الله عنه كتب إليه كتابا لحن فيه فكتب إليه
 عمر أن قنع كاتبك سوطا) ٣ - وقال ابن قتيبة (سمع اعرابي مؤذنا يقول
 أشهد أن محمداً رسول الله بنصب رسول فقال ويحك يفعل ماذا ؟ ...
 ودخل اعرابي السوق فسمعهم يلحنون فقال سبحان الله يلحنون ويربحون
 ونحن لا نلحن ولا نربح) ٤ - وقال ابن عبد ربه (ودخل على الوليد بن عبد الملك
 رجل من أشرف قریش فقال له الوليد : من ختنك - قال له : فلان اليهودي
 فقال : مات قول ؟ ويحك قال : لعلك إنما تسأل عن ختنى يا أمير المؤمنين هو

(١) راجع مراتب النحويين ونقل هذا السيوطى فى المزهرة أوائل النوع الرابع
 والآربعين ، والحديث الشريف المذكور فى الخصائص (باب فى ترك الأخذ عن اهل
 المدر كما اخذ عن اهل الوب) ج ١ ص ٤٠٨ ، ومعجم الأدباء (الفصل الاول
 فضل الأدب) ج ١ ص ٨٢ ، والآثر المذكور نسب فى معجم الأدباء الموطن
 السالف للشعبى

(٢) الموضع السابق فى المعجم

(٣) راجع الخصائص المبحث السابق وقد ذكر النجاة هذا الأثر مع تغيير
 فى بعض الكلمات ومع تعيين الوالى وهو أبو موسى الأشعرى اذ كان واليه بالبصرة ،
 وتعيين اللحن وهو قول الكاتب : من أبو موسى الأشعرى راجع باب الاستثناء
 فى المفصل وشرحه وفى شرح الرضى على الكافية ، وفى معجم الأدباء ج ١ ص ٨٠
 حادثة أخرى تماثل هذه استشخص عمر فيها العامل وضربه بالدره

(٤) راجع عيون الأخبار (كتاب العلم والبيان الاعراب واللحن) مجلد ٢
 ص ١٥٨ وما بعدها والحادثة للثانية المذكورة أيضاً فى المعجم الموضع السابق

فلان بن فلان) ^١ - وهكذا انتشرت جرثومة اللحن فأعدت الخاصة حتى صاروا يعدون من لا يلحن، وانتقلت من الحاضرة إلى البادية قال الجاحظ (قالوا وأول لحن سمع بالبادية هذه عصاتي) - كل ذلك والدولة الأموية ما فتئت قائمة والنهضة العربية مستحصدة المرّة ومائعة الدرة - وسترى أمثلة كثيرة من اللحن عند الكلام على واضع النحو أجتزأنا بذكرها ثمة حتى لا يكون الحديث معاداً - على أن ما رأيته وما استراه قل من كثير وبعض من كل لهذا وذلك أهابت العصبية العربية بالعلماء في الصدر الأول الاسلامي أن يصدوا هذا السيل الجارف الذي كاد يكتسح اللغة العربية بما قذف فيها من لحن تسربت عدواه إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة بما هدوا اليه وسموه علم النحو، غير أنهم لم تتفق كلمتهم على نوع السبب المفضي إلى وضعه فبعض المصادر التاريخية تذكر وقائع معينة كانت هي السبب عندهم، وهي مع كثرتها لا تتفاوت عند المقارنة بينها قوة وضعفها لا من ناحية الرواية ولا من ناحية اقتضاء الوضع، وبعض المصادر الأخرى لا تقصر السبب على حادثة خاصة بل تعتبره نتيجة لازمة لتلك الحوادث السابق والآتي منها أمثلة ملتفة بعضها على بعض، وما أشبه هذا الرأي بالصواب، فغير مقبول في النظر أن ينهض العلماء ويستفرغوا مجهوداً جباراً يورقون عيونهم ولا يطبقون جفونهم الليالي الطويلة لتأسيس فن خطير خالداً الأثر على اللغة العربية وأبناء العروبة من جراء حادثة فردية كان يكفي في درتها إصلاحها وكفى. ومن جهة أخرى أين المؤهلات التي ترجح كفة حادثة جزئية على

(١) راجع العقد الفريد (كتاب البياقوتة في العلم والآداب والأعراب واللحن) ج ٢ ص ٤٨٠
لكن في خزانة الأدب شاهد ٦٥١ نسبة هذه الحادثة إلى عبد العزيز بن مروان

منبئياتها وفي ذلك ترجيح بلا مرجح ، فالحق الذي لا ينبغي الحيود عنه
أن وضع هذا العلم إنما كان لهذه الحوادث متضافرة قال ابن خلدون (فلما جاء
الاسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول
وخالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات
التي للمتعرين والسمع أبو الملكات اللسانية ، ففسدت بما ألقى إليهم -
مما يغيرها لجنوحها إليه باعتياد السمع وخشى أهل العلوم منهم أن تفسد
تلك الملكة رأسا ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على الفهوم ،
فاستنضبوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات
والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه
مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع ، ثم رأوا تغير
الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا وتسمية
الموجب لذلك التغير عاملا وأمثال ذلك ، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم
فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على
تسميتها بعلم النحو)^١

متى وأين كان وضعه ؟

عرفت مما سلف أن وضعه في الصدر الأول للإسلام ، لأن علم النحو
ككل قانون تتطلب له الحوادث وتقضيها الحاجات ، ولم يك قبل الإسلام
ما يحمل العرب على النظر إليه فانهم في جاهليتهم غنيون عن تعرفه لأنهم
كانوا ينطقون عن سايقة جملوا عليها ، فيتكلمون في شئونهم دون عمل

(١) المقدمة الفصل السادس في العلوم الخ ... علم النحو

فكر ، أو رعاية الى قانون كلامي يخضعون له ، قانونهم ملائمتهم التي خلقت
فيهم ، ومعلمهم يثبتهم المحيطة بهم . بخلافهم بعد الاسلام اذ تأشبهوا بالفرس
والروم والنبط وغيرهم ، فخل بلغتهم ماهول الغيورين عليها وعلى الدين ،
حتى هرعوا إلى وضع النحو كما تقدم . وهذا هو التحقيق الذي عول عليه
الجمهور فقد زعم بعض العلماء أن العرب كانوا يتأملون مواقع الكلام وأن
كلامهم ليس استرسالا ولا ترجيما بل كان عن خبرة بقانون العربية فالنحو
قديم فيهم أبلته الأيام ثم جدده الاسلام على يد أبي الأسود الدؤلي بارشاد
الامام على كرم الله وجهه ومن هؤلاء البعض أحمد بن فارس في أوائل
كتابه (الصحاح) بل غلا غلوا شديداً إذ نسب للعرب العاربة معرفتهم
بمصطلحات النحو بتوقيف من قبلهم حتى انتهى الأمر إلى الموقف الأول
وهو الله عز وجل الذي علم آدم الاسماء كلها . وما من شك في أن هذا
الرأي ناء عن المعقول جار وراء الخيال والوهم . نعم إن تحديد زمن وضعه
في الاسلام لا سبيل إليه ألبتة وفي تعيين الواضع له في المبحث الآتي
تقريب لزمانه .

أول مدونه
الحج

وقد كان وضعه ونشوءه في العراق لأنه على حدود البادية وملتقى
العرب وغيرهم ، توطنه الجميع لرشاء الحياة فيه ، فكان أظهر بلد انتشر فيه
وباء اللحن الداعي إلى وضع النحو ، وما حاجة عرب البوادي والحجاز إليه ؟
وما برحت لغتهم فصيحة

سكانه

وضعه عربي محض

نشأ النحو في العراق صدر الاسلام لأسبابه نشأة عربية على مقتضى

الفطرة ، ثم تدرج به التطور تمشياً مع سنة الترقى حتى كملت أبوابه ،
غير مقتبس من لغة أخرى لا في نشأته ولا في تدرجه ، وقد اختلف
العلماء في أول ما وضع منه على رأيين : - أحدهما أن أول ما وضع من أبوابه
هو ما وقع اللحن فيه ثم استمر الوضع فيما بعده على هذا النمط ، وذلك
ما ذهب اليه جمهور النحاة اعتماداً بالروايات المستفيضة التي اقترن فيها الوضع
باللحن ، إلا أن تعيين الباب الموضوع أولاً منوط بالرواية التي قوى سندها من
بين الروايات - والآخر أن أول ما وضع منه ما كان أقرب إلى متناول الفكر
في الاستنباط ، لأن وضعه مبني على أساس من التفكير في استخراج القواعد
من الكلام لداعي انتشار اللحن فالموضوع أولاً ما كثر دورانه على اللسان ثم ما يليه
وهكذا ، ولذا قيل أن الموضوع أولاً الفاعل ثم ردفه المفعول ثم المبتدأ والخبر
وهكذا . وما تقدم هو ما أطبق عليه علماءنا خلفاً بعد سلف ، وزعم بعض
المستشرقين أن علم النحو منقول من لغة اليونان لأن وضعه في العراق
لأنما كان بعد خلاط العرب للسريان وتعلمهم ثقافتهم وللسريان نحو قديم
ورثوه عن اليونان ، وزعم بعض منهم آخر رأياً ثالثاً ، فيه بعض موافقة
ومخالفة لكل من الرأيين المذكورين ، وافق الرأي الأول فيما وضع منه ابتداءً
فقط ، والثاني فيما أحدث فيه بعد دور التكوين من تنظيم في التقسيم والتعريف
والتعليل ، قال ليتمان (اختلاف الأوروبايون في أصل هذا العلم ، فمنهم من قال
إنه نقل من اليونان إلى بلاد العرب ، وقال آخرون ليس كذلك ،
ولأنما كما تنبت الشجرة في أرضها كذلك نبت علم النحو عند العرب ،
وهذا هو الذي روى في كتب العرب من زمن ، ونحن نذهب في هذه
المسألة مذهباً وسطاً . . . وهو أنه أبدع العرب علم النحو في الابتداء

وأنه لا يوجد في كتاب سيديويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه ، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق تعلموا أيضاً شيئاً من النحو . . . وبرهان هذا أن تقسيم الكلمة مختلف قال سيديويه : فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وهذا تقسيم أصلي ، أما الفلسفة فينقسم فيها الكلام إلى اسم وكلمة ورباط وهذه الكلمات . ترجمت من اليوناني إلى السرياني ومن السرياني إلى العربي ، فسميت هكذا في كتب الفلسفة لا في كتب النحو ، أما كلمات اسم وفعل وحرف فإنها اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت ، تلك هي الأقوال الثلاثة ، والمعول عليه منها الأول ، إذ الثاني مجرد اختراع لا سر له إلا الوكوع بالانتقاص للعرب ، والثالث لا ينأهض الأول فيما خالفه فيه فإنه غير مسلم أن يكون علماء العرب عيالا على غيرهم فيما يتصل بتنظيمه بعد اهتدائهم إلى اختراعه وابتكاره .

واضعه

علمت اجمالاً أن واضعه من رجالات عصر الاسلام على ما تقدم بيانه ، لكنهم اختلفوا واضطرب اختيارهم متقدمين ومتأخرين كابن سلام في طبقات الشعراء ، وابن قتيبة في المعارف ، والزجاجي في الامالي ، وأبي الطيب اللغوي في مراتب النحويين ، والسيرافي في أخبار النحويين البصريين ، والزبيدي في الطبقات ، وابن النديم في الفهرست ، والأنباري في نزهة الألبا - فيمن هو الواضع ؟ على أن هذا الاختيار لا يعدو في الواقع أن يكون إما للامام علي كرم الله

وجهه كما يرى الأنباري ، أو لابي الأسود الدؤلي رضي الله عنه كما يراه
 السابقون قبله - فاما عزو الوضع إلى نصر بن عاصم الليثي أو عبد الرحمن
 ابن هر مز فبمعزل عن الاختيار والتأييد - ولا أطيل الحديث بنقل كلام
 هؤلاء العلماء جميعاً مكتفياً بنقل كلام الأنباري لأنه أعانهم بهذا المقام ،
 وقد سرد معظم نقولهم لتأخره عنهم مع جودة الترتيب ، فذكر مختاره
 أولاً مع روايتين في سبب وضع على كرم الله وجهه ، ثم ذكر مختار غيره
 مع روايات أربع في سبب وضع أبي الأسود رضي الله عنه - ولعلك ذاكر
 ما لفتنا النظر إليه سابقاً في سبب الوضع من أن الحق عدم الوقوف
 في سبب الوضع على أي قول عند سبب خاص - ثم فنّد القولين
 الآخرين ، ثم عاد مصرحاً برجحان اختياره قال (اعلم أيديك الله تعالى
 بالتوفيق وأرشدك إلى سواء الطريق أن أول من وضع علم العربية وأسس
 قواعده وحد حدوده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأخذ عنه
 أبو الأسود الدؤلي . . . وسبب وضع على عليه السلام لهذا العلم ما روى
 أبو الأسود قال : دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام
 فوجدت في يده رقعة فقلت ماهذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال إني تأملت
 كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء يعني الأعاجم فأردت
 أن أصنع شيئاً يرجعون إليه ويعتمدون عليه ، ثم ألقى إلى الرقعة وفيها
 مكتوب الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل
 ما أنبأ به والحرف ما أفاد معنى ، وقال لي انح هذا النحو وأصنف إليه
 ما وقع إليك ، واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر
 ولا مضمر ، وإنما يفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر ، وأراد

بذلك الاسم المبهم ، قال ثم وضعتُ بابي العطف والنعمة ثم بابي التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب إن وأخواتها ما خلا لكن فلما عرضتها على علي عليه السلام أمرني بضم لكن اليها ، وكنت كلما وضعت باباً من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية ، قال ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت ، فلذلك سمي النحو ... وروى أن سبب وضع علي عليه السلام لهذا العلم أنه سمع أعرابياً يقرأ لا يأكله إلا (الخططين) فوضع النحو

ويروى أيضاً أنه قدم أعرابي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال من يقرئني شيئاً مما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ فاقرأه رجل سورة براءة فقال إن الله بريء من المشركين ورسوله بالجر فقال الاعرابي أو قد بريء الله من رسوله إن يكن الله تعالى بريء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فبلغ عمر عليه السلام مقالة الاعرابي فدعاه فقال يا أعرابي أتبرأ من رسول الله ﷺ ؟ فقال يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن فسألت من يقرئني ؟ فاقرأني هذا سورة براءة فقال إن الله بريء من المشركين ورسوله فقلت أو قد بريء الله تعالى من رسوله ! إن يكن الله تعالى بريء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال عمر رضي الله عنه ليس هكذا يا أعرابي فقال كيف هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال إن الله بريء من المشركين ورسوله فقال الاعرابي وأنا والله أبرأ ممن بريء الله ورسوله منهم ، فأمر عمر رضي الله عنه أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع النحو ... وروى عاصم قال جاء أبو الأسود الدؤلي إلى زياد وهو أمير البصرة فقال إني أرى العرب

قد خالطت هذه الأعاجم وفسدت ألسنتها أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون به كلامهم؟ فقال له زياد لا تفعل، قال فجاء رجل إلى زياد فقال أصليح الله الأمير، توفي أبانا وترك بنونا فقال له زياد توفي أبانا وترك بنونا، أضع لي أبا الأسود فلما جاءه قال له ضع للناس ما كنت نهيتك عنه ففعل، ويروي عنه أيضاً أن أبا الأسود قالت له ابنته ما أحسن السماء فقال لها نجو منها فقالت إني لم أرد هذا وإنما تعجبت من حسنهما فقال لها إذن فقولي ما أحسن السماء فيمنئذ وضع النحو، وأول ما رسم منه باب التعجب.

وزعم قوم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرم من الأعرج، وزعم آخرون أن أول من وضع النحو نصر بن عاصم، فأما من زعم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرم من أنصر بن عاصم فليس بصحيح والصحيح أن أول من وضع النحو علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأن الروايات كلها تسند إلى أبي الأسود، وأبو الأسود يسند إلى علي فانه روى عن أبي الأسود أنه سئل ف قيل له من أين لك هذا النحو، فقال لفقت حدوده من علي بن أبي طالب (١)

ولاريب أن الاختلاف في المختار من القولين بين الجماعة والانبأري، مرجعه إلى الحدس والتخمين، فليس مع أحد المختارين ما يرجعه على الآخر لا من العقل ولا من النقل المتواتر، فهاهي إلا روايات يناهض بعضها بعضا غير أن الظنون متفاوتة عند الموازنة بين المتكافئين، ويظهر أن الحق في جانب الجماعة، فان وضع النحو أمر خطير يتقاضى من القائم به عناية مبدولة إليه خاصة وصدوقا عن مشاغل الحياة عامة، ووقتاً طويلاً

(١) راجع نزهة الألبا، وقد تركنا رواية أخرى عن زياد

يستنزف في التقصى لكلام العربى وإعمال الفكر واستخراج القواعد ،
 فى حياة كلها هدوء واستقرار ، يرفرف عليها جناح الأمن والسلام ،
 وحياة الامام كرم الله وجهه تقضت فى النضال العنيف والشجار المستحرق ،
 ملأتها الحوادث المروعة ، واكتنفتها أمواج الاضطرابات الشاملة ،
 فبعميد أن الامام يواتيه الوقت الكافى للنهوض بأعباء هذا العمل الجليل ،
 على أن لا نأبى أن له اليد الطولى على أبى الأسود فى الارشاد له ،
 والاشراف عليه ، وتقريره لما صح فى استنتاجه ، وقد يكون فى ذلك
 تقريب للجمع بين الاختلاف فى المختار فللأمام فضل الهداية إلى الأساس ،
 ولأبى الأسود فضل القيام بوضعه على ضوء هدى الامام

واضعه أبو الأسود الدؤلى

فالذى نخاله قريباً إلى الواقع ويرتضيه النظر أن أبا الأسود هو
 واضع هذا الفن ، ونسبة الوضع للفن إنما تعتبر نتيجة لقيام الواضع ببعض
 الأبواب الأساسية فى ذلك الفن ، وهذا ما كان من أبى الأسود كما رأيت ،
 واختيار الأنبارى نسبة الوضع للامام أول كلامه اعتماداً على تفهيم الامام
 أبا الأسود أقسام الكلمة وأقسام الاسم والباقي من النواسخ إنما يتم
 لو تظاهر جمهرة العلماء المعنيين بهذا الشأن على الموافقة على هذه الرواية
 والاعتزاز بها ، مع أن الذى قد سبق إليها وهو الزجاجى ساقها على أنها رواية
 من الروايات فحسب ، ونقلها عنه كذلك يافوت فى ترجمة الامام ،
 أما الباقر فلم يعرضوا لها ، وتصريحه آخر كلامه بالاختيار استناداً
 لرجوع الروايات عن أبى الأسود إلى الامام فى النهاية لا يتم أيضاً مع عدم

مخالفتنا له في رجوع الروايات للامام ، ولا يؤدي ذلك إلى انتماء الوضع له على ما سبق في التقريب بين الاختيارين ، ومما يؤيد نسبة الوضع إلى أبي الأسود ما روى ابن النديم في الفهرست عن محمد بن اسحق أن رجلاً بمدينة الحديثة اسمه محمد بن الحسين كان جماعة لا يكتب ، وقد آلت إليه خزائن صديقه له كان مشتهراً بجمع الخطوط القديمة قال ابن اسحق (فرايتها وقلبتهم فرأيت عجيباً إلا أن الزمان قد أدخلها وعمل فيها عملاً أدرسها ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته ، وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه : فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمه الله عليه بخط يحيى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوى وتحت هذا خط النضر بن شميل)^١ ولقد درج على هذا الرأي متقدمو المؤرخين من أصحاب الطبقات والمعاجم واحتذى حذوهم المتأخرون عدا الأنباري ، فمن الغريب بعدئذ أن يستنكر المستشرقون هذه النسبة المتواطئة أيها قديماً وحديثاً زعماء منهم أن عصر أبي الأسود لا يتواءم وهذه الاصطلاحات الوضعية المرتبة التي بأيدينا ، وإنما هي وليدة عصر متأخر عنه ، تطور فيه التعليم حتى صار مناسباً لهذه القواعد المرتبة قالوا (وليس حقاً ما يقال : إنه «أبا الأسود» واضع أصول النحو العربي)^٢

وقد اقتفى أثرهم بعض علماء العصر الحاضر . ولهذا تخلص الاستاذ أحمد أمين من الموقف بتأويل بهيد تذرّع به إلى التوفيق بين الاعتراف

(١) راجع الفهرست الفن الأول من المقالة الثانية

(٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول العدد الخامس ترجمة أبي الأسود

بما هو مستفيض شائع وبين هذا الرأي الجديد ، وتلمس وجهاً لنسبة الوضع
إلى أبي الأسود بعد تسليم صحتها لكن على وجه آخر فقال (ويظهر لي
أن نسبة النحو إلى أبي الأسود لها أساس صحيح وذلك أن الرواة يكادون
يتفقون على أن أبا الأسود قام بعمل من هذا النمط وهو أنه ابتكر شكل
المصحف ... وواضح أن هذه خطوة أولية في سبيل النحو تتمشى
مع قانون النشوء ، ويمكن أن تأتي من أبي الأسود ، وواضح كذلك
أن هذا يلفت النظر إلى النحو فعمل أبي الأسود يسلم إلى التفكير
في الاعراب ووضع القواعد .. وأن هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعد ،
وسموا كلامهم نحواً سجدوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود ،
وقالوا إنه واضح النحو للشبه في الأساس بين ما صنع وما صنعوا وربما
لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتاً ... إنما الذي كان له الفضل الأكبر
في ذلك الخليل بن أحمد ذو العقل الجبار المبتكر الذي قل أن يوجد له نظير
في علماء ذلك العصر ... وهو الذي عمل النحو الذي نعرفه إلى اليوم)^١
نعم نحن لا ننكر ما للخليل من الفضل لا على النحو بل على كثير
من علوم اللغة العربية ، وستعرف آثاره في ترجمته إن شاء الله تعالى
لكننا مع ذلك على رأينا الأول

فليس بغريب على أبي الأسود الذي أوتي العلم الواسع أن يلهم
هذا الفن ويضع تعاليمه التي يسار عليها وينسج على منوالها ، ولا ندعي
أنه قد وفق إليه على غرار ما رآه في كتبنا من تعريفات ومصطلحات
وتقاسيم ، فإن طبيعة هذه السابق على عصر المقتنين تقتضي مجرد اتجاهه

إلى أبواب هذا العلم إجمالاً حسبما تقتضيه الفطرة العربية على وفق ماورد
في مختلف الروايات الكثيرة التي صرحت بنسبة الوضع إليه فقط
دون تعرض إلى التفصيل ، وذلك كاف في اعتباره المؤسس له ، نعم قد تطور
بمسيرة الزمن وأضيف إليه من كل طبقة بعد أخرى ماضخمه وصيره
فنًا مستكمل الدعائم مرتب الأبواب منظم التقسيم ، مع التعاريف التي
امتازت بها الأبواب والتقسيم والاصطلاحات العلمية الخاصة ، إلا أنه
مما لا يختلف فيه اثنان أن النهضة بهذا العلم في تلك النواحي كان عمادها
الخليل بن أحمد ، فمن عهد انتظم شتاته ، والتأم عقده ، واتخذ تعليمه دوره الفنى
كما مستقف على ذلك في أطواره ، ومع هذا فإن عناصره الأساسية
التي اهتمدى إليها أبو الأسود بتعليم وإقرار الامام على لم تتغير ولم تبدل
ولقد اعترف العلماء متقدمين ومتأخرين على أن أبا الأسود هو الذى
ابتكر شكل المصحف فلعل ذلك كان منه تكميلاً لما بدأ به من القيام
بما يحفظ على المسلمين كتابهم الكريم ولغتهم الشريفة
وما لنا ننكر هذه النقول الصريحة وقد وافق عليها الخلف بعد السلف
عصراً بعد آخر تلك الأزمنة المتطاولة ولم نر منهم نكيرا ،
على أننا لو تمثلنا شخصيته ونزعتة وعصره الذى كان ينشر فيه علمه
بالبصرة لا يقنا صحة هذه النسبة . فقد كان علوى الرأى يجاهر بتشيعه
وهواه فيمدح الامام بالقصائد الحسان ، وعمال البصرة وسواد العراق
من قبل معاوية يشقون عليه ويعتقونه ، حتى بنوقشير الذين جاورهم
وصاهرهم بزواجه منهم امرأته أم عوف أكرموا معه فسبوه ونالوا من
على كرم الله وجهه إيلا ماله وقذفوه ليلاً بالحجارة قال المبرد (وكان بنوقشير

عثمانية وكان أبو الأسود نازلاً فيهم فكانوا يرمونه بالليل فاذا أصبح شكوا ذلك فشكوا مرة فقالوا ما نحن نرميك ولكن الله يرميك فقال كذبتم والله لو كان الله يرميني لما أخطأني^١

أضجر ذلك كله أبا الأسود وأقضى مضجعه فانزلق إلى هجاء أمير العراق زياد وابنه عبيد الله، وهما مها، وقد توالى خلافة الأمويين زمنًا ليس بالقصير، وهم منطوون على نار من الحقد للعلويين وأتباعهم إذ لم تقم دولتهم إلا بدعوى المطالبة بدم عثمان بعد اتهامهم أمير المؤمنين علياً بالتفريط فيه والتغاضي عن السافكين دمه رضوان الله عليه، فكيف يدعون أمراً خطيراً كهذا يمضي على كر الزمان ويخلد في بطون الاسفار، وهم أحرص الناس على الغرض من شأن العلويين وشيعتهم، لا سيما في مثل هذا الشأن ذي البال والأثر الخالد

تسميته بالنحو بعد أبي الأسود

روت كتب الأدب والتراجم على سبيل اليقين أن هذا العلم كان يسمى بالعربية في عصر أبي الأسود قال ابن سلام في الطبقات (وكان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسيها أبو الأسود الدؤلي) وقال ابن قتيبة في المعارف (أول من وضع العربية أبو الأسود) وقال ابن حجر في الإصابة (أول من ضبط المصحف ووضع العربية أبو الأسود) فالتسمية بالنحو بعد عصره، إلا أنها لم تتجاوز الطبقة الثانية فقد اشتهرت عنها مؤلفات اتسمت بأنها نحوية، وصرح فيها باسم النحو

كما ستقف على ذلك في الطبقات إن شاء الله تعالى ، فإيذ كر في كتب
التراجم من نسبة التسمية بالنحو إلى أبي الأسود مبنى على التسامح
وملاحظ فيه انسحاب التسمية الطارئة بالنحو بعد على ما كان من أبي الأسود
ضرورة أن ما وضعه أبو الأسود أساس ما وسموه بالنحو ، ولو غنى أصحاب
التراجم بتعيين صاحب التسمية ووقتها لأغنونا عن تنازع الظنون

سبب التسمية بالنحو

اسم العلم من وضع أهله ومصطلحهم لمقتضى الملابس المناسبة
في نظرهم وقد سلف أن أبا الأسود لما عرض على الإمام ما وضعه فأقره بقوله
(ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت) - فأثر العلماء تسمية هذا العلم
باسم النحو استبقاء لكلمة الإمام التي كان يراد بها أحد معاني النحو
اللغوية ، والمناسبة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي جلية .

نشأة النحو وتدرجه

نشأ النحو أول أمره صغيراً شأن كل كائن ، فوضع أبو الأسود
منه ما أدركه عقله ، ونفذ إليه تفكيره ، ثم أقره الإمام على ما وضعه
وأشار عليه أن يقتضيه ، فقام بما عهد إليه خير قيام ، ولم يهتد ببحث العلماء
إلى يقين فيما وضعه أبو الأسود أولاً على ما سلف تفصيلاً ، وكانت هذه
النهضة الميمونة بالبصرة التي كان في أهلها ميل بالطبيعة إلى الاستفادة من
هذا الفن اتقاء لوباء اللحن الزارى بصاحبه ، وخاصة الموالى الذين كانوا
أحوج الناس حينذاك إلى تلقي هذا العلم رغبة منهم في تقويم لسانهم

وتخايصه من رطانة العجمة ، وحبا في معرفة لغة الدين الذي اعتنقوه ،
وطمعا في رفع قدرهم بين العرب ، فصدقت عزيمتهم في دراسته والتزيد منه ،
وما انفكوا جادين فيه بعدئذ حتى نبغ منهم كثير قاموا بأوفى قسط
في هذا العلم ، وقادوا حركته العلمية قال المبرد (مر الشعبي بقوم من
الموالي يتذاكرون النحو فقال لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده)^١
فكان منهم علماء المبرزون دراسة وتأليفا حتى أشير إليه ردحا من الزمن
أنه علم الموالى

فلأبى الأسود الفضل الوافر في بدء الغرس الذي نما وترعرع وازدهر
على كر الزمان بإضافة اللاحق إلى السابق ما استدركه وما ابتدعه فازداد
فيه التدوين والتصنيف شيئا فشيئا ، غير أن هذا العلم لم تطل عليه الأيام
كسائر الفنون فاكتمل وضعه قبلها ، والباعث على النشاط فيه والسرعة
شمور العرب بالحاجة اليه قبل كل علم ، فان الفتوحات الإسلامية متوالية
في الامصار ، والعرب متدفقون عليها ، والامتزاج مستحكم بينهم وبين
من دخلوا في حوزتهم ، وعثر اللحن منتشر أذى الأبصار ، فهب
العلماء لايلاون على شيء منكشدين في تدوينه ، فكان يسير مخطى فسيحة
تبشر بالآمل القوى العاجل ، حتى نضج ودنا جناه ، فتم وضعه في العصر
الأموى دون سائر العلوم اللسانية

وما استهل العصر العباسى إلا وهو يدرس دراسة واسعة النطاق
في العراقين (البصرة والكوفة) ، وكل وأوفى على الغاية في بغداد
ولما ينقض العصر العباسى الأول وذلك قبل تمام القرن الثالث الهجرى :

ولقد تلمسنا تعرف المراحل التي اجتازها هذا العلم طبقاً لنواميس
النشوء (فلك كل علم أطوار يمر بها كما يمر الحي بأطوار الحياة) - وليدأ
وناشئاً وشاباً وكهلاً - في كثير من الكتب التي يخل فيها التعرض لذلك
فما وقفنا على ما يشفي الغلة وينير السبيل ، فلاح لنا بعد إنعام الفسكرة
وإطالة النظرة أن نجعل الصلة بين هذه المراحل وبين العلماء القائمين بأمر
هذا الفن إذ كان على أيديهم ما نقله من طور إلى آخر .

روى لنا التاريخ أن البصريين هم الذين وضعوه وتعهدهم بالرعاية
قُرابة قرن كانت فيه الكوفة منصرفه عنه مما شغلها من رواية الأشعار
والأخبار والميل إلى التندر بالطرائف من الملاح والنوادر ، ثم تكاف
الفريقان على استكمال قواعده ، واستغنهما التنافس الذي جد بينهما
واستعرت ناره ردحا من الدهر ينيف على مائة سنة ، خرج بعدها هذا
الفن نام الأصول كامل العناصر وانتهى الاجتهاد فيسه ، وحينذاك التأم
عقد الفريقين في بغداد ، فنشأ المذهب البغدادي الذي عماده الترجيح
بين الفريقين ، ثم شمع نور هذا العلم في سائر البلاد الإسلامية
التي احتفظت به بعد أن دالت دولة بغداد العلمية ، وفي طليعتها الأندلس
في عصرها الزاهر ، ومصر المعزية ، والشام وما يتاخما .

أطوار النحو الأربعة

وعلى ضوء هذا التاريخ قد اعتبرنا أطواره أربعة ، طور الوضع
والتكوين (بصرى) ، طور النشوء والنمو (بصرى كوفى) ، طور
النضوج والكمال (بصرى كوفى) ، طور الترجيح والبسط في التصنيف
(بغدادي وأندلسي ومصرى وشامى)

على أنه ليس في الاستطاعة وضع حد توقيتي ينفصل به كل طور عما يسبقه أو يعقبه ، فإن الأطوار لا بد من تداخلها وسريان بعض أحكام سابقها على لاحقها ، كما أنه لا مناص من تسرب شيء مما في تاليها على بادئها ، فغير ممكن أن يوجد الطور دفعياً وإنما تلده المؤثرات التي تسبقه وتمهد له وهي بالطبع في غيره إلا أنها لما تكاثرت وتزايدت حتى بدا للعلم بمقتضاها طابع آخر غير الطابع السابق عليه استوجبت جملة في طور آخر جديد ، ولا يكون ذلك التمييز الظاهر إلا بعد انقضاء زمن المداخلة بين الطورين - وعلى هذا الأساس فإن تحديد هذه الأطوار إلى التقريب أقرب منه إلى التحقيق ، وبدهي أن تحديدها بالأشخاص على ما سبق يعود بالتبع إلى طبقاتهم التي يمثلونها ، وستعرف هذه الطبقات مرتبة بحسب الزمن مع تراجم أشخاصها كلهم ، وإننا سنكتفي في هذا التحديد بالأشخاص المبرزين المعلمين فقط للاختصار .

الأول طور الوضع والتكوين (بصرى)

هذا الطور من عصر واضع النحو أبي الأسود إلى أول عصر الخليل ابن أحمد ، وقد سلف أن وضعه انتهى في عصر بني أمية .
هذا هو الطور الذي استأثرت به البصرة صاحبة الفضل في وضعه وتعهده في نشأته ، والكوفة منصرفه عنه بما شغلها من رواية الأشعار والأخبار والنوادر زهاء قرن ، اشتغل فيه طبقتان من البصريين بعد أبي الأسود حتى تأصلت أصول منه كثيرة وعرفت بعض أبوابه فإن الطبقة الأولى التي أخذت عن أبي الأسود استمرت في تنمير

ماتلقته عنه ووفقت إلى استنباط كثير من أحكامه وقامت بقسط
في نشره وإذاعته بين الناس . وكان من أفذاذ هذه الطبقة عنبسة بن معدان
القيـل ونصر بن عاصم الليثي وعبد الرحمن بن هرمز ويحيى بن يعمر
العدواني ، ولم يدرك أحد من رجال هذه الطبقة الدولة العباسية ،
ويغلب على الظن أن ماتكون من نحو هذه الطبقة فضلاً عن قلته كان
شبه الرواية المسموع فلم تنبت بينهم فكرة القياس ولم ينهض ماحدث
في عهدهم من أخطاء إلى إحداث ثغرة خلاف بينهم لقرب عهد القوم بسلامة
السليقة ، كذلك لم تقو حركة التصنيف بينهم فلم يؤثر عنهم إلا بعض نتف
في مواطن متفرقة من الفن لم تبلغ حد الكتب المنظمة إذ كان جل اعتمادهم
على حفظهم في صدورهم ، رواياتهم بلسانهم ، وزعم بعض المؤرخين أن استاذها
أبا الأسود قد وضع مختصراً على ما تقدم بيانه

أما الطبقة الثانية التي كانت أكثر عدداً من سابقتها فقد كانت أوفر
منها حظاً في هذا الشأن إذ وطأت لها سبيله فازدادت المباحث لديها
وأضافت كثيراً من القواعد ونشأت حركة النقاش بينها فجدت في تتبع
النصوص واستخراج الضوابط ماهياً لها وقتها واستطاعت التصنيف
فدونت فيه بعض كتب مفيدة ، وكان من المشار إليهم فيها عبد الله
ابن أبي اسحاق الحضرمي الذي يقول فيه أبو الطيب (وكان يقال عبد الله
أعلم أهل البصرة وأعقاهم ففرع النحو وقاسه) - وكان يخطيء الفرزدق
كثيراً حتى هجاه واستعرف تفصيل ذلك في ترجمته بمشيئة الله تعالى ،
وعيسى بن عمر النخعي صاحب الكتابين : الجامع والاكمل ، وقد نوه عن

فضلهما الخليل بن أحمد بقوله
ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر
وأبو عمرو بن العلاء صاحب التصانيف الكثيرة على ما ستعرف
في ترجمته ورجال هذه الطبقة أظلمتهم الدولة العباسية جميعاً خلا عبد الله
ابن أبي اسحاق الذي مات سنة ١١٧ هـ
لم ينتقض هذا الطور حتى وفق العلماء إلى وضع طائفة كبيرة من أصوله
بعثتهم إلى التزيد فيها، فاختمت يديهم فكرة التعليل التي كان أول متجه لها
ابن أبي اسحاق كما أنه أول من نشط للقياس وأعمل فكره فيه وخرج مسائل
كثيرة عليه، ووافقه عليه عيسى بن عمر، وخالفهما بعض معاصريهما فانفج
ميدان القول في هذا العلم وأنس الناس به وتداولوه في كتبهم التي كانت
تساير روح هذا العهد، فقد كانت مزيجاً من النحو واللغة والأدب وما إلى
ذلك من علوم اللغة العربية لأن هذه الفروع كانت متداخلة آخذاً بعضها
بمحجز بعض لقرب الوشيجة بينها في الغرض والمقصد، فكان الأديب
حينذاك نحويًا لغويًا والنحوي أديبًا لغويًا وهكذا، يحملنا على هذا
ما روى لنا عنهم في نقاشهم ومحاوراتهم وإن لم تصلنا مؤلفاتهم التي طارت بها
عواصف الأيام، ونالها ما نال أربابها من الزوال وصدق المتنبي في قوله
تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع
نعم أخذت هذه الفروع يمتاز بعضها من بعض في البحث والتدوين
من أوائل الطور الثاني تدريجياً حتى اشتهر بعض العلماء بالنحو وأشهر
إلى آخر باللغة ودواليك

الثاني طور النشوء والنمو (بصري كوفي)

هذا الطور من عهد الخليل بن أحمد البصري وأبي جعفر محمد ابن الحسن الرؤاسي إلى أول عصر المازني البصري وابن السكيت الكوفي فـ هذا الطور مبدأ الاشتراك بين البلدين في النهوض بهذا الفن والمنافسة في الظفر بشرفه [فقد تلاقت فيه الطبقة الثالثة البصرية برياسة الخليل والأولى الكوفية بزعامه الرؤاسي ، وكذا بعدهما طبقتان من كل من البلدين ، فوثب هذا الفن وثبة حي بها حياة قوية أبدية بعد ، وكان هذا الطور حرياً أن يسمى طور النشوء والنمو

ونقصد الآن بالنحو معناه العام الذي يشمل مباحث الصرف لأن مباحث رجال الطور الماضي كانت منصرفه حول أواخر الكلمات كما عرف عنهم بخلاف رجال هذا الطور فانهم قد اتجهت أنظارهم إلى مراعاة أحوال الأبنية أيضاً فقد راعهم ما اعتورها من خطأ يجب درؤه . وذلك أنهم ما حاولوا صون الكلام من غوائل اللحن في أطرافه إلا ضناباً به أن لا ينهض بالافادة والاستفادة المقصودتين منه ، ورعاية أواخر الكلمات بقوانين النحو وإن كفلت دفع اللحن عن الكلام وأصلحت هيكله الصوري للتأدية العامة إلا أن تلك التأدية لا تتم فيه إلا إذا سلمت جواهر أجزائه التي يتقوم بها ، وما تأخرت ملاحظتها لهذا الحين إلا لقلّة العثرات فيها بالاضافة الى العثرات التي كانت تعترض الكلام في أواخر أجزائه ، ولأن الخطأ فيها لا يذهب بالمعنى المقصود للمتكلم كالخطأ أواخر الكلمات ، كما لمست هذا في سبب وضع النحو فمن هذا الحين ظهرت مباحث الصرف في طي كتب النحو وشغلت

منها فراغا وعم الأمرين اسم النحو ، واستمر هذا الاندماج طويلا
 من الزمن حتى تدوول في بعض كتب المتأخرين ، ولذا عرف بعضهم النحو
 بأنه علم يعرف به أحوال الحكم العربية أفراداً وتركيبا يشمل الأمرين
 نعم قد تقلص عن كتب النحو من أوائل هذا الطور مالا يتصل به
 هذا الاتصال الوثيق كمباحث اللغة والآداب والأخبار ، ولا ريب أن
 للصرف من بين سائر علوم اللغة العربية قرابته الدنيا بالنحو ، على أن
 الخليل وهو غرة جبين هذا الطور قد جمع بين اللغة والنحو فانه ذكر في كتاب
 العين الذي هو الأساس لكتب اللغة فيما نعلم مقدارا كبيرا من النحو
 ابتدأ هذا الطور وأخذت العلماء في كتب النحو ومباحثه سميا آخر
 غير ما اتجهوا إليه في الماضي على ما عرفت ونشطوا في التقصي والاستقراء
 للمأثور عن العرب وفي أعمال الفكر واستخراج القواعد وكان مبعث ذلك
 النشاط هو التنافس البلدي الذي عرض إبان هذا الطور فرام كل من
 أهل البلدين (البصرة والكوفة) الظفر على الآخر ، فالخليل بعد أن جاب
 بوادي الحجاز ونجد وتهامة مواجهاً العرب في صحرائها مستمعاً لأحاديثها
 يعود إلى البصرة ويستجمع كل ما سمع ويشجذ ذهنه الحاد ويفرغ للبحث
 عن لآلئ هذا الفن من بحر علمه العميق حتى جمع أصوله وفرع تفاريمه
 وضم كل شيء إلى لفقه وساق الشواهد وعلل الأحكام وبلغ في ذلك غاية
 محمودة فاتت كل من سبقه ، بيد أنه اكتفى عن تدوينه موسوعة فيه بطلبته
 الذين كان يملئ عليهم ، وممن حمل الراية في البصرة مع الخليل إلا أنه قعر
 مجهوده على النحو يونس الذي نصب نفسه للأفادة فكانت له حلقات دراسة
 يؤمها القاصي والداني من فصحاء الأعراب وأهل العلم وكان له في النحو

أقيسة ومذاهب خاصة تفرد بها

ولقد عاصرهما الرؤاسي الكوفي شيخ الطبقة الاولى الكوفية-
فانه بعد اشتراكه معهما في التلقي عن الطبقة الثانية البصرية يسم الكوفة
وألقى عصاه فيها وقد ألفى عمه معاذ بن مسلم الهراء الذي كان أقدم منه سنًا
يزاول هذا العلم ألا انه كلف بالبحث عن الأبنية والتارين إلى أن غلبت
عليه الناحية الصرفية التي التفت إليها الكوفيون واستنبطوا للصرف
كثيراً من القواعد التي سبقوا بها البصريين حتى عدم المؤرخون
الواضحين للصرف إذ كان الصرف عند البصريين في المحل الثاني ،
ولم يكف ذلك الكوفيين في دفع التخلف اللاحق بهم على مافاتهم من
شرف النحو فها الكوا عليه وتزاحوا بالمناكب شأن المفرط الذي يحاول
تلافي خطئه ، فظهرت فيهم علماء وانبعثت فيهم فكرة التأليف ،
وكان أول مؤلف تداوله بينهم كتاب (الفيصل) للرؤاسي ، روى ابن النديم
وغيره (وقال الرؤاسي بعث الخليل إلى يطلب كتابي فبعثت به إليه فقرأه ،
وكل ما في كتاب سيبويه وقال الكوفي كذا فانما يعني الرؤاسي)
تكون على يد الامامين الخليل ومن معه من البصريين ، والرؤاسي
ومن معه من الكوفيين بكل من البلدين مدرسة خاصة لها علم
تمحاز اليه كل فرقة وتتابع الطبقات المتعاصرة من كلا البلدين
فسطع في سماء البصرة نجوم متألفة تألف منها عقد الطبقة الرابعة

(١) راجع الفهرست الفن الثاني من المقالة الثانية ، ونزهة الألبا ترجمة الرؤاسي
ومعجم الأدباء ترجمته أيضا ج ١٨ ص ١٢٢

بزعامه سيديويه الذي وهب ملكة التصنيف والتنسيق فأبدع كتابه على مثال لم يسبق إليه ولم يدع للمتأخرين استدراكا عليه ، وكان يعاصرها الطبقة الثانية الكوفية التي كان يقودها الكسائي الذي لم يأل جهداً حتى أخرج للناس مؤلفات استفادوا منها ، وشد من أزره إقبال الدنيا عليه بعد اتصاله بالخلفاء والامراء ببغداد ، فاعتد للكوفيين فيها متكاً وسعى سعيه حتى كون من الكوفيين جبهة قوية ثبتت أمام الجبهة البصرية ووقفت منها موقف الند للند ، فانه الذي يعتبر بحق المؤسس للمذهب الكوفي ، ولولاه لذهبت ريحهم ولما خفقت بنودهم على بغداد التي عطفت عليهم من هذا الحين ورفعت شأنهم ، فاستفز ذلك البصريين لمناصبهم أشد العداوة واشهر سلاح الخصام في وجوههم ، وما زال كل من البلدين جد حريص على حوز قصب السبق رغبة في التغلب وحرصاً على الازراء بالآخر وتفانياً في الدنو من العباسيين ، فانسعت رواياته واستفاض تعليمه بين الدهماء وازدادت تأليفه .

فالأخفش البصري شيخ الخامسة يصنف ويذيع على الناس ما أوتيته من علم ، ومعاصره الفراء الكوفي استأذ الثالثة تغمره عطايا المأمون وتحفزه إلى نشر العلم وتتيح له أن يدون طوال الكتب التي راجت في بغداد والكوفة .

كل ذلك بفضل المناظرة التي بدأت هادئة أول الأمر بين البلدين على يد الخليل والرواسي ، ثم اشتدت على مرور الأيام وكان لها أثرها الفعال إذ كانت وفوداً صالحاً لاشعال نار الاجتهاد والدأب على استكمال ما بقى من مواد هذا الفن ، فحى وطيسها في غضون هذا الطور واندلع لهيبها

إلى نهاية الطور الثالث فصلى بنارها كثير من جملة البصريين وقليل من الكوفيين ، وسندكر لمحة عنها إن شاء الله تعالى بعد إتمام الكلام على هذين الطورين (البصريين الكوفيين) فإنه عند تلاقى الفريقين ببغداد وابتداء الطور الرابع الجديد قد انطفأت نار العصبية البلدية واختبأ أوارها ، فلم تك مناظرات بصرية وكوفية

وقصارى القول أنه لم ينصرم هذا الطور حتى قطع النحو شوطاً كبيراً شارف فيه النهاية فأرهفت له الأسماع وكثرت فيه المؤلفات التي أزيل منها ما ليس من فن النحو وإن كان التصريف مألوثاً مندماً فيه عند البصريين ، فإن كتاب سيبويه وهو البقية الباقية بأيدينا من مؤلفات هذا الطور والمرآة التي تنكشف بها صورة التأليف فيه قد جمع بين الفنين ولقد بهر العلماء أمر هذا الكتاب إذ قصرت همهم عن مطالعته حينئذ من الدهر فلم يروا إلا الطواف حوله تعليقاً عليه في النواحي المختلفة شرحاً واختصاراً وانتقاداً واستمدراكاً ورداً وإعراباً للشواهد ، وكان لذلك أثره في استبقاء الفنين معاً بحثاً وتصنيفاً مدة مديدة عند كثير من العلماء الذين انتضوا للتأليف في كتبهم الخاصة بعد فاحتذوا حذو سيبويه ومزجوا بينهما واستمر ذلك طويلاً حتى تخطى ابن مالك لمن بعده أما الكوفيون فقد ألفوا في بعض أبواب الصرف كتباً خاصة اعتناء بشأنها ، لكن لم تصل تأليفهم إلى حد يجعل الصرف منفرداً عن النحو بالتأليف ، صنّف الرؤاسي كتاب التصغير ، والكسائي كتاب المصادر ، والفراء كتاب فعل وأفعل ، ومع هذا فإن النحو قد طفق يتخاضع من الصرف ويستقل الصرف بالتأليف في مستهل الطور الآتي على ما ستري

الثالث طور النضوج والكمال (بصري كوفي)

هذا الطور من عهد أبي عثمان المازني البصري إمام الطبقة السادسة ويعقوب بن السكيت الكوفي إمام الرابعة ، إلى آخر عصر المبرد البصري شيخ السابعة ، وثعلب الكوفي شيخ الخامسة
لقد هيا الطور السالف لهذا الطور الكمال والنضوج بفضل ما بذل رجاله من جهد مضمّن كان له الأثر الناجع في تخريج جمهرة من العلماء امتاز بها هذا الطور عن سابقيه في كلا البلدين

ولقد شمر الجميع عن ساعد الجد ونزلوا الميدان تسوقهم العصبية البلدية وكان حادي عيسهم في البصرة أبو عثمان المازني وأبو عمر صالح الجرمي وأبو محمد التوزي وأبو علي الجرمازي وأبو حاتم السجستاني والرياشي والمبرد وغيرهم ، وفي الكوفة يعقوب بن السكيت ومحمد بن سعدان وثعلب والطوال وغيرهم ، وكثيراً ما جمعت الفريقين ببغداد بين حين وآخر على تعصب كل لمذهبه وانتقال هذا التعصب لمن يشايعهما ، فكانت مناظرات وإفحامات تقض المضاجع وتحز في النفوس حتى تلاقيا أخيراً وتوطنا ببغداد على صغف في القلوب أذهبه تعاقب الأيام وانقراض المتنافسين شيئاً فشيئاً .

كل ذلك دعاهم إلى الانهماك والنشاط ، فأكملوا مافات السابقين وشرحوا مجمل كلامهم واختصروا ما ينبغي وبسطوا ما يستحق ، وهذبوا التعريفات وأكملوا وضع الاصطلاحات ، ولم يدعوا شيئاً منه إلا نظروه ولا أمراً من غيره إلا فصلوه ، فخلص النحو من الصرف

الذي بقي وحده متمسكا به في التأليف إلى أول هذا الطور
وأول من سلك هذا السبيل المازني فقد ألف في الصرف وحده
ومشق ذلك الطريق لمن بعده ، ومن هذا الحين تشعبت مسالك التأليف
في العلوم العربية فمن مؤلف في النحو وحده ومن مصنف في الصرف
وحده ومن خالط بينهما ، وقد رعى العهد القديم المبرد في كتابه الكامل
الذي جمع فيه من كل دوحة غصنا ، فبينما يسبح في الأخبار إذا هو يوافيك
بالتحقيق اللغوي ثم إذا هو يباغتك بالاشكالات الغريبة في النحو
ولا تكاد تنتهي منها حتى يطل عليك بالأدب الطريف ، إلا أن ذلك النهج
قليل تلقاء ما كثر من مؤلفات مستقلة بالفروع العربية بعد تمييزها ،
وكان أكثرها مصنفات فن النحو الذي قد تحولت لطجات التصنيف فيه
عن ذي قبل بما وضع فيها من العبارات التأليفية والمصطلحات النحوية
التي بقيت خالدة في كتب النحاة إلى يومنا هذا ، وإنا نرى ذلك واضحا
عند الموازنة بين كتاب سيبويه وبين مخلفات هذا الطور

لم ينسلك هذا الطور حتى فاضت دراساته في المدن الثلاث (البصرة
والكوفة وبغداد) وما يهاقبا واغترف الجميع من منهله وبذلوا الجهود
الجبارة في استكماله والاحاطة بجميع قواعده (وكان لهم ما أرادوا)
فاستوى النحو قائما على قدميه ومثلت صورته بارزة للجميع وامتنازت
شخصيته وأوفى على الغاية التي ليس وراءها نهاية لاستزيد ولا مرتقى
لذي همة ، فتمت أصوله وانتهى الاجتهاد فيه بين الفريقين على يد
الأمامين المبرد خاتم البصريين وثعالب خاتم الكوفيين ، روى ياقوت
(قال لي أبو عمر الزاهد سألت أبا بكر بن السراج فقلت أي الرجلين

أعلم ثعلب أم المبرد فقال ما أقول في رجلين العالم بينهما^(١) وكان بين الإمامين ما بين المتعاصرين من الأحن والأضغان ، واسكل منهما شيعته وأنصاره ، والعيون لها رامة ، فكانت المناظرات بينهما دائبة ، والغلب بينهما سجال ، ورحمة الله على الجميع

كانت نهاية هذا الطور الثالث طور النضوج والكمال في أخريات القرن الثالث الهجري بعد أن توافد الفريقان على بغداد أرسالا وهجرا المعمرين عند ما كثرت فيهما الاضطرابات وتوالت الحن من القرامطة والزواج وعدا عليها حدثان الدهر بعد أن أبليا في سبيل هذا العلم بلاء حسنا خلده لهما الدهر في صحائفه ، ومع ذلك فقد ظلت الحزبية قائمة إلا أنها أخذت في الانحلال فان توحيد الوطن بينهما واتصالهما بالخلفاء والامراء والشعب البغدادي عاملان على تقويض دعائم الخلاف بينهما وإنه لما يجمل بنا هنا أن نذكر كلمة مرجزة تتعلق بالطورين الأخيرين (الثاني والثالث) نعرض فيها لبعض المناظرات والمجاسات النحوية التي جرت بين البلدين فأنها حدثت فيهما فكانت سببا في آثارها المترتبة عليهما

كلمة في مناظرات الطورين (الثاني والثالث)

إن المتتبع لتراجم رجال الطورين في البلدين يرى أن كل واحد منهم قد خب فيها ووضع ، وأن المشادة بين الفريقين ما فترت حيناً ، إذ كانت تثيرها الرغبة في الوصول إلى الحقائق والاعتزاز بالنفس والعصبية للبلد والنمط العلمي ، والطمع في نائل الخلفاء والامراء الذين ساهموا بتسقط قيم فيها ،

(١) راجع معجم الادباء ترجمة ثعلب ج ٥ طبعة دار المأمون

وكان أغلبها على أيديهم أو على كتب منهم وحكموا في كثير منها فنصروا
وخذلوا ورفعوا وخفضوا ، كان لذلك كله أثره في زج العلماء بأنفسهم
في هذه المعمعة التي كان يأمل كل واحد فيها أن يكون المجلي ، لأن هذا العلم
حينذاك لما ينضج في أغلب مسائله ولم يتخذ شكلا ولا صورة ثابتة
يقف أمامها كل رائد مكتوف اليد بل كان يبدو لكل مالا يلحظه الآخر .
وحجة هذا تناهض دليل ذلك لاختلاف الروايات وتفاوت المسموعات
وتنوع العصبية ، ولقد تطاير شررها من الخارج إلى الداخل فكانت
مناظرات بين البصريين أنفسهم والكوفيين أنفسهم

إن المناظرات تصير حيث يصير العلم وحيث يصير العلماء . فخب
الغلبة جبلي في الانسان في مظاهر الحياة المختلفة ، فكيف العلم الذي هو
أنبل الغايات وأسمى المقاصد ، نعم إذا كان مبعث المناظرات محض العلم
فبماذا الغرض والمطلب ، لكنها فيما نحن فيه قد شيدت بالعصبية فكانت
حربا ضروبا غير أنها محمودة المغبة على كل حال لما تسفر عنه من نتائج
القرائح المكنونة ، فما نعمت اللغة وغنيت إلا من هذا السجل العلمي
و (عند الصباح محمد القوم السرى)

من مناظرات الطور الثاني

إن مناظرات الطور الثاني على كثرتها كان قطب رحاها في الكوفيين
الكسائي إذ كان دريئتهم وحامي حقيقة قمتهم فنازل الأصمعي وسيدبويه
واليزيدي وغيرهم ولنقتصر في هذا الطور على ثلاث منها

بين الكسائي والأصمعي

روى الزجاجي في أماليه « كان الكسائي والأصمعي محضرة الرشيد

وكانا ملازمين له يقيمان بأقامته ويظعنان بظعنه فأنشد الكسائي
 أنى جزا وأما رسواى بفعلهم أم كيف يجزوننى السوءى من الحسن
 أم كيف ينفع مانعطى العـلوق به رثمان أنف إذا ماضن بالبن
 فقال الأصمعى إنما هو رثمان أنف بالنصب فقال له الكسائي
 اسكت ما أنت وذاك ، يجوز بالرفع والنصب والخفض ، أما الرفع فعلى الرد
 على ما لأنها فى موضع رفع ينفع فيصير التقدير أم كيف ينفع رثمان أنف
 والنصب بتعطى والخفض على الرد على الهاء فى به قال فسكت الأصمعى

بين الكسائي وسيبويه

طمحت نفس سيبويه إلى الشخصوص إلى بغداد أملا فى الخطوة
 عند الخلفاء والامراء ، فارتحل إليها وما يدرى ما خبأه الغيب له قرب
 ساع لحظه ، وحق ما قال خليفة بن براز الجاهلى

١ راجع امالى الزجاجى ، والمناظرة مذكورة أيضا فى امالى ابن الشجرى ،
 ومعجم الأدباء ترجمة الكسائي ، والمغنى الباب الأول حرف أم ، وخزانة الأدب
 شاهد ٩٠٦ ، والعلوق الناقة التى ترأى البو وهو جلد الحوار يحشى تبنا أو ثماما
 ويقدم لها إيهاما انه ولدها عند فقده ثم لا تدر اللبن والرثمان مصدر لرؤم كسمع
 سماعى وأضافه إلى الأنف لأنه مظهر حنوها ، والمعنى إني لأعجب من قومى كيف
 يعاملون بى عامر بن صعصعة بالشر فى مقابلة الخير ، وأعجب من ذلك مكافأهم لى
 وأنا ادافع عنهم ، وماذا يجدينى من وعودهم اللسانية مع انطوائهم على حرمانى
 وما حالهم معى إلا كهذه الناقة التى تعطف على البو بأنفها على حين ينكره قلبها
 فلا ترسل درها ، والبيتان من قصيدة لافنون التغابى شاعر جاهلى وهى من قصائد
 المفصليات ، وبيت المناظرة من شواهد النحاة على أم راجع شرح المفصل وشرح
 الرضى على الكافية والمغنى

والمرء قد يرجو الرجا ١ مؤملا والموت دونه

ونزل ضيفاً عند يحيى بن خالد البرمكي وزير هرون الرشيد ، فاعتزم
يحيى الجمع بينه وبين الكسائي بعد أن عرّف الرشيد جليلة الأمر وعين
لذلك يوماً في دار الرشيد ، فحضر سيديويه أولاً وتلاقى مع الفراء وخلف
الأحرار تلميذ الكسائي فسألاه وخطأه في الإجابة وأغلظاله في القول ،
ويطول بنا الكلام ونخرج عن المقصود لو عرضنا لهذه الأسئلة وما أجيب به
عنها وكل ذلك معروف في كتب النحو المبسوطة ، فقال لها لست أكلما
حتى يحضر صاحبكما يعني شيخكما الكسائي ، جاء الكسائي وغصت الدار
بالحضور على مشهد من يحيى وابنه جعفر ثم بدأ الكسائي الحديث وقال
لسيديويه تسألني أو أسألك ، فقال سيديويه سل أنت فقال له هل يقال كنت
أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي أو يقال مع ذلك
فإذا هو إياها فقال سيديويه فإذا هو هي ولا يجوز النصب ، فسأله عن أمثال
ذلك فقال كله بالرفع ، فقال الكسائي العرب ترفع ذلك وتنصبه واحتدم
الخلافا بينهما طويلاً ، فقال يحيى قد اختلفتما وأتما رئيسا بلديكما فن يحكم
بينكما ، فقال الكسائي هؤلاء العرب بيابك وفدت عايك من كل صقع
وقد قنع بهم أهل المصرين يحضرون ويسألون ، فقال يحيى قد أنصفت
واستدعاهم فتابعوا الكسائي فأقبل الكسائي على سيديويه وقال له
قد تسمع أيها الرجل فاستمكنا سيديويه عند ذلك وانقبض خاطره ، فقال
الكسائي ليحيى أصلح الله الوزير إنه قدم اليك راغباً فإن أردت ألا ترده
خائباً فرق له يحيى وجبر كسره ، فخرج من بغداد وتوجه لتلقاء فارس يتوارى

١ ثنائي بيتين نسبهما القاسم بن سلام له في كتاب الأمثال راجع خزانة الأدب ٧٣٤

من الناس من سوء مآل حقه ، ولم يقدر أن يعود إلى البصرة وقد كان إمامها
غير منازع فمات غماً بفارس في ريعان شبابه وقال قرب احتضاره
يؤمل دنياهما لتبقى له فمات المؤمن قبل الأمل
حينئذ يروى أصول النخبة لفعاش الفسيل ومات الرجل^١

وقد رويت هذه المناظرة على صور مختلفة ، ويرى جمهور العلماء
أن أصعب السياسة لعبت دوراً كبيراً في هذه الحادثة الخطيرة ، لأنها حكم
بين البلدين لا بين الرجلين ، وما وافقت العرب الكسائي إلا لعلمهم أنه
ذو حظوة عند الرشيد وحاشيته وهم على يقين أن الحق مع سيديويه ، على
أنه روى أنهم قالوا القول قول الكسائي بإيعاز رجال الدولة ولم ينطقوا
بالنصب إذ لا تطاوعهم ألسنتهم ، ولذا طلب سيديويه أمرهم بالنطق بها
لكنه لم يستمع له ، قال الورداني (والذي لا ينبغي أن يشك فيه أن ذلك إذا
ترك العربي وسليقته أما لو أراد النطق بالخطأ أو بلفظ غيره فلا يشك
في أنه لا يعجز عن ذلك وقد تكلمت العرب بلفظ الحبش والفرس واللغة
العبرائية وغيرها ، وأبو الأسود عربي وقد حكى قول ابنته لأمير المؤمنين
علي : ما أشد الحر بالرفع ، فقول سيديويه في قصته مع الكسائي في مسألة
كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي مرهم أن ينطقوا
بذلك لا بد من تأويله ، كأن يقال المراد من لم يسمع مقالة الكسائي ولم يدر
القصة أو نحو ذلك مما يقتضي نطقهم على ما يسمونه الذي هو المعيار^٢)
وبعد فإن الحق مع سيديويه والقرآن الكريم أصدق شاهد له يقول

١ حينئذ مسرعاً ، والفسيل النخل الصغير يقطع من أمه فيفرس ، واحدته فسييلة

٢ الصبان على الأثمنوني في الكلام على ما العاملة عمل ليس

الله تعالى (فاذا هي بيضاء للنظرين) وعلى نمط هذه الآية آي كثير، ولو ثبت
النصب لكان خارجا عن القياس واستعمال الفصحاء، ولذا تحمل النحويون
في تخريج هذا النص على أوجه ثم تعقبوها، ذكر بعضها الرضى
في شرح الكافية باب الظروف، وأفاض القول فيها الأعلام الشنتمرى
ونقل كلامه المقرئ في نفح الطيب في فصل برأسه في الجزء الثانى عنوانه
(المسألة الزبورية)، وأجاد التفصيل لها ابن هشام في المغنى الباب الأول
مبحث (إذا) فذكر أوجه خمسة مع التعقيب على كل وجه بما يفنده،
وخلاصة هذه الأوجه: الأول أن الظرف وهو إذا نصب الضمير لأن فيه
معنى وجدت، والثانى أن الضمير استعير من مكان ضمير الرفع، والثالث
أن الضمير مفعول به والأصل فاذا هو يساويها، والرابع أن الضمير مفعول
مطلق والأصل فاذا هو يوسع لسعتها، والخامس أن الضمير منصوب
على الحال من الضمير في الخبر المحذوف والأصل فاذا هو ثابت مثابا،
وقد جمع هذه الأوجه الخمسة مع الاختصار الجوهري في هذا النظم
وفي ضمير النصب تاليا إذا تعدد التوجيه فادر المأخذا
مفعولها أو نائب المرفوع أو نصبه بفعله المقطوع
أو أنه مفعول فعل مطلقا أو معرب حالا أي بـ فارتنى
وخطورة هذه المناظرة نوهت عنها أغاب كتب الأدب والتراجم
والتاريخ فقد ذكرت في أمالى الزجاجي، كما ذكرت في ترجمة سيديويه في
طبقات الزيدى والفهرست ونزهة الألبا ووفيات الأعيان ومعجم الأدباء
غير أنها ذكرت مرة أخرى في معجم الأدباء ترجمة الكسائى، وقد نوه عنها

حازم الأنصاري في منظومته النحوية المشهورة معترفاً لسيبويه بالحق
ومندداً بغلبة الكسائي دون نصفه وعدالة، وعرض لها السيوطي في الأشباه
والنظائر أول الفن السابع (فن المناظرات والمجالات الخ) في الجزء الثالث
ولئن ظفر الكسائي بسيبويه في هذه المناظرة ظلماً لقد ثر له منه
على يد اليزيدي في المناظرة الآتية التي اندحر فيها الكسائي

بين الكسائي واليزيدي

قال العسكري (اجتمع الكسائي واليزيدي عند الرشيد، فحرت
بينهما مسائل كثيرة، فقال له اليزيدي: أتجزئ هذين البيتين؟

ما رأينا خرباً نقـ نقر عنه البيض صقر

لا يكون العير مهراً لا يكون المهر مهر

فقال الكسائي يجوز على الأقواء وحقه لا يكون المهر مهراً، فقال له
اليزيدي فانظر جيداً، فنظر ثم أعاد القول، فقال اليزيدي لا يكون المهر مهراً
محال في الأعراب، والبيتان جيدان، وإنما ابتداءً فقال المهر مهر، وضرب
بقلم نسوته الأرض وقال أنا أبو محمد، فقال له يحيى بن خالد خطأ الكسائي مع
حسن أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء أدبك، أتكتني قدام أمير المؤمنين
وتكشف رأسك؟ فقال إن حلاوة الظفر وعز الغلبة أذهبا عني التحفظ^١

١ راجع كتاب التصحيف والتحريف ما وهم فيه الكسائي، وذكرت هذه
المناظرة أيضاً في معجم الأدباء ترجمة الكسائي وفي وفيات الأعيان ترجمة اليزيدي
وفي شرح درة الغواص الوهم دس، والطرب ذكر الحباري، ونقر نقب البيض
لمروج الفرخ، والشطر الأول من البيت الثاني تمثيل للايضاح و (لا يكون)
في أول الشطر الثاني تأكيد لفظي وما بعده تأكيد معنوي، وفي أمالي الزجاجة
مناظرات أخرى جرت بينهما، وكذا في الأغاني أخبار اليزيدي ج ١٨ طبع
الأساسي، والأشباه والنظائر الفن السابع فن المناظرات والمجالات الخ ج ٣

من مناظرات الطور الثالث

ومن أشهر المناظرات فيه مناظرات المبرد و ثعلب و لنكتف بواحدة منها

بين المبرد و ثعلب

اختلف المبرد و ثعلب بحضرة الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين
الذي كان ينفق معظم وقته في البحوث العلمية وكان يهوى المناظرات ،
فكثر ما جمع لها بين علماء الفريقين البصري والكوفي ، في قول امرئ القيس
لها متنتان خطاتا كما أكتب على ساعديه النمر^١

فقال ثعلب إنه خطتا كما يقال غزتا إلا أنه رد الآلف التي كانت
ساقطة في الواحد لتاء التانيث الساكنة لما تحركت التاء لأجل ألف التثنية ،
ومسوخ ذلك ضرورة النظم ، وقال المبرد إنه خطاتا فحذف نون المثني
للاضافة إلى ما بعده ، فتعلب يرى أن الكلمة فعل وأن الآلف الثانية فيها
اسم ، والمبرد يخالفه في الأمرين فالكلمة اسم والآلف الثانية حرف علامة
المثني ، أما الآلف الأولى عندها فهي لام الكلمة سواء أ كانت فعلا
كما يرى ثعلب أم اسما كما يرى المبرد ، ولما طال تلاحيهما بحضرة الأمير قال
ثعلب الأمير أيصح أن يقال مررت بالزيد بن ظريف عمر و ؟ فقال لا والله
ما يقال هذا ، ثم التففت إلى المبرد فأمسك ولم يقل شيئا ثم قام من المجلس

١ المتنتان في القاموس متنا الظهر مكتنفا العصب ، وخطاتا ان كانت فعلا قال فعل
من باب سما وفي القاموس خطا لحمه اكتنز ، وإن كانت اسما مثني قال فرد خطاة وفي
الصحيح لحم خطاة بظاة مكتنز ، وقوله كما أكتب على ساعديه النمر يريد لها متنتان
كساعدي النمر المبارك في صلاتهما ، والبيت في وصف فرسه وهو من قصيدة
طويلة ذكرت أول الديوان المطبوع شرح أبي بكر عاصم ، وشرح مقدار منها
في شرح شواهد المغني للسيوطي الباب الأول حرف لا وفي خزانة الأدب شاهد ٧٢

مقهورا ، قال الزبيدي (القول ما قال المبرد وإنما سكنت لما رأى من بله القوم
وقلة معرفتهم وقوله مررت بالزيدين ظريفي عمرو جائز جداً)^١
وقال ياقوت (لا أدري لم لا يجوز هذا ؟ وما أظن أحدا ينكر قول
القائل رأيت الفرسين مراكوبي زيد ، ولا الغلامين عبدي عمرو ، ولا النوبين
دراعتي عمرو ، ومثله مررت بالزيدين ظريفي عمرو ، فيكون مضافا إلى
عمرو وهو صفة لزيد وهذا ظاهر لكل متأمل)^٢

ومع استصواب الزبيدي لرأى المبرد واستظهار ياقوت له فالنفس
لا تستريح إليه كما يظهر ذلك بأدنى تأمل

ومن العجب الذي يسترعى النظر أن هذا البيت نفسه قد وقع فيه
الخلافا سابقا قبل المبرد وتعلب على هذا النحو بين الكسائي والفراء ،
وكان رأى الكسائي فيه ما قال تعلب في المناظرة ، ورأى الفراء فيه
ما قال المبرد فيها غير أن الفراء اعتبر حذف النون في المثني لضرورة النظم
لا للأضافة كما قال المبرد ، وعلى هذا فتى توجيه البيت أقوال ثلاثة ، وتخرج
الفراء مقبول وإن لزمته ضرورة حذف النون فإن مقابله وهو تخرج الكسائي
قد لزمه ضرورة عود لام الفعل فقد تساوى الرأيان والتساوي بينهما قائم ،
وقد عرض لهما في البيت ابن يعيدش في شرح المفصل قسم الحروف مبحث

١ راجع طبقات الزبيدي ترجمة تعلب وقد ذكرت فيها المناظرة بالتفصيل وفي نهايتها
تلك العبارة التي بين رأيه الخاص فيها ، وقد نقل ذلك بحروفه السيوطي في الأشباه
والنظائر الفن السابع فن المناظرات والمجاسات الخ

٢ راجع معجم الأدباء ترجمة تعلب ج ٥ وقد ذكرت فيه المناظرة أيضا بالتفصيل
وفي نهايتها رأيه الخاص المذكور ، وقد ذكر السخاوي في سفر السعادة عبارة ياقوت
بنصها وفصحا

تاء الثمانين الساكنة وابن هشام في المغنى الباب الأول مبحث (كل) وقد استشهد
 بالبيت الرضى في شرح الشافية مبحث التقاء الساكنين على نمط رأى
 الكسائى ، وكتب على البيت شارح شواهد البغدانى فأوفاه حقه ونقل
 كل ما قيل فيه من خلاف بين الكسائى والفراء ومن مناظرة بين المبرد
 وتعلب مع الاسهاب المفيد في الشاهد الثالث والثمانين ، وموطن العبرة
 في هذا للمقام أن بيتا يحدث فيه خلاف بين السابقين مشهور متعالم تتناقله
 الكتب أخيراً ثم تجد في البيت نفسه مناظرة يخفق فيها أحد المتناظرين
 وتتناقلها كتب أخرى ، وبعدئذ يدع العلماء المسألة على أذلالها دون
 تمحيص فيها يتبين منه جلية الأمر ، ومن ثم ترى انفساح الميدان
 للأقويل والخلافات ، وربما لو تكشف الحقائق الأولى بصورة واحدة
 وتناولها كل من تناولها وهى هى دون نقص أو زيادة أو تحريف ،
 وتكشفت مع هذا أيضاً آراء العلماء بعضهم لبعض لتغير مجرى
 العلم في كثير من المسائل ، وإنك لتأخذ من ذلك مثلاً من الأمثال
 في عدم الوقوف على حقائق المسائل ، إذ ليس في وسع كل كاتب ومؤلف
 أن تكون كل الرغائب في مكنة يده وتحت بصره فلكاتب بعدئذ العذر
 فيما يكتب أو يملئ إذ يعتمد على معيار تفكيره ومنطقه ، وعلى كل حال
 فجزى الله السابقين عن أهل العلم خير الجزاء

هذا ، ويقرب من المناظرات شأننا وإن غيرها اتجاها ما يعرف عند
 المؤرخين بالمجاسات ولقد كان يجري فيها التساؤل فيما دق من المسائل عرضاً ،
 لذا حرص على تدوينها المتأدون بل كتبت فيها أسفار خاصة كمجالس
 أبى مسلم ولندكر واحداً منها مما جرى في هذا الطور كضرب مثل

مجالسة الرياشي و ثعلب

قال ياقوت (قال أبو العباس ثعلب كنت أسير إلى الرياشي لأسمع منه
وكان نقي العلم فقال لي يوما وقد قرئ عليه
ما تنقم الحرب العوان مني بازل عامين حديث سني

لمثل هذا ولدني أمي

كيف تقول بارل أو بازل فقلت أقول هذا في العربية إنما أقصدك
غير هذا يروى بازل أو بازل أو بازل الرفع على الاستثناف والخفض على
الاتباع والنصب على الحال فاستحيا وأمسك ^١ - وقد نقل هذه المجالسة
ابن هشام في المغني في الباب الأول مبحث أم . نعم استشهد ثانيا بهذه
الآيات في الباب الثامن القاعدة الأولى (إعطاء الشيء حكما أشبهه في اللفظ)
على إعطاء الحرف حكم مقاربه في المخرج حتى يقعا رويين كما في الآيات ،
كما نقل هذه المجالسة السيوطي في الأشباه والنظائر الفن السابع فن المناظرات
والمجالسات الخ ، وإيضاح هذا الأعراب أن الرفع على أنه خبر أنا محذوفة
والجملة مستأنفة والخفض على البدلية من ياء المتكلم بدل كل من كل إلا أنه

١ معجم الأدباء ترجمة ثعلب ، العوان . في القاموس العوان كسحاب من
الحروب التي قوتل فيها مرة والبازل اسم فاعل من بزل البعير إذا طلع نابه وذلك
في تاسع سنه ويطلق أيضا على الرجل الكامل في تجربته وعليه فلا تشبيه في البيت
والشعر لأبي جهل قاله يوم بدر أو تمثل به وكان مغرورا مأفونا اكذبه الله اذ كان
في هذه الموقعة هلاكه والآيات مذكورة في الكامل مع الرغبة ج ٦ ص ٢٢٧
وفي سيرة ابن هشام غزوة بدر

يُرد على هذا أن بدل الظاهر من ضمير المتكلم لا يكون إلا حيث تكون
الاحاطة والشمول نعم إذا جرينا على مذهب الاخفش المبيح للبديلية بدون
شرط فلا بأس والنصب على أنه حال من ياء المتكلم

وبحسبنا هذا المقدار من المناظرات والمجالس ومن أراد أن يتزيد
فعلية الرجوع الى الأشباه والنظائر للسيوطي ففي (الفن السابع فن
المناظرات والمجالسات والمذاكرات والمراجعات والمحاورات والفتاوى
والواقعات والمكاتبات والمراسلات) في الجزء الثالث منها ما يشبع النهم
بقي علينا أن نعود إلى المقصود بالذات فنتكلم على ما يتعلق بمشاهير
البصريين والكوفيين في طبقاتهما وأسباب الخلاف بين الفريقين ،
وتغاير اتجاهيهما ، وحكمة تخصص كل منهما باتجاهه ، ونتائج هذه الفروق ،
والموازنة بين المذهبين ، فأن ذلك متصل بالأطوار الماضية

مشاهير البصريين والكوفيين

جدير بمن يريد أن يفقه النحو على الوجه المرضي أن يتعرف تاريخ
النحاة القدامى ويقف على طبقاتهم التي انضوا إليها وترتيب هذه الطبقات
بحسب الزمن منذ تدوينه إلى منتهى الاجتهاد فيه ، وحبذا لو استكمل
نفسه بمعرفة طبقات المتأخرين إذ بذلك كله تنكشف له تطورات
هذا الفن ويقر في نفسه صحة انتساب القول لفائله ويدرك وجه الرد
عليه ويتفهم حكمة الموافقة له وعلة مخالفته حتى لا يكتفه معهم يستمع
بنفسه ويرحل من بلد إلى آخر معهم

ولا جرم أن المعلومات إذا ارتبطت بمعرفة مصادرهارجالا وزمانا

ومكانا تلقفتها العقول بالقبول ورسخت في الحواظ إذ تفذت إليها من
سبيلها المنير ، فلا تختلط مسائله ولا تضطرب الآراء فيه على الطالب حتى
يكون كضال في مهمه مشتبه الأعلام مغبر الأرجاء ، قال أبو الطيب بعد
كلام طويل أنحى فيه باللائمة على من يجهل الرجال وترتيبهم وسرد كثيراً
من الأمثلة في ذلك مانصه (ولقد بلغني عن بعض من يختص بهذا العلم
ويرويه ، ويؤمن أنه يتقنه ويدريه ، أنه أسند شيئاً فقال عن الفراء عن
المازني ، فظن أن الفراء الذي هو بأزاء الأخفش كان يروي عن المازني ،
وحدثت عن آخر أنه روى مناظرة جرت بين ابن الاعرابي والأصمعي ،
وهما ما اجتمعاً قط ، وابن الاعرابي بأزاء غلمان الأصمعي وإنما كان
يرد عليه بعد ، وحرى بمن عمى عن معرفة قوم أن يكون عن علومهم
أعمى وأضل سبيلاً)

لهذا سنذكر علماء البصرة والكوفة فإن هذا العلم إنما نشأ ونما
وازدهر فيهما دون غيرها من سائر الأمصار الإسلامية فلم يكن بالحجاز
ولا الشام شيء يذكر من النحو واللغة بجانب ما في العراق ، أما الحجاز
فإن بني أمية قد أغدقوا على أهل المدينة ومكة العطايا المتدفقة من خزائن
الشام خشية قيام من بهما من الهاشمين وأبناء الصحابة بالمطالبة بالخلافة
ووسعهم بالحلم حتى أخلدوا إلى التمتع بلذائذ الدنيا ونبغ فيهم المغنون
وأهل القصيف وصدفوا عن النظر إلى هذا العلم ، واستمر ذلك دأبهم
في خلافة العباسيين ، وأما الشام فإن دمشق صارت دار الخلافة والملك ،
وقد عرفت آنفاً أن وضع هذا العلم في البصرة ونشوءه في البصرة والكوفة ،

(١) مراتب النحويين ونقل في الزهر أول النوع الرابع والاربعين

قال أبو الطيب (ولا علم للعرب إلا في هاتين المدينتين ، فأما مدينة الرسول فلا نعلم بها إماماً في العربية ، قال الأصمعي أقمت بالمدينة زماناً مارأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة ، وكان بها ابن دأب يضع الشعر وأحاديث السمر وكلاماً ينسبها إلى العرب فسقط وذهب علمه وخفيت روايته » وهو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب يكنى أبا الوليد وكان شاعراً وعلمه بالأخبار أكثر ... ومن كان بالمدينة أيضاً عليّ الملقب بالجلل وضع كتاباً في النحو لم يكن شيئاً .. وأما مكة فكان بها رجل من الموالي يقال له ابن قسطنطين شدا شيئاً من النحو ووضع كتاباً لا يساوي شيئاً)^١ وفي الحق أن العراق (وبه البصرة والكوفة) يجب أن يتقدم البلاد الإسلامية في هذا العلم إذ كان قبل الفتح الإسلامي موطن العجم ، وبعده قد انتال عليه المسلمون من كل صوب لأنه أخصب البلاد الإسلامية وأنضرها في الصدر الأول تضامّت فيه أسباب رفاهية الحياة ورغد العيش ، فاستوطنه العرب والعجم ونعموا جميعاً بخيراته الوفيرة فظهرت أرزاء اللحن فاشية فيه ظهوراً لا مثيل له في سائر البلاد مما تقاضى أهل العلم والمعرفة أن يتلافوا الأمر قبل تفاقه

يضم إلى هذا أن العراقيين ذوو عهد قديم بالعلوم والتأليف ولهم خبرة فيهما متوارثة تليدة وفيهم شغف وميل إلى تعرف الوسائل التي تقوم أود لسانهم وتنقلهم إلى مصاف إخوانهم العرب ، فمن هذا وذاك نبهت نابتة هذا الفن في العراق وترعرعت فيه إذ ما كان على أهله بعد هذا الاقتضاء إلا أن يطبقوا قواعد هذا الفن الحديثة على منوال مانسجوا عليه

(١) مراتب النحويين ونقل في المزهرة المبحث السابق

قديمًا في تعاليمهم وينهجوا فيها على غرار ما ألفوه في نظمهم وتلك
خطة مستطاعة

وإننا حين نريد الحديث عن رجال هذا العلم في العراق فأنما نريد
بالعراق البصرة والكوفة لا بغداد ، لأنهما قد تأسستا في فجر الاسلام
فكان بهما مولد النحر ومهدده ومدرجه ، أما بغداد فان تخطيطها في صدر
الدولة العباسية التي اتخذتها مقر خلافتها كما اتخذت الدولة الأموية دمشق
مقر خلافتها ، فتمبوات بغداد مكانة دمشق وصارت مدينة الخلافة والملك
كما كانت سالفتهما دمشق فلم يتقدم ببغداد الزمن حتى تشاطر أختيها البصرة
والكوفة مزاوله هذا العلم ، قال أبو الطيب) وأما بغداد فمدينة ملك وليست
بمدينة علم وما فيها من العلم فمنقول إليها ومجلوب للخلفاء وأتباعهم)¹

وسنبدأ بذكر طبقات البصرة قبل الكوفة إذ أن البصرة كما عرفت
استأثرت بهذا العلم زهاء مائة عام ثم تعاصرتا فكانت الأولى الكوفية
والثالثة البصرية ، حتى الخامسة الكوفية ، والسابعة البصرية اللتان
توطنتا بغداد ، ثم كان البغداديون والأندلسيون والمصريون والشاميون
والنظر في تعاقب طبقة لأخرى يرجع إلى الهيئة العامة فيهما
فربما أخذ واحد أو أكثر من طبقة عن واحد أو أكثر من طبقة سابقة ،
لا أن يأخذ كل عن كل فالمنظور إليه المجموع لا الجميع ، ولكتاب التراجم
في فريقى البصريين والكوفيين مخالفات في عد الطبقات نشأ عنها اختلاف
في وضع بعض الرجال ببعضها ، ولعل مبعث هذا التلاحق الزمنى وتقارب
المعاصرة دون حد ظاهر فاصل بين كل طبقة وأخرى ، على أنه ليس لهذا

(١) مراتب النحويين ومنقولة في المزهرة المبحث الماضي

الاختلاف من أثر ، وأول من صنّف في الطبقات أبو العباس المبرد
وضمّ كتابا في علماء البصريين ، ثم ألف بعده ابن دريد كتابه أخبار
النحويين ، ثم صنّف بعده أبو الطيب اللغوي كتابه مراتب النحويين ،
ثم ألف بعده السيرافي كتابه أخبار النحويين البصريين ، ثم دون بعده
الزبيدي كتابه طبقات النحويين واللغويين من البصريين والكوفيين ،
ثم صنّف بعده الأنباري كتابه نزّهة الألباء في طبقات الأدباء ، ثم ألف
القفطي بعده كتابه أنباء الرواة في أخبار النحاة ، ثم أطرّد التأليف بعدئذ
وظهرت كتب لا حاجة لذكرها ، وقد عولنا على ما اشتهر بينهم في الطبقات
كما اقتصرنا على مشاهير الرجال في كل طبقة

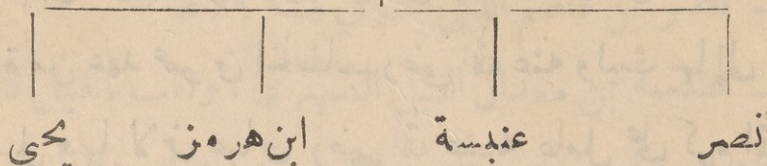
ولقد التزمنا مع العلماء الذين جرى التعريف عنهم في الكتب النحوية
بلقب أو كنية مع التغافل عن الاسم الأصلي أن أذكر اسمهم الحقيقي مع
ما اشتهروا به من كنية أو لقب حتى يسهل على الراغب الكشف على
ما يحب الاطلاع عليه منها في كتب التراجم والمعاجم ، فإن أغلبها مرتب
على حسب الحروف الأبجدية باعتبار الأسماء أنفسها بينما المعروف الشائع
على الألسنة إنما هو هذه الألقاب وتلك الكنى ، وهكذا سأصنع مع جميع
العلماء الذين سأعرض لهم في الطور الرابع إن شاء الله

فكم يلاقى الطالب من النصب واللغوب إذا هو حاول تعرف تاريخ واحد
من هؤلاء وهو لم يقف على اسمه الحقيقي فر بما ضاع عليه من الوقت الذهبي
آناء كان في فسحة عن إضاعتها ، وكل طرفه وتصدع رأسه وهو ما يزال ينشد
ضالته — وهاك جدولاً فيه طبقات الفريقين ، تبين منه إجمالاً أسبقية
البصريين ، وانفراد الفريقين بعد الاشتراك ، وأشهر العلماء منهما

أبو الأسود الدؤلي

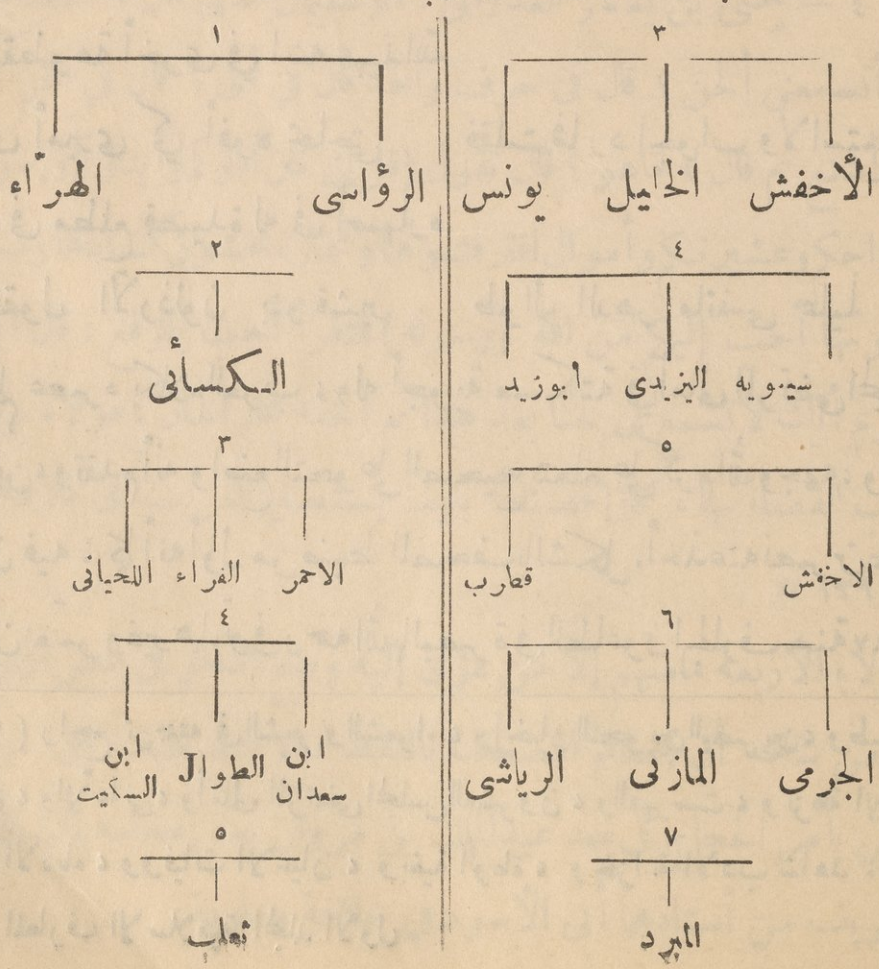
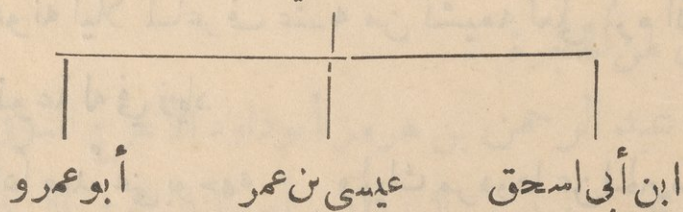
(١)

بصرية



(٢)

بصرية



يحيى

نصر

بصرية

هذا وإذا كان الفضل لأبي الأسود وهو جذع هذه الدوحة الفرعاء فأننا نبداً به

أبو الأسود الدؤلي

هو ظالم بن عمرو ، من الدؤل بطن من كنانة ، كان من سادات التابعين ، ورد البصرة من عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولبث بها إلى أن تولى بعض العمـل فيها لابن عباس رضى الله عنه عامل على كرم الله وجهه أيام خلافته ، ولم يبرحها مع الأيذاء الذى كان يلقاه من عمال بنى أمية وأصهاره الذين كانوا يرجونه ليلاً لماعرف عنه من تشييعه لعلى كرم الله وجهه ، يقول من مقطوعة له في زياد

رأيت زياداً صمداً غنى بوجهه ولم يك مردوداً عن خير سائله

ومن مقطوعة أخرى في ابنه عبيد الله

دعاني أميرى كي أفوه بحاجتى فقلت فمأرد الجواب ولا استمع
ويقول في مطلع قصيدة له في أصهاره

يقول الأردلون بنوقشير طوال الدهر ماتنسى عليا

كان أعلم عصره بكلام العرب ، وله أجوبة مسكتة في أمالى المرتضى المجلس العشرين ، وتقدم أنه واضع النحو على الصحيح بتعليم على كرم الله وجهه ، وأول من دون فيه ، كما أنه أول من ضبط المصحف بالشكل ، أخذ عنه نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وغيرهما ، توفي رحمه الله بالبصرة في الطاعون الجارف سنة ٦٧ هـ

(١) راجع ترجمته في الشعر والشعراء ، وأخبار النحويين البصريين ، وطبقات

الزبيدي ، والأغانى ، وأملى المرتضى المجلس العشرون ، والفهرست ، ونزهة الألباء ،

ومعجم الأدباء ، ووفيات الأعيان ، وبقية الوعاة ، وخزانة الأدب شاهد ٤٠ ،

ودائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول

طبقات البصريين

الأولى

- ١ - نصر بن عاصم الليثي المتوفى سنة ٨٩ هـ
٢ - عنبسة بن معدان الفيل المسمري ، ولقب بالفيل لأن أباه كان يروض فيلا للحجاج فغلب عليه اللقب ثم انتقل منه إليه ، ولم تقف على تاريخ وفاته إلا أننا نعرف أنه عاصر الفرزدق فلعل وفاته كانت حول المائة الأولى من الهجرة

- ٣ - عبد الرحمن بن هرمز أبو داود الأعرج المتوفى سنة ١١٢ هـ
٤ - يحيى بن يعمر العدواني : أبو سليمان الذي قال له الحجاج الثقفي يوما أسمعني ألحن ؟ قال في حرف واحد قال في أي ؟ قال في القرآن قال ذلك أشنع ثم قال له ماهو ؟ قال تقول (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله) فتقرأ أحب بالرفع ، قال الحجاج لا جرم أنك لا تسمع لي لحنا بعد هذا ثم ألحقه بخراسان ، فولاه يزيد ابن المهلب القضاء بها ، كان فصيحاً بليغاً يستعمل الغريب في كلامه توفي سنة ١٢٩ هـ

وهؤلاء الأربعة ما منهم إلا من عزى إليه وضع النحو في بعض الروايات ، وما من شك أن إعجام المصحف بالنقط لدفع التصحيف كان من نصر ويحيى بأمر الحجاج في عهد عبد الملك بن مروان بعد إعجامة بالشكل لدفع التحريف من أستاذهما أبي الأسود في خلافة معاوية

— ٥٦ —
الثانية

١ ابن أبي إسحاق : هو أبو بحر عبد الله بن أبي إسحاق زيد الحضرمي البصري اشتهر بكنية والده وكان مولى آل الحضرمي ، أخذ عن نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر ، وجد في هذا العلم حتى بلغ الغاية فيه ، سئل عنه يونس فقال : هو والنحو سواء ، كان أول من عالم النحو كما كان شديد التجريد للقياس والعمل به كما سلف ، وعاصره عيسى بن عمر المثقفي ، وأبو عمرو ابن العلاء ، وجمع بينهما وبين أبي عمرو بلال بن أبي بردة عامل البصرة من قبل خالد القسري والى العراق لهشام بن عبد الملك ، كان كثير السؤال للفرزدق (قال ابن هشام قد حضر يوما مجلس عبد الله فقال له كيف تنشد هذا البيت وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالأللاب ما تفعل الحمر فأنشده فعولان فقال له عبد الله ما كان عليك لو قلت فعولين ، فقال الفرزدق لو شئت أن أسبح لسبحت ونهض فلم يعرفوا مراده فقال عبد الله لو قال فعولين لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما ولكنه أراد أنهما تفعلان ما تفعل الحمر)^١ ثم تدرج الأمر بعبد الله إلى إعنات الفرزدق في شعره نفسه إذ عابه في قوله وعض زمان يا بن مروان لم يدع من المال الا مسحتا أو مجلف^٢

(١) راجع الاشباه والنظائر الفن السابع فن المناظرت والمجالات الخ ، والبيت من قصيدة طويلة لدى الرمة

(٢) راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة المقدمة نقد الشعر ، عض الزمان شدته ، والمسحت المستأصل ، والمجلف الباقي منه بقية ، والاشكال في البيت مبني على فتح الدال في يدع ونصب مسحت ، وقد خرج العلماء رفع مجلف حينئذ على أوجه منها ما قال ابن بعيش في شرح المفصل باب العلم المنقول ج ١ وباب الاعلال في الواو

فقال له بم رفعت أو مجلف ؟ فقال له بما يسوءك وينوءك ، علمنا أن نقول
وعليكم أن تتأولوا ، كما عابه في قوله
مستقبلين شمال الشام تضر بنا بحاصب كنديف القطن منتور
على عمائمنا يلدقنى وأرحلنا على زواحف نزعجى مخم رير
فقال إنما هو رير بالرفع وإن رفع أقوى . فوجد عليه الفرزدق
وقال أما وجد هذا المنتفخ الخصبين لبيتى مخرجا في العربية ؟ أما إنى لو أشاء لثامت
على عمائمنا يلقى وأرحلنا على زواحف نزعجها محاسير
ولكنى والله لا أقوله ، ثم هجاه بقوله

والياء لامين ج ١٠ : إنه معطوف على المنصوب بملاحظة المعنى ، اذ كأنه قال بقى
مسحت ، ومنها وجهان أحران ذكرهما الرضي في شرح الكافية آخر عطف النسق ،
أما على رواية كسر الدال فى يدع ورفع مسحت كما قال ابن جنى فى الخصائص
باب القول على الاطراد والشذوذ فلا إشكال ومعنى يدع حينئذ يسكن ، وقد أحاط
بنقل ما تقدم مع التفصيل والزيادة عدا نسبة القول لابن يعش البغدادي فى الخزائنة
شاهد ٣٥٧ ، والبيت من قيدة طويلة من النقائص فى مدح عبد الملك مع أنه
ليس فيها ما يتصل بالمدح إلا هذا البيت مع آخر قبله ، فان ما قبلهما نسيب وما بعدهما
فى كلال الابل والفخر بأبائه على جرير ، والقصيدة مذكورة فى جمهرة أشعار
العرب باب الملحمة

(١) راجع الشعر والشعراء المبحث السابق ، وأخبار النحويين البصريين ترجمة
عيسى ، الشمال الريح المعلومة ، والحاصب الريح التى تثير الحصباء ، والزواحف جمع زاحفة
الابل التى أعيت فجرت فراسنها ، ونزعجى نسوق ، ورير فاسد ذائب من الهزال .
وقد تكلف بعض العلماء تصحيح الجر لرير بأن الاصل على زواحف رير مخمها
وهو كما ترى . ولذا اعترف الفرزدق مع المسكابة فقال نزعجها محاسير ، والمحاسير جمع محسور
أى متعب . والبيتان من قصيدة فى مدح يزيد بن عبد الملك وهجاء يزيد بن المهلب

ولو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا
فقال عبد الله عذره شر من ذنبه فقد أخطأ أيضاً والصواب مولى
موال ، توفي سنة ١١٢ هـ

٢ - عيسى بن عمر الثقفي البصري هو أبو سليمان مولى خالد بن الوليد
أخذ عن ابن أبي اسحق وغيره وكان مولعاً بالغريب والتشادق ، استودعه
بعض أصحاب خالد القسري وإلى العراق لهشام وديعة فلما نزع خالد عن
ولاية العراق وتقلدها يوسف بن عمر الثقفي استدعاه من البصرة لأخذ
الوديعة فأنكرها ، ولما اشتد عليه ضرب السياط جعل يقول (والله إن كانت
إلا أئمة بابا في أسيفاط قبضها عشاروك) وروى أن الضارب له عمر بن هبيرة
الفزاري أمير العراق قبل خالد بن عبد الله ، وقد لزمته علة من ذلك الضرب
بقية حياته ، وهو صاحب الكتابين المشار إليهما سابقاً ، توفي سنة ١٤٩ هـ^٢
٣ - أبو عمرو بن العلاء : هو زبان بن العلاء بن عمار التميمي المازني
قال ياقوت (واختلف في اسمه على أحد وعشرين قولاً والصحيح أنه زبان

(١) راجع الشعر والشعراء ، وأخبار النحويين البصريين ، ونزهة الألباء ، والمولي
الحليف ولا يحالف إلا الذليل فالمعنى لو كان ذليلاً لهجوته وليكنه أذل من الذليل
لأنه حليف الحضرميين وهم حلفاء بني عبد شمس ، والتخطئة في البيت معروفة في النحو
باب ما لا ينصرف راجع سيبويه ج ٢ ص ٥٨ وشرح المفصل والرضي علي الكافية
راجع الخزانة شاهد ٣٥

(٢) راجع ترجمته في مراتب النحويين ، وأخبار النحويين البصريين ، وطبقات
الزبيدي ، والفهرست ، ونزهة الألباء ، ومعجم الأدباء ، ووفيات الأعيان ، وبقية الوعاة ،
وخزانة الأدب شاهد ٩ وقد ذكرت عبارته الغريبة أيضاً في غير المصادر السابقة راجعها
في مقدمة أدب الكتاب ، وعيون الأخبار كتاب العلم والبيان التشادق والغريب مجلد ٢

لما روى أن الفرزدق جاء معتذراً إليه من هجو بلغه عنه فقال له أبو عمرو
هجوتَ زبانَ ثم جئتَ معتذراً من هجو زبان لم تهجو ولم تدع
فاعتذر إليه الفرزدق ومدحه بمقطوعة منها قوله

مازلتُ أفتحُ أبواباً وأغلقها حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمار^١

أخذ النحو عن نصر بن عاصم وغيره ، واشتهر بالقراءات والعربية
وأبام العرب ولهجات القبائل ، ومن الطريف لهذه المناسبة أن عيسى بن عمر
جاءه متمجبا من تجويزه (ليس الطيب إلا المسك) بالرفع فقال له أبو عمرو
نمت يا أبا عمرو وأدج الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ،
وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع ثم أرسل الزيدى وخافا الأحمر
للتثبت من العرب فكان كما أخبر أبو عمرو فأخرج عيسى خاتمه من يده
وقال : ولك الخاتم ، بهذا والله فتمت الناس^٢

لكنه مع هذا لم يخلف أثراً مكتوباً ذلك أنه لما تنسك أحرقها وتفرد
للعباداة ، توفي رحمه الله سنة ١٥٤ هـ^٣

(١) البيت من شواهد سيبويه في ج ٢ على حذف التنوين من عمرو ص ١٤٨
وعلى دخول أفعات على فعات ص ٢٣٧ وعلى الأول استشهد به ابن يعيش في باب
العلم وعلي الثاني أدب المكاتب كتاب الابنية معاني أنية الأفعال والرضى على
الشافعية راجع الشواهد رقم ١٦ والبيت من ثلاثة أنشأها له لما صعد إلى غرف ووصل إليه

(٢) هذه الحادثة الطريفة مفصلة في ذيل الآمال ص ٢٩ ، وفي المغنى
الباب الأول مبحث ليس ، وفي الاشباه والنظائر الفن السابع

(٣) راجع ترجمته في مراتب النحويين ، وأخبار النحويين البصريين ، وطبقات
الزبيدي ، والفهرست ، ونزهة الألباء ، ومعجم الأدباء ، ووفيات الأعيان (العين)
وفوات الوفيات ، وشرح شواهد شرحى الشافعية للبغدادى رقم ١٦

الثالثة

١ - الأخفش الأكبر : أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد مولى قيس ابن ثعلبة من أهل هجر ، أول الأخافشة الثلاثة المشهورين أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وطبقته ولقى الأعراب فأخذ عنهم قال الرضى فى شرحه على الكافية باب أسماء الأفعال . الظروف (وسمع أبو الخطاب من قيل له إليك فقال إلى) وتوفى سنة ١٧٧ هـ

٢ - الخليل بن أحمد : أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدي ولد بالبصرة وشب على حب العلم ، فتلقى عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفى وغيرهما ، ثم ساه فى بوادى الجزيرة العربية وشافه الأعراب فى الحجاز ونجد وتهامة إلى أن ملأ جعبته ثم أب إلى مسقط رأسه البصرة واعتكف فى داره دائماً على العلم ليلة ونهاره هائماً ببلذته الروحية فنبغ فى العربية نبوغاً لم يسبق إليه وبلغ الغاية فى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو قال الزبيدى (فهو الذى بسط النحو ومد أطنابه وسبب علله وفتق معانيه وأوضح الحجاج فيه حتى بلغ أقصى حدوده وانتهى إلى أبعد غايته ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفاً أو يرسم منه رسماً ترفعاً بنفسه وترفعاً بقدره إذ كان قد تقدم إلى القول عليه والتأليف فيه ، فكره أن يكون لمن تقدمه تالياً ، وعلى نظر من سبقه محتذياً ، واكتفى فى ذلك بما أوحى إلى سيديويه من علمه ولقنه من دقائق نظاره ونتائج فكره ولطائف حكمته فحمل سيديويه ذلك عنه وتقلده وألف فيه الكتاب الذى أعجز من تقدم قبله كما امتنع على من تأخر بعده)^١

١ راجع مختصر كتاب العين ونقل هذا الكلام فى المزهرة النوع الاول المسألة السادسة عشرة

فلا غرو انه لو لاتعهد الخليل النحو في نشأته لبعد عنه طور النضوج
والكمال ، فللخليل فضل النهوض به كما لأبي الاسود فضل تكوينه ،
نعم قد اتفقت كلمة العلماء على أن الخليل واضع فن الموسيقى العربية ،
وواضع علم العروض والقافية ، وأول من دون معجما في اللغة بتأليفه
(كتاب العين) وله بهدئذ مآثرة الشكل العربي المستعمل الآن ،
وله مؤلفات أخرى في غير اللغة أيضاً ، كان رحمه الله في فاقة وزهد
لا يبالي الدنيا ، بينما الناس محظوظون بها من علمه وكتبه ، وجه إليه
سليمان بن علي عم أبي العباس السفاح ووالي فارس والأهواز رسولا لتأديب
ولده فأخرج الخليل إلى الرسول خبزاً يابساً وقال مادمت أجد فلاحاً في
إلى سليمان فقال الرسول فما أبلغه عنك؟ فقال أبياتاً مطلعها

أبلغ سليمان أنني عنه في سعة وفي غنى غير أنني لست ذامال
توفي رحمه الله بالبصرة متأثراً بهدمه في دماغه من سارية
سنة ١٧٥ هـ على الأصح^١

٣ - يونس هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي مولى بني ضبة ،
أخذ عن أبي عمرو وغيره وواجه العرب فسمع منهم حتى غدا مرجع الأدباء
والنحويين في المشكلات ، وكانت له حلقة دراسة في المسجد الجامع بالبصرة
يؤمها العلماء والأدباء وفهحاء الأعراب وله مذاهب خاصة في النحو ،
منتشرة في كتبه ، من ذلك قول الرضي في الكلام على ما الحجازية (ونقل

(١) راجع ترجمته في مراتب النحويين ، وأخبار النحويين البصريين ، وطبقات
الزبيدي ، والفهرست ، ونزهة الألباء ، ومعجم الأدباء ، ووفيات الأعيان ، وبغية
الوعاة ، ودائرة المعارف الإسلامية

عن يونس أنه يجوز إعمالها مع انتقاض نفيها بالألا) وله مصنفات كثيرة
في غير النحو ، قضى حياته ولم يتزوج ولم يتسر ، وأخباره مستفيضة في كتب
التراجم ، توفي بالبصرة سنة ١٨٢ هـ^١

الرابعة —

١ - سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان مولى بني الحارث بن كعب ،
ولقب بسيبويه (رائحة التفاح) لأن أمه كانت ترقصه بذلك في صغره ،
ولد بالبيضاء (بلد بفارس) من سلالة فارسية ، ونشأ بالبصرة ورغب
في تعلم الحديث والفقه ، إلى أن لحقه التأنيب ذات يوم بشأن حديث
شريف من شيخه حماد البصري قال ابن هشام (وذلك أنه جاء إلى حماد
ابن سلمة لكتابة الحديث فاستملى منه قوله صلى الله عليه وسلم لبس من أصحابي أحد
إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء ، فقال سيبويه ليس أبو الدرداء ،
فصاح به حماد لحنت ياسيبويه إنما هذا استثناء ، فقال سيبويه والله لا طمأن
علما لا يلحني معه أحد ، ثم مضى ولزم الخليل وغيره)^٢

فكما أخذ عن الخليل أخذ عن يونس وعيسى بن عمر وغيرهم وبرع
في النحو حتى بزّ أترابه فيه ، فاحتفى به علماء البصرة التي صار إمامها غير
مدافع ، وأخرج للناس كتابه الذي أ كسبه نحر الأبد فانه شاهد صدق
على علو كعبه في هذا الفن

(١) ترجمته في المصادر السابقة

(٢) راجع المعنى الباب الاول مبحث ليس

كتاب سيبويه

جمع سيبويه في كتابه ماتفرق من أقوال من تقدمه من العلماء
 كتابي الخطاب الأخفش والخليل ويونس وأبي زيد وعيسى بن عمر
 وأبي عمرو بن العلاء وغيرهم في علمي النحو والصرف إذ كان النحو
 في ذلك الحين يطلق عليهما واسمه يعمهما ، وأكثرت نقله عنه الخليل
 الذي كان لا يمل لقاءه ، وأنبأه في رواية الفن عنه ، فكان كتاب سيبويه
 سجلاً لآراء الخليل في النحو ، ولذا كثيراً ما يقول فيه سألت الخليل
 وذلك مستفيض في الكتاب ، وسأذكر بعض أمثلة للنقل عن غير الخليل
 روى عن أبي الخطاب فقال (حدثنا به أبو الخطاب عن شاعره)^١
 وعن يونس فقال (وزعم يونس فقال أنه سمع رؤبة يقول ما جاءت
 حاجتك فرفع)^٢ وروى عنهما فقال (وذلك قولك هذا عبد الله منطلق
 حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب)^٣ وكثر نقله عن يونس حتى
 نقل عنه أبواباً برمتها فقد نقل عنه فصلين من التصغير فقال (وجميع
 ما ذكرت لك في هذا الباب وما أذكر لك في الباب الذي يليه قول يونس)^٤
 لأنه كان يطمئن إليه فكثيراً ما كان يسأله للتمنب عما سمعه من غيره
 قال (وزعم عيسى بن عمر أن ناساً من العرب يقولون إذن أفعل ذاك
 في الجواب ، فأخبرت يونس بذلك ، فقال لا تبعن ذاك ، ولم يكن ليروى
 إلا ما سمع)^٥ وروى عن أبي زيد فقال (حدثني من أثق بعربيته)

(٣) راجع ج ١ ص ٢٥٨

(١) راجع ج ١ ص ٤٠

(٤) راجع ج ٢ ص ١٠٩

(٢) راجع ج ١ ص ٢٥

(٥) راجع ج ٢ ص ٤١٢

فإذا اختلفت أقوال العلماء فانه يحكمها ويوازن بينها ثم يحكم بالترجيح
ففى باب تحقير بنات الياء والواو إلخ عند الكلام على تصغير أحوى قال
(وأما عيسى فكان يقول أحي ويصرف وهذا خطأ ... وأما أبو عمرو
فكان يقول أحي ... وأما يونس فيقول هذا أحي كما ترى وهو القياس
والصواب) وفى باب ما يحذف من أواخر الأسماء فى الوقف وهى الياءات
قال (وسألت الخليل عن القاضى فى النداء فقال اختار يا قاضى لأنه ليس
بمنون كما اختار هذا القاضى ، وأما يونس فقال يا قاض و قول يونس أقوى)
وقد ضم الى أقوال هؤلاء العلماء ما استخرجه بنفسه من القواعد
اعتمادا على سماعه من العرب الخالص قال (سمعنا العرب الفصحاء يقولون
انطلقت الصيف)^١ وقال (وسمعنا بعض العرب الموثوق به يقال له كيف
أصبحت ؟ فيقول حمد الله وثناء عليه)^٢ وقال (إن هذا البيت أنشدناه
أعرابي من أفصح الناس وزعم أنه شعر أبيه)^٣
كون سيديويه كتابه من أقوال العلماء ومما استنبطه هو بنفسه ،
فكان جماع الفن . شاملا كل ما يحتاج إليه طالبه مع الترتيب والتبويب ،
ولكل عصر طبيعته المتسقة معه - فترتيب الكتاب على غير المؤلف
فى كتبنا المتداولة بين أيدينا ، والأسراف فى عناوين أبوابه جاوز الحد
فقد بلغت عشرين وثمانائة ، مع الغموض الذى لا يفصح عن المقصود
لأول وهلة ومع التداخل فى كثير من الأبواب ، فمن ذلك على سبيل المثال
باب البديل فقد قال (هذا باب من الفعل يستعمل فى الاسم ثم تبدل
مكان ذلك الاسم إلخ ، هذا باب من الفعل يبدل فيه الآخر من الأول إلخ

باب المبدل من المبدل منه ، باب بدل المعرفة من النكرة إلخ ، باب من
 البديل أيضاً) ^١ - وبعض عباراته الاصطلاحية حلت بدلها عبارات أخرى
 عندنا ، ونظرة أولية إلى مستهل في ترتيب أبوابه وعناوينها واصطلاحاتها
 كافية في ذلك ، قال (هذا باب علم ما الحكم من العربية ، باب مجازي أو آخر
 الحكم من العربية ، باب المسند والمسند إليه ، باب اللفظ للمعاني ، باب
 ما يكون في اللفظ من الأعراض ، باب الاستقامة من الكلام والأحالة ،
 باب ما يحتمل الشعر ، باب الفاعل إلخ)
 فلم يك سيدويه في كتابه جماعاً لآراء السابقين فحسب ، بل له شخصية
 قوية ظهرت في ابتداع بعض القواعد ، وفي ترتيب الكتاب حاوياً عناصر
 الفن كلها ، وتبويبه واضعاً كل شيء وما يتصل به معه ، وحسن التعاميل
 للقواعد ، وجودة الترجيح عند الاختلاف ، واستخراج الفروع من
 القياس الذي امتثل به الكتاب ، فكثيراً ما يقول والقياس كذا أو القياس
 يأباه ، ويقول (سألت الخليل عن قول العرب ما أميد معه فقال : لم يكن
 ينبغي أن يكون في القياس لأن الفعل لا يحقر وإنما يحقر الأسماء) ^٢
 وفي الحرص على الاعتزاز بالشواهد الوثيقة لدعم الأحكام التي قررهما .

شواهد

عنى سيدويه في كتابه بالشواهد لتثبيت الأحكام والأدعان بها
 من القرآن الكريم ونثر العرب والشعر ، ولم يمتنع إلى الاستدلال بالحديث

(١) في ج ١ على الترتيب ٧٥ ، ٧٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٣٩٣

(٢) ج ٢ ص ١٣٥

الشريف شأن أسلافه ومعاصريه ، ثم صارت سنة جارية بعده في المتقدمين والمتأخرين لم يبتدع خلافها غير ابن مالك الذي اعتد بالاستشهاد بالحديث ، وسند كرجهته في ذلك عند ترجمته .

فالقرآن الكريم قد بلغ ما ذكره في الكتاب من آيه ما يربى على ثلثمائة آية ، قال المازني اعتذاراً عن تعليم الذي الكتاب في نظير أجر كبير : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة وكذا آية من كتاب الله عز وجل ولست أرى أن أمكن منها ذمياً ، وأكثر الآيات مسوقة للاستدلال على الحكم الذي يقرره من ناحية الاستعمال العربي وهي بين يدي القارئ فلا حاجة إلى ذكر مثال منها ، وفي غير الكثير منها قد تذكر بعض آيات استثناساً لناحية المعنى في الأحكام ، قال سيديويه (وقد يكون علمت بمنزلة عرفت لا تريد إلا علم الأول ، فمن ذلك قوله تعالى ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ، وقال سبحانه وآخري منهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، فهي ههنا بمنزلة عرفت)^١ وقد تذكر بعض آيات أخرى عندما يكون ظاهرها مخالفاً للحكم الذي ذكره لتخريجها على ما يوافق ، قال سيديويه (وأما قوله عز وجل الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، وقوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، فإن هذا لم يبن على الفعل ولا سكنه جاء على مثل قوله تعالى مثل الجنة التي وعد المتقون ثم قال بعد فيها كذا وكذا فأنما وضع المثل للحديث الذي بعده ، وذكر بعد أخبار وأحاديث فكأنه على قوله ومن القصص مثل الجنة أو مما يقص عليكم مثل الجنة فهو محمول على هذا الاضمار ونحوه والله أعلم ، وكذلك الزانية والزاني

كأنه لما قال سورة أنزلناها وفرضناها قل في الفرائض الزانية والزاني أو الزانية والزاني في الفرائض ، ثم قال فاجلدوا فجاء بالفعل بعد أن مضى فيهما الرفع إلخ) ^١ - وهكذا

والشواهد النثرية المعين الذي لا ينضب في الاستشهاد لكثرة الظفر بها عند تلمس الدليل فهي منطق العربي في غدواته وروحاته يرسلها متى شاء وحيث كان وفيما يبتغي ويريد ، ويدخل فيها الأمثال السائرة ، يسمعها سيديويه من العلماء الذين يتلقى عنهم أو يأخذها مشافهة من العربي وهاك شيئاً منها : قال سيديويه (ومثل قولهم من كان أخاك قول العرب ما جاءت حاجتك) ^٢ وقال أيضاً (وسمعنا من يوثق به من العرب يقول اجتمعت أهل الإمامة الخ) ^٣ ومن الأمثال ما قال (كما جعلوا عسى بمنزلة كان في قولهم عسى الغويراً بؤساً) ^٤ - وهكذا

والشواهد الشعرية كثيرة كذلك فقد قالوا إن فيه ألفاً وخمسين بيتاً ، غير أنه لم يعن رحمه الله بنسبة الشعر المذكور إلى قائله ، سواء ما استشهد به العلماء الحاكي عنهم وما استشهد به هو ، لأن بعض الشعر قد روى لشاعرين أو أكثر وبعضه قديم العهد لا يعرف قائله ، فاعتمد على شيوخه فيما استشهدوا به ونسب الانشاد إليهم ، وعلى نفسه فيما سمعه بأذنه ، ولم يتخذ أحد من العلماء إغفاله للنسبة سبيلاً للطعن عليه على حين أنه أخرج للناس كتابه والعلماء كثير ، والعناية بهذا العلم وتهذيبه وكيدة ، ولعل ذلك لأن العلماء في ذلك الحين كانوا على علم بها لقرب العهد

(٢) ج ١ ص ٢٤

(١) ج ١ ص ٧١

(٤) ج ١ ص ٢٤

(٣) ج ١ ص ٢٦

فأن العلماء بعدئذ نطلعوا إلى معرفة الشعراء وبحنوا عنهم قال الجرمي
(نظرت في كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتاً ، فأما ألف بيت
فعرفت أسماء قائلها فأثبتها ، وأما خمسون فلم أعرف أسماء قائلها) ،
ويروى مثل هذا الخبر عن المازني وهما متعاصران ، فالنسبة المذكورة
الآن في الكتاب حادثة بعد سيبويه إما من الجرمي أو المازني ، وسميت
الآبيات الخمسون بين العلماء بأبيات سيبويه الخمسين المجهولة القائل ، ونسبة
الشعر للشاعر الصادرة من الجرمي أو المازني لم تشمل ألف كلها في
الكتاب المطبوع بين أيدينا ، ولا أدري سبباً في ذكر القائل في البعض
دون البعض ، فقد كان في تعيين النسبة للألف كلها إعلان كاف عن الخمسين
المجهولة ، فليس وراء المعلوم إلا المجهول ، والمهم إنما هو الوصول لمعرفة
هذه الآبيات المجهولة الخمسين ، وقد استعنت خزانة الأدب للبغدادى في
الوصول إليهما فعلمت منها بالنص اثنين وثلاثين ، وسأذكرها لك مع
الإشارة في الهامش إلى موطن كل منها في سيبويه وفي خزانة الأدب ،
غير أن بيتاً منها قد اهتدى البحاث الشنقيطي إلى اسم قائله في كتابه
« الحماسة السنية » وهو قوله .

أفبعد كندة تمدحن قبيلا

فإن قائله امرؤ القيس وهذا عجز البيت والبيت كله

قالت فطيمة حل شعرك مدحه أفبعد كندة تمدحن قبيلا

ومعنى البيت : حل تخفيف حلىء من حلاه إذا طرده عن الماء ،
ومدحه بدل اشتمال ، فرادها أن لا يمدح أحداً بعد كندة ، دل على ذلك

المصرع الثاني ، والبيت مطلع قصيدة نادرة الوجود أوردها كلها
الشنقيطي مع ذكر السبب ، وذلك في القسم الثاني ، آخر الكلام على البرزنجي
وعلى هذا فالأبيات المجهولة في كتاب سيبويه تسعة وأربعون ، والأبيات
المجهولة التي أذكرها أحد وثلاثون ، وهما كما بالترتيب على نسق الكتاب

أبياته المجهولة القائل

ما في الجزء الأول

هل تعرف الدار على تبرأكا	دار لسعدى إذه من هواكا ^١
أستغفر الله ذنبا لست محصيه	رب العباد إليه الوجه والعمل ^٢
وقائلة خولان فانكح فئاتهم	وأكرومة الحميمين خلوكاهيا ^٣
إن على الله أن تبايعا	تؤخذ كرها أو تجيء طائعا ^٤
وكأنه لهماق السراق كأنه	ما حاجبيه معين بسواد ^٥
هل أنت باعث دينار لحاجتنا	أو عبد رب أخا عون بن مخراق ^٦
ضعيف النكابة أعداءه	يخال الفرار يراخي الأجل ^٧
كأوا في بعض بطنكم تعفوا	فإن زمانكم زمن خميص ^٨
	من لد شولا فإلى إتلاها ^٩

- | | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| (١) راجع ص ٩ والخزانة شاهد ٨٣ | (٢) راجع ص ١٧ والخزانة شاهد ١٧٥ |
| (٣) راجع ص ٧٠ والخزانة شاهد ٧٧ | (٤) راجع ص ٧٨ والخزانة شاهد ٣٧٢ |
| (٥) راجع ص ٨٠ والخزانة شاهد ٣٧٠ | (٦) راجع ص ٨٧ والخزانة شاهد ٦١٠ |
| (٧) راجع ص ٩٩ والخزانة شاهد ٥٩٧ | (٨) راجع ص ١٠٨ والخزانة شاهد ٥٧٥ |
| (٩) راجع ص ١٣٤ والخزانة شاهد ٢٥٢ | |

دعوت لما نأبى مسورا
فلا تلحنى فيها فان بحبها
ووجهه مشرق النحر
على أنى بعد ماقد مضى
يدكر نيك حنين العجول
من أجلك يا التى تيممت قلبى
يا لقوم من للعلى والمساعى
يا أعطافنا ويا لرياح
فلا أب وابنا مثل مروان وابنه
بكت جزعا واسترجمت ثم آذنت
فاليوم قربت تمجونا وتشت مننا
دعى ماذا علمت سأتيه
فلمبى فلمبى يدى مسورا
أذك مصاب القلب جم بلابله
كان ندياه حقتان
يأليت أيام الصبى راجعا
ثلاثون للهجر حولا كمىلا
ونوح الحمامة تدعو هدىلا
وأنت بخيلة بالود عنى
يا لقوم من للندى والسماح
وأبى الحشرج القى النفاح
إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا
لا هيتم الليلة للقطي
ركبها أن لا إلينا رجوعها
حنت قلوصى حين لا حين محن
فاذهب فمالك والأيام من محب
ولكن بالمغيب نبئنى

- (١) راجع ص ١٧٦ والخزانة شاهد ٩٣
(٢) راجع ص ٢٨٠ والخزانة شاهد ٦٤٨
(٣) راجع ص ٢٨١ والخزانة شاهد ٨٧١
(٤) راجع ص ٢٨٤ والخزانة شاهد ٨٤١
(٥) راجع ص ٢٩٢ والخزانة شاهد ٢١٦
(٦) راجع ص ٣١٠ والخزانة شاهد ١٢٨
(٧) راجع ص ٣١٩ والخزانة شاهد ١٠٨
(٨) راجع ص ٣٤٩ والخزانة شاهد ٢٦٣
(٩) راجع ص ٣٥٤ والخزانة شاهد ٢٦١
(١٠) راجع ص ٣٥٥ والخزانة شاهد ٢٥٥
(١١) راجع ص ٣٥٨ والخزانة شاهد ٢٥٨
(١٢) راجع ص ٣٩٢ والخزانة شاهد ٣٥٣
(١٣) راجع ص ٤٠٥ والخزانة شاهد ٤٤٤

غَيْرَ أَنَا لَمْ تَأْتِنَا بِيَقِينِ فَتُرْجِي وَنَكْثُ التَّامِيلَا^١
 هَذَا سِرَاقَةُ لِلْقُرْآنِ يَدْرُسُهُ وَالْمَرْءُ عِنْدَ الرُّشَا إِنْ يَلْقَاهَا ذَيْبُ^٢
 إِنْ لَمْ يَجِدْ يَوْمًا عَلَى مَنْ يَتَكَلَّمُ^٣ إِنْ لَمْ يَجِدْ يَوْمًا عَلَى مَنْ يَتَكَلَّمُ^٣
 وَكُنْتُ أُرَى زَيْدًا كَمَا قِيلَ سَيِّدًا إِذَا أَنَّهُ عَبْدُ الْقَفَا وَاللَّهْ أَزِيمُ^٤
 وَلَسْتُ أَبَالِي بَعْدَ يَوْمٍ مَطْرَفِ حَتَمَ الْغَنَايَا أَكْثَرَتْ وَأَوْقَلَتْ^٥

ما في الجزء الثاني

لَقَدْ رَأَيْتُ عَجَبًا مُذْ أَمْسَا عَجَائِزًا مِثْلَ السَّمَاءِ خَمْسَا^٦
 وَهَيْجَ الْحَى مِنْ دَارِ فَظْلٍ لَهُمْ يَوْمٌ كَثِيرٌ تَنَادِيهِ وَحِيمَتُهُ^٧
 وَهِيَ تَنُوشُ الْحَوْضَ نَوْشًا مِنْ عَلَا^٨
 فَأَقْبَلَ عَلَى رَهْطِي وَرَهْطِكَ نَهْطِ مَسَاعِينَا حَتَّى تَرَى كَيْفَ نَفْعَلَا^٩

هذا ما يختص بالآبيات المجهولة القائل في الكتاب - أما الألف
 الباقية فقد ارتضاها جمهور العلماء، سواء منها ما نسب إلى قائله وما لم ينسب
 إليه ، وقليل منهم اعترض بعض الآبيات المنسوبة لقائلها بما يؤدي إلى
 عدم صحة الاستشهاد بها على ما ساقها دليلنا عليه سيمبويه لتعريف أو
 تصحيف خفي عليه في الرواية للشاهد ، وقليل منهم تعقب بعض الآبيات

- | | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| (١) راجع ص ٤١٩ والخزانة شاهد ٦٦٥ | (٢) راجع ص ٤٣٧ والخزانة شاهد ٨٢ |
| (٣) راجع ص ٤٤٣ والخزانة شاهد ٨٢٧ | (٤) راجع ص ٤٧٢ والخزانة شاهد ٨٤٦ |
| (٥) راجع ص ٤٩٠ والخزانة شاهد ٩١٠ | (٦) راجع ص ٤٤ والخزانة شاهد ٥٢٢ |
| (٧) راجع ص ٥٢ والخزانة شاهد ٤٦٢ | (٨) راجع ص ١٢٣ والخزانة شاهد ٧٧٣ |
| (٩) راجع ص ١٥١ والخزانة شاهد ٩٤٤ | |

غير المنسوبة لقائلها واعتبرها مفتعله مصنوعة ، وهذا كله عدا الآيات
المزيدة على شواهد سيبويه فلم تذكر في أصل الكتاب معها . وقد شرحها
الأغلم أيضاً نامباً كل شاهد زائد في الباب المذكور فيه لمن أنشده من
العلماء الذين زادوه على شواهد الكتاب في خلال نظرهم فيه - فهذه
أصناف ثلاثة ، وهما بيانها :

بعض الآيات التي خطأوا روايتها

كثير ما طعن بعض العلماء على بعض الآيات المنسوبة للقائل طعنًا يقضي
بعدم الاستدلال بها ، وفي مقدمة هؤلاء ابن قتيبة والمبرد والعسكري ، وإنني
لذا كر من ذلك آياتاً ثلاثة على سبيل التمثيل خوف الإطالة . فن ذلك .

١ - قول عقيبة بن هبيرة الأسدي

معاوي إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد

أديروها بني حرب عليكم ولا ترموا بها الغرض البعيد

استشهد سيبويه بالبيت الأول على جواز الاجراء على الموضع فأن قوله
(الحديد) . مطوف على محل الجرور قبله في قوله (بالجبال) لأن الباء زائدة .

لقد خطأ ابن قتيبة في أواخر مقدمة طبقات الشعراء هذه الرواية
مدعياً أن الصواب الجر كبقية القصيدة ، والبيت الثاني من بيتي سيبويه
لا صلة له بالأول منهما ، وتابعه المبرد في ذلك ، وكذا العسكري في
« التصحيح والتعريف » .

لكن العلماء المنتصرين لسيمبويه وفي مقدمتهم الانباري في كتابه
(الانصاف) قالوا إن البيت روى مع أبيات منصوبة ومع أبيات مجرورة ،
واستشهد سيمبويه منوط بالرواية الأولى فصح الاعتماد عليه ، ولهذا استشهد
به الرضى على الكافية راجع الخزانة في الشاهد الرابع والعشرين بعد المائة ،
والغريب بعد هذا كله أن ابن هشام في المغنى الباب الرابع في الكلام على
أقسام العطف عند الكلام على العطف على التوهم مثل له بهذا البيت
وخطأ العلماء في زعمهم أن سيمبويه استشهد به على العطف على المحل إذ
يقول (وقد استنبط من ضعف فهمه من إنشاده هذا البيت هنا أنه براه
عطفاً على المحل) - فتأمل فيما ترى أنار الله بصيرتك

٢ - ومن ذلك قول نهشل بين حرى
ليُبْك بزيد ضارع لخصومة ومختبب مما تطيح الطوائح^١
استشهد به سيمبويه في باب « ما يحذف منه الفعل الخ » على أن
رافع ضارع محذوف للعلم به من سابقه .
وقد تعقب الأصمى رواية البيت كذلك قائلا إن الصواب نصب بزيد
بالفعل قبله والفعل مبنى للمعلوم لا للمجهول فضارع فاعل له لا للمحذوف ،
وقد نقل عن الأصمى هذا التصحيح ابن قتيبة في أواخر مقدمة طبقات
الشعراء ، وتبعهما العسكري في « التصحيف والتحريف »
لكن العلماء الآخرون أجازوا رواية سيمبويه فاقتفاه في الاستدلال بها
« في باب الفاعل » الزحشرى في المفضل ، والرضى في الكافية ، وابن
هشام في التوضيح ، والأشموني في شرح الألفية .

٣ - ومن ذلك قول الأخطل

كُروا إلى حرتيكم تعمرونها كما تسكر إلى أوطانها البقر^١

استشهد سيبويه بهذا البيت في باب (من الجزاء ينجزم فيه الفعل إذا كان جواباً لأمر إلخ) على جواز رفع المضارع وهو تعمرونها بعد الطلب وهو (كروا) لعدم قصد الجزائية ، وتبعه في الاستشهاد به الزمخشري في المفصل ، والأشموني في شرحه على الألفية

لم يذبه أحد من العلماء قط على ما في البيت من خطأ ابتنى عليه زعم الاستدلال بالبيت إذ مدار الاستشهاد به على أن (كروا) فعل أمر بدليل الخطاب في حرتيكم .

والحقيقة أن الفعل ماض وأن صواب الشطر الأول « كروا إلى حرتيهم » يعمرونها ، على الحكاية للغائبين ، فالبيت من قصيدة في متناول أيدي الجميع ، ويبدو لي أن هذا التحريف غير معمود اليه وإنما سرى لسيبويه من الراوي المحرف ، وأكد اعتقد أن هذا البيت في تحريفه لا منبئ له في الكتاب ، والعجب العاجب عدم الالتفات لما فيه من الأعلام السابقين

بعض الأبيات التي قيل أنها مصنوعة

فما قالوا إنه مصنوع :

١ حذر أموراً لا تضر وآمن ما ليس منجيه من الأقدار^٢

(١) راجع ج ١ ص ٤٥١

(٢) راجع ج ١ ص ٥٨ ، وراجع خزانة الأدب شاهد ٦٠٥ ففيه كل ما قيل في

البيت ، ومعنى البيت يختلف فيه ، قال ابن السيد والأشبه عندي أن يكون أراد أن الإنسان جاهل بعواقب الأمور يدبر ليخونه التدبير

استشهد به سيبويه على عمل (فعل) من أبنية المبالغة ؛ وتبعه
من بعده كابن يعش في شرح المفصل ، والرضى في شرح الكافية وغيرهما
لكن قال النقدة يروى عن اللاحق أنه قال (إن سيبويه سألني
عن شاهد في تعدى فعل فعملت له هذا البيت)

وقد تصدى للرد عن سيبويه في الطعن الوارد على هذا البيت
الكثير من العلماء ، قال الأعمى في شرحه لهذا الشاهد (وإن كان هذا
صحيحاً فلا يضر ذلك سيبويه لأن القياس يعضده) ، وقال هرون
ابن موسى (وإنما أراد اللاحق بقوله فوضعت له هذا البيت ، فرويته له) ،
وقال ابن يعش في شرح المفصل (فإن سيبويه رواه عن بعض العرب
وهو ثقة لا سبيل إلى رد ما رواه) ، وبعدئذ فلا مجال للطعن على سيبويه
٢ - هم القائلون الخير والامرونه إذا ما خشوا يوماً من الأمر معظماً
٣ - ولم يرتفق والناس محتضرونه جميعاً وأيدى المعتفين رواه
قال المبرد (وقد روى سيبويه بيتين محولين على الضرورة وكلاهما
مصنوع ، وليس أحد من المفتشين يميز مثل هذه الضرورة لما ذكرت
من انفصال الكناية ، والبيتان اللذان رواهما سيبويه . هم القائلون
الخير الخ) ١

(١) راجع الكامل مع الرغبة ج ٤ ص ٤٢ وما بعدها ، والبيتان في سيبويه
ج ١ ص ٩٦ ومعنى البيت الاول انهم يقولون الخير ويأمرون به وقت خشيتهم
الامر العظيم من حوادث الدهر فلا يمنهم خوف الضرر عن الامر بالمعروف ،
والثاني انه لم يرتفق أى يكيء على المرفق — وأيدى المعتفين طلاب المعروف —
رواهه غاشية له قريبة منه ، وذلك كناية عن اهتمام بمدوحه بقضاء حاج الناس .

المراد من الكناية الضمير ، وأول من استعمالها في ذلك سيبويه ،
وتوجيه طعن المبرد على سيبويه ، أن الضمير لا يتصل بالوصف المثنى أو
المجموع إلا إذا تجرد من النون اللاحقة في آخره حتى يحل محلها الضمير
المتصل المضاف إليه ، وذلك للتناوب بين النون والضمير ، فإذا اقترنت
بالوصف النون وجب انفصال الضمير عنه حينئذ ، والنتيجة أن الجمع بينهما
ممنوع ، فكيف استباح سيبويه ذكر بيتين اجتمع فيهما النون والضمير
المتصل للضرورة مع أنهما مصنوعان

والذي يقتضي العجب أن المبرد يتجنى على سيبويه في هذا الانتقاد
فإن سيبويه نفسه قد صرح مع البيت الأول أنه مصنوع وكذا في الثاني ،
ونقل ذلك عنه ابن يعيش في شرح المفصل مبحث الإضافة اللفظية ،
وكذا الرضى على الكافية ، وقد استعرض اعتراض المبرد على البيتين وكل
ما قيل في دفع الاعتراض عليهما البغدادى في الخزانة في الشاهدين :
السادس والتسعين والسابع والتسعين بعد المائتين

٤ إذا ما الخبز تأدمه بلحم فذاك أمانة الله الثريد ١

استشهد بالبيت مرتين الأولى على رفع ما بعد إذا والثانية على نصب
أمانة بفعل مقدر ، وتابعه في الاسم شهاد به على الثانية الزمخشري
في المفصل عند الكلام على حروف القسم ، وابن يعيش في شرح المفصل
في أوائل الكلام على القسم ،

لكن قال النقدة إن البيت مصنوع ، والله أعلم بالحقيقة .

الآيات المزيدة على الشواهد

يرى المتأمل في شرح شواهد سيديويه للأعلم أبيات مضافة إلى أبيات سيديويه ، وقد تناولها الأعلام بالبيان لمعناها وموطن الشاهد فيها على غرار شرحه لأبيات الكتاب ، غير أنه قبل ذكرها يعزوها لمنشدها في الباب المتحدث فيه ويعرض للغرض منها في الاستشهاد ، ما خلا بيتين فيؤخذ منه نسبتهم لسيديويه لأطلاقه الانشاد له على وفق طريقته في شواهد ، والآيات المزيدة باغت أحد عشر أكثرها من إنشاء الأخفش فلما زنى ثم الجرمي والمبرد ، ولهذا يحسن بعد ذكر البيتين المظنون نسبتهم لسيديويه سرد ما أنشده الأخفش في الكتاب مستقلا ، وكذا المازني ، وبعدهما أراعى ترتيب الكتاب في المبرد والجرمي

البيتان المنسوبان له وهما في الجزء الثاني

أتيت مهاجرين فعلموني ثلاثة أحرف متتابعات
وخطوا لي أبا جاد وقالوا تعلم صغفضا وقريسيات ١

الأخفش في الجزء الأول

فبيناه يشرى رحله قال قائل لمن جمل رخو الملائم نجيب ٢
وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه ٣

ألم يأتيك والأنباء تنمى بما لاقت لبون بنى زياد ١
فزججتها بمزجة زج القلوص أبى مزاده ٢

المازنى فى الجزء الأول

أتهجر ليلى بالفراق حبيبها وما كان نفسا بالفراق تطيب ٣

وفى الجزء الثانى

إن الفردق صخرة عادية طالت فليس تنالها الأوعلا ٤
فما سبق القيسى من ضعف حيلة ولكن طفت علماء غرلة خالد ٥

المبرد فى الجزء الأول

نأرنا بها قتلى وما فى دماها وفاء وهن الشافيات الحوائم ٦

الجرمى فى الجزء الثانى

أرمى عليها وهى فرع أجمع وهى ثلاث أذرع واصبع ٧
وبعد فما لا ريب فيه بين العلماء قاطبة أن سيبويه لم يحتج فى كتابه
إلا بأشعار من يستشهد بشعرهم من الجاهلين والمخضرمين والاسلاميين
فلم يتجاوزهم إلى المحدثين ، ولقد كان ذلك ديدنه فى تعليمه ودراسته

(١) ص ١٥ (٢) ص ٨٨ (٣) ص ١٠٨

(٤) ص ٣٥٦ (٥) ص ٤٢٤ (٦) ص ٩٤

(٧) ص ٣٠٨

وحجابه ، نعم روى أنه عاب على بشار صدر المحدثين كلمات له في أبيات
وبلغ عيبه لها بشاراً ، فقال يهجو

أَسْبَوِيهِ يَا بْنَ الْفَارَسِيَّةِ مَا الَّذِي تَحَدَّثْتَ عَنْ شَتْمِي وَمَا كُنْتَ تَنْبِذُ
أَظْلَمْتَ تُغْنِي سَادِرَافِي مَسَاءَتِي وَأَمَّا بِالْمَصْرِينَ تَعْطِي وَتَأْخُذُ

فتوقى شره بعدئذ ، وكان إذا سئل عن شيء فأجاب عنه ووجد له من
شعر بشار شاهداً احتج به استند - كفا لشره

ومن الحق البين أن الكتاب يحتاج إلى دراسة طويلة عميقة في البحث
يضيق المقام عن استيفائها ، وما أجدرها بسفر خاص .

تقدير الكتاب

لقد دهش الناس عند ظهور الكتاب فجأة على صورته الرائعة الغريبة
من سيديويه الشاب ، فتسرب إلى نفوسهم الظن في أمانته العلمية ، قال يونس
(أظن هذا الغلام كذب على الخليل) ف قيل له وقد روى عنك أيضاً فاستحضر
الكتاب ورأى ما نقله عنه صحيحاً ، فقال إنه صدق في جميع ما قال . .
عظم شأن الكتاب في البصرة حتى صار علماً بالعلبة ، فكان إذا قيل
في البصرة فلان يقرأ الكتاب فلا يفهم السامع سوى كتاب سيديويه ،
بل سموه كباراً له قرآن النحو ، وهكذا كان الكتاب أعجوبة الدهر الخالدة
فانه منذ ألف استفرغ عناية العلماء به في الطواف حوله فمن شارح له
ومن شارح لشواهد ومن منتقد له ، واستخدموا حيناً وضع كتاب

جديد بعده ، ولهذا كان يقول المازني (من أراد أن يصنف كتاباً واسعاً
في النحو بعد سيبويه فليستحي)

لم يقف العلماء فيه على عثرات شأن المؤلفات الإضافية لا في أسلوبه
ولا في القواعد المسطورة فيه ، مع أن الكتاب كبا كورة في النحو ومع
كثرة الناظرين فيه ، وحسبه في أسلوبه أن يتلقف ابن الطراوة غلطة فيه
ثم لم تسلم له ، تلك هي أن سيبويه في باب (ما تجرى عليه صفة ما كان من
سببه وصفة ما التبس به إلخ) ' أجاب بكلمة نعم على استفهام بقوله
ألمست ، وخلص ابن هشام في المغنى ذلك للمناسبة في الباب الأول مبحث
نعم ، فقال (وزعم ابن الطراوة أن ذلك لحن . . وعلى ذلك جرى كلام
سيبويه والمخطئ مخطئ) - ويكفيه في قواعده أن الزجاج لم يعثر
إلا على غلطتين فيهما ، أحدهما اعتباره بناء أي الموصولة على الضم مع
الإضافة وحذف صدر الصلة قال ابن هشام في المغنى الباب الأول مبحث
أي (قال الزجاج ما تبين لي أن سيبويه غلط إلا في موضعين هذا أحدهما
فانه يسلم أنها تعرب إذا أفردت فكيف يقول ببناءها إذا أضيفت)
ومند ألف الكتاب ما فارقه النحو وما تخلف هو عنه بل كانا يقيمان
معاً ويرحلان معاً ، فطوف معه وانتقل من البصرة إلى الكوفة ثم
بغداد ثم الأندلس والشام ومصر ، ومند كرنيزة عنه إن شاء الله في الطور
الرابع عند الكلام على علماء الأندلس ، تبين منها إقبال الأندلس عليه
وتقديرها له ، وبعبارة أخرى احتفاء المغاربة به بعد المشاركة
ولقد قدر لهذا العبقري أن تكون منيته في أمنيته ، حببت إليه

التوجه إلى بغداد لمنازلة الكسائي الذي كان ينفس عليه ما نال من جاه كبير ومال وفير ، ثقة منه بالظفر عليه ، فتلاقى القرينان وجرت بينهما تلك المناظرة المشؤومة التي ساف الكلام عليهما ، نخاب الأمل وفارق سيبويه بغداد مقهوراً وعز على نفسه أن يعود إلى البصرة بعد هذا الخزي والخذلان ، فاستقدم تلميذه أبا الحسن الأخفش في طريقه إلى بلده في فارس وبث إليه حزنه ، وما كاد يرد بلده حتى اشتدت علته فمات في ريعان شبابه قبل جل شموخه رحمه الله سنة ١٨٨ هـ وأخباره مستفيضة في كتب الأدب والتراجم والتاريخ ، وفي خزانة الأدب شاهد ٥٧ نبذة عن الكتاب

٢ — اليزيدي : هو أبو محمد يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي مولى بني عدي ، نشأ بالبصرة وتلقى عن أبي عمرو وابن أبي اسحق والخليل ويونس وغيرهم ، ثم اشتهر فضله فيها وعرف باللغة والنحو وأخبار الناس ، وعرضت فتنة بالبصرة اقتضت اختفائه عنها ، ثم ظهر بعد في بغداد عند يزيد بن منصور الحميري خال المهدي فأدب أولاده ونسب إليه ولقب باليزيدي من هذا الحين ، وسرى هذا اللقب في أولاده وأحفاده من بعده ، ولم يلبث أن وصله يزيد بالرشيد فاختصه بأدب المأمون كما كان الكسائي يؤدب الأمين ، وصار اليزيدي يدرس في مساجد بغداد كما يدرس الكسائي ، فتولدت بين الشيخين المنافسة وتطلع كل منهما لغلب الآخر فحدث المناظرات بينهما ، وكان اليزيدي مظفراً في أغلبها وقد أسلفنا القول على إحداها ، ولما مات الكسائي قبله لم يتحصر في رثائه ، كان اليزيدي مع علمه أديباً شاعراً له مجموعة شعرية فيها شعر كثير في مدح

النحاة البصريين وهجاء الكوفيين ، وسنذكر بعضاً منها في الكلام
على المذهب الكوفي بمشاعة الله تعالى ، وله مؤلفات في متنوع العلوم ، منها
مختصر في النحو ، وقد بورك له في نسله فكان العلم والفضل في أبنائه
وحفدته ، توفي رحمه الله بخراسان سنة ٢٠٢ هـ^١

٣ - أبو زيد . هو سعيد بن أوس الأنصاري الخزرجي ، نشأ بالبصرة
وأخذ عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر وغيرهما ، ثم رحل إلى العرب
في البوادي ، وكان يعاصره في البصرة الأصمعي وأبو عبيدة معمر
ابن المنثري ، وهؤلاء الثلاثة كانت بيدهم مقاليد اللغة والأدب والرواية ،
أما النحو فلم يبلغوا فيه شأواً أسلافهم من البصريين ، على أنهم فيما بينهم
بعدئذ متفاوتون فيه ، فأعلمهم أبو زيد فالأصمعي فأبو عبيدة ، كان
أبو زيد صدوق الرواية ، وكفى أن يلتزم سيبويه في النقل عنه قوله
(سمعت الثقة) كما كان غير متأثر بالعصبية البلدية كسائر البصريين ، فروى
عن الكوفيين ، قال السيرافي في كتابه أخبار النحويين البصريين (ولا
نعلم أحداً من علماء البصريين بالنحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة شيئاً
من علم العرب إلا أبا زيد فإنه روى عن المفضل الضبي) ، له مصنفات
كثيرة متنوعة ، وفي كتبه المصنفة في اللغة من شواهد النحوعن العرب
ما ليس لغيره ، وله كتاب تخفيف الهمزة على مذهب النحو ، وأخباره
مستفيضة في كتب الأدب والتراجم والتاريخ ، توفي سنة ٢١٥ هـ

(١) ترجمته في مراتب النحويين ، وأخبار النحويين البصريين ، وطبقات
الزبيدي ، والأغاني ، والفهرست ، ونزهة الألباء ، ووفيات الأعيان ، وبغية الوعاه ،
وخزانة الأدب شاهد ٨٩٧

الخامسة

١ - الأخفش . هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة مولى بني مجاشع ابن دارم بطن من تميم ، أوسط الأخفشة الثلاثة المشهورة ، فقبله أبو الخطاب الأخفش الأكبر شيخ سيبويه الذي سلفت ترجمته وبعده أبو الحسن الأخفش الأصغر تلميذ المبرد وستأتي ترجمته ، وأشهرهم ذكراً في النحو فلذا ينصرف إليه الحديث عند ذكر الأخفش مجرداً من الوصف في كتب النحو ، فإن قصد غيره وجب ضم الأكبر أو الأصغر إليه على وفاق المطلوب ، ولد ببلخ وأقام بالبصرة لطلب العلم وتلقى مع سيبويه عن جل شيوخه ثم أخذ عنه بعد المشاركة مع كبر سنه عنه فكان أنحى تلاميذه ، وكان ضنيناً بكتاب سيبويه لنفسه حتى ظن به ادعاؤه لنفسه لأن سيبويه لم يقرأه على أحد ولا قرأه عليه أحد ما عداه قال : ما وضع سيبويه في كتابه شيئاً إلا عرضه على وكان يرى أنه أعلم به مني وأنا اليوم أعلم به منه ، فتشاور تلميذا الأخفش : الجرمي والمازني على الحيلولة بينه وبين ما ظن فيه بترغيبه في المال إذ كان الجرمي مثيراً فقرآه عليه وظهر الكتاب ، فلميس للكتاب طريق إلا الأخفش ، فأليه يرجع الفضل في استبقائه كما يرجع للكتاب الفضل في إقبال العلماء على الأخفش .

لما قفل سيبويه من بغداد بعد خذلانه في المناظرة الماضية استشخص تلميذه الأخفش في طريقه إلى الأهواز لما سبق أنه ولي وجهه عن البصرة خزيًا وشكاً إليه به وحزنه مما حاضه ، فتحوش الأخفش بالكسائي ووصل بغداد في الغلس وصلى خلف الكسائي الغداة في مسجده ، ثم سأل أمام تلامذته الفراء والأحرار وغيرهما وخطأه في إجابته حتى هم التلامذة بالوثوب

عليه فمنعهم الكسائي وقال له بالله أما أنت أبو الحسن سعيد بن مسعدة؟ فقال نعم، فقام إليه وعانقه وأجلسه بجانبه وأكرم مثواه. فاستحال تحرشه محبة له وأقام عنده ينعم بالحياة السعيدة الجديدة. وبقي في جواره ببغداد بقية حياته، وصار مؤدب أولاده وقرأ له كتاب سيبويه سرّاً، وقد تغيرت لذلك عصبية الأخفش حتى وافق الكوفيين كثيرًا في آرائهم فكان أكثر البصريين موافقة للكوفيين، وكتب النحو ملأى بالمسائل التي وافقهم فيها، وإني ذاكر لك بعضاً منها على سبيل التمثيل من المسائل التي وافق فيها الأخفش الكوفيين

١ - إعراب فعل الأمر وجزمه بلام الأمر المقدرة على أنه مقتطع من المضارع المجزوم بها قال ابن هشام (وزعم الكوفيون وأبو الحسن أن لام الطلب حذفت حذفاً مستمراً في نحو قم واقعد، وأن الأصل لتقم ولتقعد فحذفت اللام للتخفيف وتبعها حرف المضارعة)^١

٢ - جواز رفع الوصف فاعلاً ظاهراً من غير اعتماد للوصف وكذا الظرف قال الرضى (والأخفش والكوفيون جوزوا رفع الصفة للظواهر على أنه فاعل لها من غير اعتماد على الاستفهام أو النفي نحو قائم الزيدان كما يجيزون في نحو في الدار زيد أن يعمل الظرف بلا اعتماد)^٢

٣ - جواز زيادة من في غير الإيجاب مع المعرفة قال الرضى (وغير الأخفش والكوفيون شرط فيها شرطين كونها في غير الموجب ودخولها في النكرات، والكوفيون والأخفش لا يشترطون ذلك استدلالاً بقرله

(١) راجع المغنى الباب الأول مبحث اللام اللام العاملة للجزم

(٢) شرحه على الكافية باب المبتدأ والخبر، تقسيم المبتدأ

تعالى يغفر لكم من ذنوبكم) ^١
كما تغيرت نزعته البصرية نزعة السماع إلى النزعة الكوفية نزعة
القياس : فعول على قياسه النظري في كثير من المسائل التي لم يأبه فيها
بالهريقين وهالك بعضها منها

من المسائل التي انفرد فيها الأخفش بالقياس
١ - جراز وقورع أن بعد لعل قياساً على ليت قال الزمخشري (وقد
أجاز الأخفش لعل أن زيدا قائم قاسها على ليت) ^٢

٢ - تجويزه رفع المضارع بعد حتى المسبوقه بالنفي قياساً على الإيجاب
واعتبار النفي داخلا على الكلام برمته قال ابن هشام (وأجاز الأخفش
الرفع بعد النفي على أن يكون أصل الكلام إيجاباً ثم أدخلت أداة النفي
على الكلام بأسره لا على ما قبل حتى خاصة الخ) ^٣ قال الدماميني (فكأنه
إنما أجاز بالقياس لا بالسمع) وقد سبق إلى هذا النقل الرضى

٣ - جواز منع الصرف لأفعل الصفة مع قبوله التاء نحو أرمل
قياساً على أحر ، قال الأشموني (وأجاز الأخفش منعه لجريه مجرى أحر
لأنه صفة وعلى وزنه) ^٤

٤ - قياسية مجيء اسم فعل الأمر من الرباعى على فعلا قال الرضى
(وعند الأخفش فعلا أمرأ من الرباعى قياس) ^٥

(١) شرحه على الكافية حروف الجر ، من

(٢) متن المفصل القسم الثالث الحروف ، لعل

(٣) راجع المغنى الباب الاول ، حتى ، الجارة

(٤) شرحه على الالفية لقول الناظم « ووصف أصلى ووزن أفعلا الخ »

(٥) شرح الكافية أسماء الأفعال .

٥ - تصغيره اللاتى واللاتى على لفظهما قال الرضى (وقد صغرها على لفظهما قياساً لاسمائها ، وكان لا يبالى بالقياس في غير المسموع إلخ)^١ وبعد فالمخالفات التي خرج فيها عن الفريقين معتمداً على قياسه النظرى غير متقيد فيها بقانون السماع كثيرة جداً ، ولهذا يقول الرضى (وأجاز الأخفش الكسر أيضاً في « ألم الله » قياساً لاسمائها كما هو عادته في التجرد بقياساته على كلام العرب الذي أكثره مبنى على السماع)^٢ على أنه كان لتحلله من التقليد أثره في آراءه ، فكثير ما كان له في المسألة الواحدة رأيان فصاعداً ، قال ابن جنى (وقد كان أبو الحسن ركاباً لهذا النبيج أخذاً به غير محتشم منه ، وأكثر كلامه في عامة كتبه عليه ، وكنت إذا ألزمت عند أبى على رحمه الله أن أقول لأبى الحسن شيئاً لا بد للنظر من إلزامه إياه ، يقول لى مذاهب أبى الحسن كثيرة إلخ)^٣ له مؤلفات كثيرة منها في النحو المقاييس ، والأوسط ، توفى ببغداد سنة ٢١١ هـ على الأشهر

٢ - قَطْرَب : هو أبو على محمد بن المستنير ، نشأ بالبصرة وتلقى عن عيسى بن عمر وسيدويه وغيرهما إلا أن اتصاله بسيدويه أكثر ، كان كلما خرج سيدويه من بيته سحراً وجدده على بابه فقال له إنما أنت قطرب ليل فأطلق عليه ولصق به ، حذق الجدل والكلام ومال إلى مذهب المعتزلة النظامية ، له تصانيف كثيرة ، منها في النحو كتاب العلل ، وترجمته مستفيضة في كتب الأدب والتراجم والتاريخ ، توفى ببغداد عام ٢٠٦ هـ

(١) شرح الشافية التصغير

(٢) شرح الشافية ، التقاء الساكنين ، الأصل في تحريك أول الساكنين الكسر .

(٣) الخصائص باب (في اللفظين عن المعنى الواحد يردان عن العامل متضادين)

السادسة

١ - الجَرَمي : هو أبو عمر صالح بن إسحق مولى بني جَرم من قبائل اليمن ، نشأ بالبصرة فتعلم عن شيوخها النحو واللغة وسمع من يونس والأخفش الأوسط ولم يلق سيديويه ، وزامله في عصره وتلقيه المازني ، وإليهما انتهت الرياسة النحوية ، وسبق أنهما ذوا الفضل في إظهار الكتاب على يد شيخهما الأخفش ، كان الجرمي أديباً شاعراً ديناً صحيح العقيدة ، وله مناظرة مع الفراء ، ومصنفاته كثيرة ، منها في النحو مختصره المشهور لدعائه له بالبركة ، وكتاب الفرخ (فرخ كتاب سيديويه) ، ورد بغداد وأقام فيها حتى قضى نحبه سنة ٢٢٥ هـ

٢ - التَوَزي : هو أبو محمد عبد الله بن محمد مولى قريش التوزي نسبة لتوز (بلد بفارس) ، أخذ عن الجرمي كتاب سيديويه ، واشتهر باللغة والأدب فكان أعلم بالشعر من المازني والرياشي ، توفي ببغداد سنة ٢٣٨ هـ

٣ - المازني : هو أبو عثمان بكر بن محمد مولى بني سدوس ، ولد بالبصرة وتربى في بني مازن بن شيبان فنسب إليهم ، وأخذ عن أبي عبيدة وأبي زيد والأخفش وغيرهم ، مع مشاركة رفيقه الجرمي ، كما تقدمت الإشارة لذلك ، ومالبت أن صار عالم البصرة الخفاق ، وقال الناس لم يكن بعد سيديويه أعلم من المازني بالنحو ، ساعده على نبوغه قوة بليانه وأدبه ، فكان له الفلج في الحجاج وقد تغلب على الأخفش مع تلقيه عنه ، استقدمه من البصرة أمير المؤمنين هرون الواثق إليه في (سامراً) مقر الخلافة آنذاك لما أنشد مخارق قول الحرث بن خالد الخزومي

أظلم إن مصابكم رجلاً أهدى السلام تحية ظلم^١
 بنصب رجل ، ورأى علماء الكوفة حوله رفعه مع تمسك مخارق
 بانشاده رواية عن المازني ، فلما قدم المازني أوجب النصب مدلاً عليه
 في حديث طويل ، فأصاب نجحاً عظيماً عند الواصل ، ثم حمله الواصل على
 اختبار العلماء فوقفوا من المازني على علم جم ، ورغبه الواصل في البقاء فاعتذر
 وعاد أدراجه إلى البصرة مرعى الجانب من الواصل ثم من أخيه المتوكل
 بعده ، والمازني على طول باعه أبي التصنيف في النحو إذ كان يقول الحكامة
 المتقدمة في كتاب سيديويه (من أراد أن يصنف كتاباً واسعاً في النحو
 بعد كتاب سيديويه فليستحي) نعم ألف كتاباً في علل النحو ، وكتاب
 التصريف ، وله كتب أخرى في غير النحو ، ومن شعره

شيثان يعجز ذو الرياضة عنهما رأى النساء وإمرة الصبيان

أما النساء فانهن عواهر وأخو الصبا يجري بكل عنان

توفي رحمه الله بالبصرة سنة ٢٤٩ هـ على الأشهر

٤ - أبو حاتم السجستاني : هو سهل بن محمد نشأ بالبصرة وأخذ
 عن أبي زيد والأصمعي وأبي عبيدة ، وقرأ كتاب سيديويه مرتين على
 الأخفش ثم نبه شأنه فانتفع الناس بدراسته إلا أنه لم يكن حاذقاً بالنحو ،
 له مصنفات مختلفة منها إعراب القرآن ، وكتاب الادغام توفي سنة ٢٥٠ هـ

(١) البيت المذكور من شواهد النجاة في المصدر المسمى ، وحادثته مع ما نجم عنها
 من الحظوة عند الخليفة مفصلة في الاغانى أخبار الحرث ، وفي المغنى الباب الخامس
 آخر الجهة الاولى ، وفي وفيات الاعيان ، وكذلك معجم الادباء ترجمة المازني مع
 تفصيل الاسئلة التي وجهها المازني ، ونقل كل ذلك في شرح درة الغواص عند الوهم ٦٠

٥ - الرياشي هو أبو الفضل العباس بن الفرّج مولى محمد بن سليمان الهاشمي ، ولقب بالرياشي لأن أباه كان عبداً لرجل من جذام اسمه رياش فانتقل اللقب من أبيه بعد الشهرة إليه ، نشأ بالبصرة وأخذ النحو عن المازني وسمع منه كتاب سيبويه ، واللغة عن الأصمعي ، ثم صار من كتاب النحاة والافويين ، له تصانيف ليست منها كتب نحو ، قتل وهو يصلي الصبح قائماً في الفتنة المشؤومة (موقعة الزنج) بالبصرة سنة ٢٥٧ هـ

السابعة

١ - المبرد هو أبو العباس محمد بن يزيد من بني ثماله (بطن من أزد شنوءة) ولد بالبصرة وأخذ عن الجرمي والمازني وأبي حاتم وغيرهم إلا أن أغلب تلقيه عن المازني ، ثم نبه قدره في البصرة وانتهت إليه الرياسة حتى قال الناس ما رأى محمد بن يزيد مثله نفسه ، فأما سبب تلقيبه بالمبرد فقال ياقوت (وإنما لقب بالمبرد لأنه لما صنف المازني كتاب الالف واللام سأله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب ، فقال له المازني قم فأنت المبرد « المثبت للحق » خرفه الكوفيون وفتحوا الراء) ، آراؤه في النحو مستفيضة في الكتب . كان غير متقيد برأي المذهبين البصري والكوفي متى بدا له رأي آخر ، فمن ذلك على سبيل التمثيل منعه تقديم خبر ليس عليها قال ابن جني (وذلك كانكار أبي العباس جواز تقديم خبر ليس عليها فأحد ما يحتاج به عليه أن يقال له إجازة هذا مذهب سيبويه وأبي الحسن وأصحابنا كافة ، والكوفيون أيضاً معنا ، فإذا كانت إجازة ذلك مذهباً لكافة من البلدين وجب عليك يا أبا العباس أن تنفر عن خلافه إلخ)^١

(١) الخصائص باب (في الاحتجاج بقول الخالف) ج ١ ص ١٩٦

ومن آراءه الغريبة تجويزه ظهور كان بعد أما في نحواً ما أنت منطلقاً انطلقت
قال الرضى (وأجاز المبرد ظهور كان على أن ما زائدة لا عوض ولا يستند ذلك
إلى سماع) كما أنه كان كثيراً ما يخطئ بعض الأساليب لسعة أفقه في الإطلاع،
فمن ذلك على سبيل المثال إنكاره وقوع الضمير المتصل بعد لولا، مثل
لولاى ولولاك ولولاه ونحوها، فقد ذكر بعد كلام رد به تخريجى
سيبويه والأخفش لها ما نصه (والذى أقوله إن هذا خطأ لا يصلح إلا
أن تقول لولا أنت كما قال الله عز وجل: لولا أنتم لكننا مؤمنين) ،
وتعقبه لسيبويه مشهور، وقد ذكرنا شيئاً منه فى الكلام على الكتاب
استشرفت نفسه بغداد فاتصل بالخلفاء والأمراء ينافس ثعلباً إمام
الكوفيين ذا المكانة فى بغداد ف وقعت بينهما العداوة والبغضاء، بلغه
يوماً أن ثعلباً نال منه فقال فى ذلك مغيضاً

رب من يعنيه حالى وهو لا يجرى ببالى
قلبه ملآن منى وفؤادى منه خالى

وجرت بينهما مناظرات تكلمنا على واحدة منها سابقاً ظفر فيها
ثعلب، ودام النفور بين الإمامين حتى لقي المبرد ربه فرثاه ثعلب، ولقد
خلف مصنفات فى علوم متنوعة برهنت على أدبه الجم وعلمه الغزير.
منها فى النحو والمقتضب، وشرح شواهد سيبويه والرد عليه، وله فى تاريخ
النحاة طبقات النحويين البصريين وأخبارهم، وقد نوهنا فى كلمة سابقة
عن كتابه الكامل، والتعريف الكافى عنه يتطلب بسطاً لا يسعه المقام، وترجمته
مبسوطة فى كتب الأدب والتراجم والتاريخ توفى ببغداد سنة ٢٨٥ هـ

(١) راجع الكامل مع الرغبة ج ٨ ص ٤٩ والكلام مسنوفى فى الخزانة شاهد ٣٩٥

طبقات الكوفيين

الأولى

١ - الرؤاسي هو أبو جعفر محمد بن الحسن ، مولى محمد بن كعب القرظي ، لقب بالرؤاسي لكبر رأسه ، نشأ بالكوفة وورد البصرة فأخذ عن أبي عمرو بن العلاء وغيره من علماء الطبقة الثانية البصرية ، ثم قفل إلى الكوفة واشتغل فيها بالنحو مع عمه معاذ وغيره ، فتكونت الطبقة الأولى الكوفية ، ثم صنف كتابه (الفیصل) في النحو ، وقد مر في الكلام على الطور الثاني أن الخليل يبعث إلى الرؤاسي يطلبه فأرسله إليه ، وأن سيديويه نقل في كتابه عنه كما نقل عن البصريين غير أنه كان يقول عنه (وقال الكوفي) دون تصریح باسمه ، فألى الرؤاسي يرجع بدء النحو في الكوفة دراسة وتأليفاً فهو رأس الطبقة الأولى الكوفية ، وكتابه أول مؤلف في النحو بالكوفة ، توفي بالكوفة في عهد الرشيد .

٢ - معاذ الهراء : هو أبو مسلم ، لقب بالهراء لبيعته الثياب الهروية وهو عم الرؤاسي ومولى القرظي أيضاً ، أقام بالكوفة واشتغل مع ابن أخيه في النحو غير أن ولوعه بالأبنية غاب عليه حتى عده المؤرخون واضع الصرف ، ولم يوقف له على مصنف ، عمر طويلاً وتوفي عام نكبة البرامكة سنة ١٨٧ هـ .

الثانية

١ - الكسائي : هو أبو الحسن علي بن حمزة مولى بني أسد فارسي الأصل ، سئل عن تلقيبه بالكسائي فقال (لأنني أحرمت في كساء) وقيل في السبب غير هذا ، نشأ بالكوفة وتعلم النحو على كبر ، ذلك لانه

حدث قوما من الهبّاريين لحنوه فعز على نفسه وطفق يتعلم النحو ، فأخذ
عن معاذ الهراء ما عنده ثم توجه تلقاء البصرة فتلقى عن عيسى بن عمر
والخليل وغيرهما ولما أعجب بالخليل قال له من أين أخذت علمك هذا ؟
قال من بوادي الحجاز ونجد وتهامة ، فجاب هذه الوادي وقضى وطره ثم انحدر
إلى البصرة فألقى الخليل قضى نحبه وخلفه يونس فجلس في حلقة ومرت بينهم ما
مسائل اعترف له يونس بها ، من ذلك ما قال المبرد (و يروى أن يونس
ابن حبيب قال لابي الحسن الكسائي كيف تنشد بيت الفرزدق فأنشده
غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصّين عبيطات السدائف والخمر
فقال الكسائي لما قال غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصّين عبيطات
السدائف تم الكلام ، فحمل الخمر على المعنى أراد وحلت له الخمر فقال له
ما أحسن ما قلت)^١

ثم عاد إلى الكوفة ينشر علمه ، والكوفة متعطشة إلى نحو مضارع
نحو البصرة ، وفي الكسائي نشاط في الدراسة والتصنيف فتقوى المذهب
الكوفي وبدأ يناهض البصري على يد الكسائي الذي دوى ذكره حتى
وصل مسمع أمير المؤمنين المهدي في بغداد ، فاستقدمه لحادثه خاصة ورأى
فيه عالما خريتا لقينا ، فاستبقاه في بغداد وضمه إلى حاشية ابنه الرشيد قاحتضنه
الرشيد بعد الخلافة ليؤدب ولديه الأمين والمأمون ، ثم صعد به جده وصار
من الجلوساء المؤانسين ، ومن هنا ساد المذهب الكوفي وتكاثر أتباعه وعز
علمائوه ، فعز على علماء البصرة شأنهم وجاءوا بغداد يناهضونهم فكانت

(١) راجع الكامل مع الرغبة ج ٤ ص ٥٩ وما بعدها ، ومثل ذلك في شرح

الفصل لابن بعيش ج ١ ص ٣٢ ، ج ٨ ص ٧٠

المناظرات الماضية ، وكان الكسائي ذا تدَرَه الكوفيين في أغلبها ، له مصنفات كثيرة ، منها في النحو مختصر . وعلى يد الكسائي تكاثرت الفوارق بين المذهبين لاختلاف الاتجاهين ، وسنعتقد مبحثاً خاصاً تفصل ذلك فيه بمشيئة الله تعالى ، وأخباره ذائعة مشهورة ، وبقي الكسائي أثيراً عند الرشيد حتى توفي بالري سنة ١٨٩ هـ

الثالثة

- ١ - الأحمر . هو أبو الحسن علي بن الحسن المعروف بالأحمر ، كان جندياً من رجال النوبة على باب الرشيد ، ثم سمت نفسه إلى العلم فكان يترصد في الطريق الكسائي عند حضوره للرشيد ويسير في ركابه ومحاشيته جيئةً وذهاباً يستفيد منه المسألة بعد الأخرى حتى عد في أصحاب الكسائي ، فلما أصيب الكسائي بالوَضَح وكره الرشيد ملازمته أولاده فأشار عليه باختيار نائب عنه ، فاستخلف الأحمر لبقاء على مجده واطمئناناً منه على خضوع الأحمر له وعاهد الأحمر على أن يلقنه يوماً فيوما ما يؤدب به أولاد الخليفة ، وكان الأحمر يقظاً فطناً فأجاد التعلم والتعليم حتى بز أصحاب الكسائي وتبوأ مكانته ونعم برُفْقانية العيش ، وقد أملى شواهد نحوية ، واجتمع عليه الناس ، وصنف كتاب التصريف ، ومات بطريق الحج سنة ١٩٤ هـ
- ٢ - الفراء . هو أبو زكريا يحيى بن زياد مولى بني أسد لقب بالفراء (لأنه كان يفرى الكلام) ، ولد بالكوفة من أصل فارسي وتلقى عن الكسائي وغيره وتبحر في علوم متنوعة ، فكان فذاً في معرفة أيام العرب وأخبارها وأشعارها والطب والفلسفة والنجوم ، وتقصى أطراف علم النحو حتى قيل فيه (الفراء أمير المؤمنين في النحو) وهو الذي قال (أموت

وفي نفسى شيء من حتى لأنها ترفع وتنصب وتخفض) ، طمع في نوال الخلفاء فأنحدر إلى بغداد ولج في الاتصال بالمأمون حتى وصله ثمانية بن أشرس ، فخطه الخليفة برعايته ورغب إليه أن يؤدب ابنه كما اقترح عليه أن يؤلف كتاباً يجمع أصول النحو وهياً له داراً خاصة فيها وسائل النعيم متكاملة ، فأخرج له كتاب (الحدود) بعد سنتين ، وما زال الفراء وجهياً عند المأمون مغبوط المنزلة بين الأمة يؤلف ويفيض علمه حتى توفي سنة ٢٠٧ هـ في طريق مكة .

٣ - اللحياني . هو أبو الحسن علي بن المبارك من بني لحيان ، أخذ عن الكسائي وغيره ، وله كتاب النوادر ، توفي سنة ٢٢٠ هـ .

الرابعة

١ - ابن سعدان . هو أبو جعفر الضير محمد بن سعدان ، نشأ بالكوفة ، وأخذ عن أبي معاوية الضير وغيره ثم اشتهر بالعربية والقراءات ، صنف كتاباً في النحو وتوفي سنة ٢٣١ هـ .

٢ - الطوال . هو أبو عبد الله محمد بن أحمد نشأ بالكوفة ، وسمع من الكسائي وغيره ، وقدم بغداد ، مات سنة ٢٤٣ هـ .

٣ - ابن السكيت . هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ، لقب أبوه بالسكيت لطول سكوته ، نشأ ببغداد وسمع من الفراء وغيره ونبغ في النحو وغيره من علوم العربية ومصنفاته كثيرة ، منها كتاب القلب والابدال ، وفعل وأفعل ، وإصلاح المنطق ، والألفاظ ، خرج إلى سامراً فاتخذ المتوكل مؤدب ولديه المعتز والمؤيد ، ولشهرته بالتشجيع مسألة المتوكل يوماً أيما أحب إليك أبنائ أم الحسن والحسين ؟ فأجاب به بما أغضبه ، فأمر

الأثر الك فسلوا لسانه وداسوا بطنه ، فمات سنة ٢٤٣ هـ
 ٤ - ابن قادم . هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن قادم أخذ عن الفراء
 وحذق النحو وتعليله ، واتصل بالعباسيين فأدب المعتز قبل الخلافة ،
 وله مؤلفات منها في النحو السكافي ، والمختصر ، توفي ببغداد سنة ٢٥١ هـ

الخامسة

١ - ثعلب . هو أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب مولى
 بنى شيبان ، ولد ببغداد في عصرها الذهبي وتلقى عن ابن الأعرابي وابن
 سلام وابن قادم والجمحي وسلمة ابن عاصم وغيرهم ، غير أنه كان للنحو من
 بين علوم اللغة العربية النصيب الأوفى من عنايته ، واعتماده فيه كان على
 سلمة بن عاصم ، وهبه الله حافظه واعية مكنته أن يستظهر ما يقرأه حفظ
 كتب السكاسائي والفراء ، واستطاع أن يقرأ بنفسه كتاب سيبويه فزعم
 رئاسة النحو للكوفيين إلا أنه كان لا يحبذ القياس ، اتصل بالخلفاء
 والأمراء كأسلافه الكوفيين فأدب ابن المعتز وابن طاهر ، وجمعت ببغداد
 بينه وبين أبي العباس المبرد زعيم البصريين الذي نافسه شرف الرئاسة
 العلمية والزلفى عند الخلفاء والأمراء فكانت بينهما مناظرات ذكرنا سابقاً
 واحدة منها فاز فيها ثعلب ، ولكل منهما شيعته وحزبه وسعى بينهما
 القتاتون ، وكان المبرد يتطلب لثعلب كثيراً فيراوغه ويتكأ عن
 إجابته . ولثعلب مجالسة مع الرياشي سلفت أيضاً ، وله نادرة طريفة تتعرف منها
 نقاسة علم النحو وأنه أحرى العلوم كلها بالرعاية رأيت إرجاءها الآن لتسكون
 مسك الختام لهذا الكتاب ، له رحمة الله عليه مصنفات شتى ، منها في النحو
 اختلاف النحويين ، والموفق وما ينصرف وما لا ينصرف ، وحدث النحو ، وأخباره

مفصلة في كتب الادب والتراجم والتاريخ ، وكانت وفاته ببغداد من
صدمة دابة له في الطريق لم يسمع وقع حوافرها وراءه لصممه سنة ٢٩١ هـ

أسباب الاختلاف بين البصريين والكوفيين

إقليم العراق العربي من أسبق الأقاليم مدنية وعمرانا لخصب تربته
ووفرة مياهه واعتدال جوده ، تعاقبت عليه قديما متعصر والامم من البابليين
والاشوريين والفرس ، كما انحدر اليه العرب من بكر وربيعة وكانت منهم
إمارة المناذرة بالحيرة ، ولما أشرقت عليه شمس الاسلام في عهد أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنشأ فيه المسلمون البصرة سنة ١٥ هـ ثم
الكوفة بعدها بستة أشهر على أصح الروايات ، وسرعان ما ازدهر
البلدان وتحولت إليهما حضارة بابل والحيرة وهوت إليهما أفئدة من
المسلمين وزخراً بالعلماء والقواد وتقاسما مدينة العراق ، حتى كان إذا قيل
العراق فعناه البصرة والكوفة وكانوا يطلقون أحيانا عليهما العراقيين
ومع أن البلدين يضمهما سياج العراق فقد غرست النزعة السياسية
بينهما بذرة الضغن لما هبط على كرم الله وجهه الكوفة واتخذها مقر خلافته
وقدمت أم المؤمنين عائشة البصرة على رأس جيش فيه طلحة والزبير طلبا
لنار عثمان رضي الله عنه ، فكانت موقعة « الجمل » المعروفة بينهما موقعة بين
البلدين ، ولعل السر في مجاوزة الامام علي البصرة مع أنها على حرف البادية
وتكبدته مشاق السفر إلى الكوفة مع توغلها في العراق ما عرف عن
الكوفة من ميل أهلها إلى الطاعة ديانة دون البصرة التي اشتهر أهلها
بالعصيان والشقاق والعصبية ، واكثره اليمنيين بها المخلصين للهاشميين

المصدورين من القرشيين ، ومن حين هذه الموقعة اختلف هواها بالبصرة
عثمانية والكوفة علوية ، وازداد هذا الاختلاف بتعاقب الايام قال أعشى
همدان عبد الرحمن — على لسان الكوفة

فاذا فاخرتمونا فاذكروا مافعلنا بكم يوم الجمل
جاءت دولة بن أمية فكان ضالعها مع البصرة التي ظاهرتها وناصرتها ،
والكوفة على تبرم وحنق مستجنين في قلبها بضغط الأمويين عليها ،
وفي الدولة قسوة ورجالها صرامة ، ثم قامت الدولة العباسية على أنقاضها
وكان مبدأ ظهورها في الكوفة ، فأن أبا العباس السفاح أول خالفائها إنما
تمت له البيعة فيها بفضل تشيعها ومظاهرتها للهاشميين ، ولقد حفظ
العباسيون لها تلك الصنيعة وعطفوا عليها وكافئوها ، فانقلب الأمر في البلدين ،
وعزت الكوفة بعد ذل وأفل نجم البصرة بعد تألق (وتلك الايام نداؤها
بين الناس) .

كل ذلك مما أوسع شقة الخلاف بين البلدين حتى تألب كل على الآخر
وقلب له ظهر المجن وفي كتاب (البلدان) لأبي عبد الله أحمد بن محمد
الهمداني المعروف بابن الفقيه الشيء الكثير مما تراميا به من الأقوال وتباريا
فيه من المفاخرات — نسوق هذا لتعرف متى ولد سبب الاختلاف الذي
جرهما إلى تطاول بعضهما على بعض ، وحبب اليهما إثارة المخالفة في المسائل
العلمية على الموافقة فيها ، إذما بدأت المنافسة العلمية النحوية بينهما إلا بعد
أن عملت عوامل الخلاف عملها ، ووضعت السدود الحصينة التي تحول دون
الوفاق بينهما وتسلمت الأثرة عليهما .

(١) البيت من قصيدة له راجع الأغاني أخبار أعشى همدان ج ٦ ص ٥٥

وكان ذلك كما سبق في أول الطور الثاني على عهد الخليل والرؤاسي
بعد اجتماعهما أولاً في الأخذ عن الطبقة الثانية البصرية ، بعد تكوين
هذا الفن ونشوته في البصرة .

المذهب البصري

لقد كان من حسن الحظ للنحو أن كانت البصرة مولده وهداه لأنها
اختصت بما حرمته الكوفة التي ناهضتها بعد — ذلك .
أولاً — أن العرب النازحين إليها من القبائل العريقة في اللغة الفصحى
استطابوها فاتخذوها دارهم وأكثرهم من قيس وتميم الذين بقوا على عربيتهم
ثانياً — أنه كان على كثب منهم (المربد) الذي قد اتخذ العرب
سوقاً في الجهة الغربية منها مما يلي البادية بينه وبينها نحو ثلاثة أميال ،
يقضون فيه شئونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه ، وقد صارت
هذه السوق في الاسلام صورة معدلة لعكاظ الجاهلية ، فكانت فيه
النوادي الأدبية والمجامع الثقافية ، تألفت فيه حلقات الانشاد والمفاخرة
والمناظرة والمعاظمة ومجالس العلم والأدب ، فكان الشعراء يؤمونهم ومعهم
رواتهم ، وكانت لفحولهم حلقات خاصة فيه ، قال الأصفهاني (وكان لراعي
الابل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها)^١
كما كان العلماء والأدباء والأشراف ينزلون فيه للمذاكرة والرواية والوقوف
على ملاح الاخبار ، واللغويون يأخذون عن أهلها ويدونون ما يسمعون ،
والنحويون يسمعون فيه ما يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم . وكثيراً
ما نجد التنويه عنه في تراجم النحاة واللغويين .

(١) راجع الأغاني أخبار جرير ج ٨ ص ٢٩ طبع الدار

ثالثاً - موقعها الجغرافي فإنها على طرف البادية مما يلي العراق وأدنى المدن إلى العرب الأقحاح الذين لم تلوث لغتهم بعامية الامصار ، فعلى مقربة منها بوادي نجد غرباً والبحرين جنوباً ، والأعراب تفد اليهم منهما ومن داخل الجزيرة العربية بكثرة . كل أولئك يسر لعلماء البصرة حينما قاموا بتدوين القواعد أن يجدوا طلبتهم وينالوا رغبتهم ، ففي هذه الثلاثة مدد من اللسان العربي الفصيح لا ينفد ، وهم في بصرتهم مقيمون لا يتجشمون بعدئذ أسفاراً ولا يجوبون قفاراً ، إذ لم تشتد الحاجة أولاً للرحلة في مدى الطبقتين الأوليين من طبقاتهم ، لأنهم لما يبالغوا الغاية في تجريد القياس وتعميل النحو وتفريعه ولم تضطرب الروايات في هذا الحين ، ومادة اللغة قوية .

ولا ريب أن نشوء النحو بالبصرة إنما كان تلبية لداعي المحافظة على صيانة اللغة العربية مما نزل بها منذراً بالخطر المدهم الذي لو ترك وشأنه لدرجت كما درج غيرها من اللغات ، كما كان واجباً على من دخل في الاسلام من غير أبناء العرب أن يتعلمه ليعترف لغة القوم الذين صار منهم حتى يتم الاندماج بينهما وتستحكم أوامر الوحدة فيهما «إنما المؤمنون إخوة» ، والفضل في ذلك راجع إلى أبي الاسود الذي توطنها مع تشييعه للعلويين ومناوأة البصريين للعلويين وشييعتهم ، إلا أن سلطان هذا العلم استراهم فأقبلوا اليه يزفون وتحلقوا حوله وتدارسوا مسائله حباً في المعرفة لذات المعرفة ورغبة في العلم لذاته غير طامعين في مغنم أو حريصين على شيء من عظام الدنيا ، وأغلبهم من الموالي الذين سعد بهم هذا العلم منذ بزغ فجره لأنهم من أمم مرنت على مزاوله العلوم والفنون بحسب لغاتها ، فشدوا عضد أبي الاسود في التدوين وكانوا له خير معين .

كان لتعاون تلك البيئة التي تموج بمختلف العرب الذين يمثلون أغلب القبائل المعترف بينهم بسلامة سلائقها كما كانت تعج بالرواد والحفظة والنقمة وهذا الداعي العلمي الخالص - الاثر الطيب في سلوك البصريين في قواعدهم ونظمهم العلمي ، فحولهم الاساليب العربية متوافرة تجود لهم بشواهد القواعد دون مجهود يلحقهم ولا منافس لهم يستعجلهم ويقطع عاينهم ساسلة الاستقراء حتى ينقوا بما يدونون متتدين مطمئنين إلا شيء واحد ، ذلك هو منادى العلم المحض ، فكان لزاما لذلك أنه لم تدون قواعدهم إلا مدعومة على عناصر ثلاثة :

١ - سلامة من أخذوا عنه من العرب المقطوع بعراقتهم في العروبة وصونهم فطريهم من تسرب الوهن إليها من رطانة الحضارة حتى لم يأخذوا إلا عن سكان البوادي ، بل كانوا يتجرزون عنهم إذا لحوا عليهم ضعفا اعتراهم ، فكانوا يختبرونهم أحيانا قبل التقبل لما يروون عنهم قال ابن جني (ومن ذلك ما يحكى أن أبا عمرو استضعف فصاحة أبي خيرة لما سأله فقال كيف تقول استأصل الله عرقاتهم ففتح أبو خيرة التاء فقال له أبو عمرو هيهمات أبا خيرة لان جلدك)^١

٢ - والنقمة برواية ماسمعه عنهم من طريق الحفظة والاثبات الذين بذلوا النفس والنفيس في نقل الرويات عن قائلها معزوة إليهم

٣ - والكثرة الفياضة من هذا المسموع التي تخول لهم القطع بنظائره وتسلمهم إلى الاطمئنان عليه في نوط القواعد به ، وإلا اعتبروه مرويا

(١) الخصائص ج ١ ص ٤١٣ ، وأبو عمرو وهو أبو عمرو بن العلاء ، وأبو خيرة هو نهشل بن يزيد راجع هذه الحكاية في ترجمة أبي عمرو في نزهة الألبا

العرب) فأجهده هؤلاء العلماء أنفسهم وشرقوا وغربوا وتحملوا ذلك
الشهور والأعوام وما بالوا ما نالهم من نصب أو محنة تفانياً في التثبت
بأنفسهم من سلامة ما يروون عن العرب فشافهم في أوديتهم وسمعوا
منهم في أخبيتهم ومراعيهم وأسواقهم ومجتمعاتهم، وقد موالى العلم خدمة
جلي وبدا لا تنسى. فمن هؤلاء أخذت علوم العربية وفي أيامهم دونت،
وجعل ما في أيدي الناس منها إنما كان بفضلهم، سأل السكسائي الخليل من
أين أخذت علمك؟ فقال من بوادي نجد والحجاز وتهامة ويقول الأصمعي
(سمعت صبية بحمي ضريبة تراجزون فوقفت وصدوني عن حاجتي وأقبلت
أكتب ما أسمع فأقبل شيخ فقال أكتب كلام هؤلاء الأقزام الأدناع)^١
وما زالت الرحلة للجزيرة العربية سنة متبعة عند العلماء إلى أواسط
القرن الرابع، ثم فسدت سلائق العرب فيها، فاكتفى العلماء بآثار أسلافهم
التي حوتها الكتب، وإنما كان العلماء بعد ذلك يسألون بعض الأعراب
المتوسمين بشيء من جفاء البادية ممن لم تنسخ فيهم الفطرة نسخاً ليستريحوا
إلى ذلك لالياخذوا به وهذا بالنسبة إلى البادية، أما الحضرة فضعفت الثقة
بشعرائه من منتصف القرن الثاني تقريباً يقول الأصمعي (ختم الشعراء
بابن هرمة والحكم الخضرى وابن ميادة وطفيل الكنانى ومكين العذرى)^٢
بالغ البصريون في التحرى والتنقيب عن الشواهد السليمة، وأبلوا
في ذلك ما شهد لهم به الدهر، فتجافوا عن كل شاهد منحول ومفتعل.
وآية ذلك أول كتاب لهم وهو كتاب سيبويه، وقد اعترفت له شهادة العلماء

(١) المزهرة النوع السادس، ضريبة بلدة، والأقزام القصار، والأدناع السفلة

(٢) راجع ترجمة ابن هرمة في الشعر والشعراء، وفي الأغاني

فيه من شيوخه وأترابه والذين بعده ، فكانت أقيستهم وقواعدهم قريبة
الصحة لكفالة مقدماتها بسلامتها ، فلا غرابة بعدئذ أن جعلوها الحكم بينهم
فيما يرد من الكلام غير مكترئين بما جاء مخالفاً لها مما لا ظهير له ولا مثيل
في كثرة الاستعمال والتداول - فهم بعدئذ أمامه إما أن يؤولوه تأويلاً يتفق
وقواعدهم وإما أن يستنكروه لكثرة ما اندس من الرواة وذوى الأهواء
في اللغة وإما أن يتلمسوا الضرورة إذا كان في نظم - فإن اعتصم كل ذلك
عليهم فأنهم يضطرون إلى جعله جزئياً شاذاً يوضع في صف المحفوظات التي
لا يقاس عليها ، وفي كتب النحو ما يتفق على كل هذا ، ولنضرب لك
بعض أمثلة مما ورد مخالفاً لأقيستهم فتخلصوا منها بمثل ذلك قضت أقيستهم
١ - ألا يعمل الوصف إلا معتمداً على نفي ، أو استفهام ، أو موصوف

ولو معنى لفظاً أو تقديراً ، فيرد عليهم قول الطائي .
خبير بنو لهب فلانك مانعيا متالة لهي إذا الطير مرت
فيؤولونه بأن الوصف خبر مقدم والمطابقة على حد « والملائكة
بعد ذلك ظهير » .

٢ - وجوب تذكير الفعل مع جمع المذكر السالم وتأنيثه مع المؤنث
السالم ، فيرد عليهم فيها (آمنت به بنو اسرائيل) وقول عبدة بن الطبيب
فبكي بناتي مشجوهن وزوجتي والظاعنون إلى ثم تصدعوا^١
فيتخلصون بأن هذين الجمعين لم يسلم فيهما نظم الواحد فكانا
كجمعي التكسير .

٣ - عدم نيابة الظرف أو الجار والمجرور أو المصدر عن الفاعل مع

وجود المفعول به فيرد عليهم (ليُجزى قوما بما كانوا يكسبون) وقول جرير

ولو ولدت قفيرة جرو كلب لسب بذلك الجرو الكلابا^١

فيقولون النائب في الآية ضمير الغفران ، والبيت ضرورة ، وغير هذا

٤ - وجوب تنكير التمييز فيعترض عليهم بقول رشيد اليشكري

رأيتك لما أن عرفت وجوهنا صددت وطبت النفس يا قيس عن عمرو

فلا يجدون إلا الضرورة

٥ - عدم جواز تأكيد النكرة فيرد عليهم قول عبد الله بن مسلم الهذلي

لكنه ساقه أن قيل ذا رجب ياليت عدة حول كله رجبا^٢

فيقولون الرواية عدة حولي ، أو للضرورة

٦ - عدم إظهار أن بعدى فيعترض عليهم بقول الشاعر

أردت لك بما أن تطير بقر بني فتركها شنا ببيداء بقلع^٣

فيقولون لا يعرف قائله ، أو لضرورة الشعر ، أو غير ذلك

٧ - عدم عمل أن محذوفة في غير مواطنها المعروفة فيرد عليهم .

خذ اللص قبل يأخذك ، وتسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، وأمثال هذا

فيقولون إن ذلك شاذ يحفظ ولا يجارى في الاستعمال

كل ذلك إنما سرى لهم من التعويل على قواعدهم ، بل لقد باغ بهم

(١) قفيرة أم جد الفرزدق ، والبيت من شواهد الرضى راجع الخزانة شاهد

٥١ ومن القصيدة المشهورة

(٢) البيت من قصيدة في معجم البلدان « أحزاب » ، وفي رغبة الآمل

على الكامل ج ٧ ص ٢١٤ وما بعدها .

(٣) البيت من شواهد شرح المفصل والرضى راجع الخزانة شاهد ٦٥٣

الاعتزاز بها إلى الاعتراض على العربي المطبق على الاستشهاد بقوله
كما رأيت فيما تقدم من اعتراض ابن أبي اسحق على الفرزدق - وأغرب من
ذلك تعقب تلميذه عيسى بن عمر قول النابغة .

فبت كاني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع^١
إذ قال قد أساء النابغة إنما هو ناقما - وقد خطأ الأصمعي وأبو عمرو
ذا الرمة في قوله :

حراجيج ما تنفك إلا مناة على الخسف أو نرمي بها بالدا فقرا^٢
لأن أفعال الاستمرار بمعنى الإيجاب فلا يصح الاستثناء في خبرها
ويقول سيديويه (واعلم أن أناساً من العرب يغلطون فيقولون إنهم
أجمعون ذاهبون وإنك وزيد ذاهبان)^٣

صنجر الشعراء من النجاة ، ولهذا قال عمار الكابي لما عيب عليه
بيت من شعره

- (١) البيت من شواهد سيديويه ج ١ ص ٢٦١ والمغنى الباب الخامس الجهة
السادسة النوع الثاني ، والبيت من قصيدة مشروحة في خزانة الأدب شاهد ١٥٥
(٢) ذكر التخطئة الزخشرى في المفصل ، والرضى على الكافية راجع
الخزانة شاهد ٧٣٦ ، والمغنى مبحث « إلا » ، والبيت من شواهد سيديويه على رفع
(نرمي) ج ١ ص ٤٢٨ ، وهو من قصيدة يقال لها أحجية العرب
(٣) راجع الكتاب ج ١ ص ٢٩٠ وقد نقاهما بنصها الزخشرى في المفصل مبحث
الحروف المشبهة بالفعل ، وكذا ابن مالك ، لكن ابن هشام حمل الغلط في كلام
سيديويه على التوهم وقد فهم ابن مالك الغلط على ظاهره راجع المغنى الباب الرابع
أقسام العطف العطف على التوهم عطف المرفوع

ماذا لقينا من المستعربين ومن قياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا^١
 و مرجع هذه النزعة الى عيسى بن عمر وشيخه ابن أبي اسحاق من
 متقدمي البصريين ، دون غيرها من معاصريهما ، فان يونس بن حبيب
 وشيخه أبا عمرو كانا يتحرزان عن تخطئة العربي ويعتمدان قوله وإن
 خالف القياس ، وقد غلبت النزعة الأولى الثانية على البصريين بعد سيديويه
 وصارت لهم منهاجا ، وانتقلت الثانية إلى الكوفيين ، ثم اتخذوها إحدى
 دعائم القواعد كما ترى .

المذهب الكوفي

لقد عرفت أن الكوفيين تأخروا عن البصريين في هذا العلم حقبة طويلة ،
 وذلك لانصرافهم أولا عن التلقى عنهم ربما بأنفسهم عن الأخذ منهم ،
 وماعتموا أن شغلهم الشعر ورواياته والأدب وطرائفه ، فاستأثروا به - هذا
 وتنفلوا به على البصريين مدة طويلة لم يشاركوا فيها البصريين النظر
 إلى علم النحو .

تنبه الكوفيون بعدئذ وصحوا من سباتهم وأرادوا مساهمة البصريين
 فيه بعد أن عرفوه منهم وشق عليهم أن تماع شخصيتهم في البصريين إن
 لم يكن لهم نحو خاص وبينهما ما بينهما من دواغل وإلحاح ، دعاهم ذلك
 إلى تنظيم نحوهم على نمط خاص لا ينتحون فيه اتجاه البصريين ، ولديهم

(١) مطلع قصيدة في الخصائص باب « في أن العرب قد أرادت من العمل
 والأغراض الخ » ج ١ ص ٢٤٨ ، وفي معجم الأدباء ترجمة ابن جني مع ذكر
 البيت المعبى ، وفي فضائل خراسان أخبار الأَخفش

في معتقدتهم من الوسائل ما يهيء لهم نيل مأمولهم ، فاستمعوا من الأعراب
 النادرين بالكوفة ، وقد كانوا أقل عدداً وأضعف فصاحة ممن كانوا
 بالبصرة وإن كان منهم لفيث من بني أسد وغيرهم إلا أن أغلبهم اليمانون ،
 وأهل اليمن في عين أهل التخصيص ممن لا يستند إليهم ، خلاطهم الحبشة
 والهند والتجار الذين يفدون إليهم من مختلف الأمصار ، ولم تقم سوق
 (الكُنَاسَة) بالكوفة التي كانوا يرتفقون منها حاجتهم مقام (المربد)
 بالبصرة مهبط الشعراء والخطباء من العرب المياسير والأعراب العُفُف
 المنتجبين للأرزاق

هذا مع قُصُودهم عن جزيرة العرب ينبوع معين هذا العلم ، وحيلولة
 صحراء السماوة بينهم وبينها ، فلم تكن لهم فيها إلا رحلات قليلة لبعـد
 الشقة وثقل المؤونة كرحلة الكسائي المعروفة وهو زعيم طبقتهم الثانية
 التي تحاذي الرابعة البصرية ، أما طبقتهم الأولى فلم تكن لها رحلات ، على
 حين أن الطبقة الثالثة البصرية التي تقابلها أبليت في الرحلات بلاء حسنا
 عاد على اللغة العربية بالآثر الذي لا يبلى .

على أنه لم يقف ذلك دون رواج الشعر فيما بينهم ، والشعر على كل
 حال ذو النصيب الأوفى في تدوين القوائد بعد كتاب الله تعالى وسنة
 رسوله لتماسكه ومصابرته لأحداث الزمان ، بل قد فاقوا البعريين في علمه
 بفضل الأوراق المظمورة من عهد النعمان بن المنذر ، قال حماد الراوية
 الكوفي (أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطنوج «الكراريس»
 ثم دفنها في قصره الأبيض فلما كان المختار بن أبي عبيد الثقفي قيل له إن
 تحت القصر كنزاً فاحتفزه ، فأخرج تلك الأشعار . فمن ثم أهل الكوفة

أعلم بالشعر من أهل البصرة^١

ولقد كانوا قبل العتور على هذه الأوراق مسوقين إلى الشعر عن
 رغبة ملحة وغريزة فيهم متأصلة منذ حل العرب الكوفة ، يؤيد ذلك
 أن علياً كرم الله وجهه لما رجع بهم من قتال الخوارج ، على أن يستعدوا
 لقتال أهل الشام ثم تخاذلوا عنه ، لم ير أبلغ في ذمهم من صفة التشاغل
 بالشعر ، فقال في خطبته حين خطبهم (إذا تركتم عدتم إلى مجالسكم حلقاً
 عزين تضربون الأمثال وتناشدون الأشعار تربت أيديكم وقد نسيتم
 الحرب واستعدادها وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها وشغلتها
 بالباطيل والأضاليل) .

إن العتور على الأوراق السالفة الذكر صادف هوى من نفوسهم
 فازدادوا بها إقبالاً على الشعر ، وزخر بحره عندهم وقذف فيه بالملح والطرف
 إلا أن النحل والافتعال طغيا عليه ، حتى التبس الأمر على الناس وأسند
 القول إلى غير قائله ، قال أبو الطيب (الشعر بالكوفة أكثر وأجمع
 منه بالبصرة ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله ، وذلك
 بين في دواوينهم)^٢

حقاً لقد كان ذلك إذ كان من روايتهم حماد المذكور الذي جر عليهم

(١) الخصائص باب (فيما يرد عن العرب مخالفا لما عليه الجمهور) ج ١ ص ٣٩٣
 وكان من خبر المختار أنه وثب بالكوفة سنة ٦٦ هـ في عهد عبد الله بن الزبير طلباً
 لفأر البيت العلوي وأخرج منها عامله ، فوجه إليه ابن الزبير أخاه مصعباً فقتله سنة
 ٦٧ هـ وهو من رؤوس الفتن في الاسلام

(٢) مراتب النحويين ص ١١٩ ونقل في المزهرة النوع الرابع والأربعين

التلبيس في المرويات والازدياد عايمها من مختلفاته، وقد كان ضليعاً في الشعر وآداب العرب إلا أنه رقيق الأمانة، قال فيه المفضل الكوفي (قد ساط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً، فقييل له وكيف ذلك أيخطيء في روايته أم يلحن؟ قال ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل عنه ذلك في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك)^١

بل إن خلفاً الأحمر البصري قد زاد ذلك ضغناً على إباله فقد كان كذلك مضرب المثل في محاكاته من ينسب إليهم الشعر، روى عنه الكوفيون كثيراً من الشعر، (وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه قد أخذ عنه وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد، فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة فعرّفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس، فقالوا له أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة فبقى ذلك في دواوينهم إلى اليوم)^٢.

ومع أنه بصري فلم يعرف عنه أنه لبس على البصريين وروى لهم شعراً منحولاً، وربما كان منشأ ذلك العصبية البلدية التي تملئ على المتأثر بها ارتكاب مالا يجمل في المسائل العلمية، وقيل إنه فعل ذلك انتقاماً

(١) هذه الحكمة في الأغاني ترجمة حماد، وفي معجم الأدباء في كل من

ترجمة حماد وترجمة المفصل، وفي خزانة الأدب شاهد ٧٧٤

(٢) المزهرة النوع الرابع والأربعين

لنفسه إذ ذهب إلى الكوفيين أولاً للتعليق عنهم فبخلوا عليه بشعرهم ،
قال أبو زيد (حدثني خلف الأحمر قال : أتيت الكوفة لأكتب عنهم
الشعر فبخلوا علي به ، فكنت أعطيهم المنحول وأخذ عنهم الصحيح ،
ثم مرضت فقلت لهم ويدكم أنا نائب إلى الله هذا الشعر لي ، فلم يقبلوا
مني ، فبقي منسوباً إلى العرب لهذا السبب)^١

إن المصادفة التي جمعت بين هذين الوضاعين لكفيلة بتوريث
الكوفيين توهيناً لمذهبهم فليس في الرواة جميعاً على كثرتهم ومحاولة
بعضهم الصنع من يداني حماداً وخلفاً ، فهما طبقة في التاريخ كله يعرف
ذلك من له إلمام بالأدب .

أبصر ذلك البصريون فصدفوا عن شواهد الكوفيين واطرحوها
ظهيراً ، إلا ما كان من فرد واحد عن فرد واحد فقد سلف لك في ترجمة
أبي زيد البصري أنه انفرد بالرواية عن المفضل الضبي الكوفي ، بينما
الكوفيون يتلقون بالقبول رواياتهم ويعتمدون على شواهدهم

على أنه ما كاد الكسائي وهو ناشر المذهب الكوفي وصاحب الفضل
فيه يمين ببغداد حتى استمع إلى الأعراب الذين فيها وحولها وهم أوشاب
من مختلف القبائل غير العريقة في العروبة ، ومنهم أعراب الحمايمات الذين
قدموا ببغداد وضربوا خيامهم في قُطْرُبُل (قرية من متنزعات ببغداد
اشتهرت باللهو والخر) فاعتد بكلامهم واستشهد به وهم من زعانف العرب
الذين اختبل لسانهم ، فازداد مذهبهم ضعفاً على ضعف قال أبو زيد (قدم

(١) هذه الكلمة في وفيات الأعيان (ترجمة أبي زيد)

علمنا الكسائي البصرة فلقى عيسى والخليل وغـ يرها وأخذ منهم نحواً
كثيراً ، ثم سار إلى بغداد فلقى أعراب الحُمَيات فأخذ عنهم الفساد من
الخطأ واللعن فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله ^١
ولولا هم ما فاز الكسائي وانخذل سيبويه في المناظرة البغيضة ،
فان الكسائي إنما اعتمد على لغتهم واحتج بكلامهم وكانوا له مظاهرين ،
ولذلك قال الزيدى .

كسنا نقيس النحو فيما مضى على لسان العرب الأول
جاء أقوام يقيسونه على أغنى أشياخ قطربل
فكلهم يعمل في نقض ما به يصاب الحق لا يتلى
إن الكسائي وأصحابه يرقون في النحو الى أسفل ^٢
وقد اختلف الكوفيون طريق الكسائي ، فعولوا على شعر الاعراب
بعد أن امتزجوا وتأشبوا بالمتحضرين ولان جفاؤهم ، ومن أجل هذا
كان البصريون يغمزون الكوفيين فيقول الرياشي البصري (نحن نأخذ
اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل
السواد أصحاب الكواميخ وأكلة الشواريز) ^٣

-
- (١) راجع أخبار النحويين البصريين ترجمة أبي زيد ، والتصحيح والتحريف
ما وهم فيه الكسائي ، ومعجم الأدباء ترجمة الكسائي
(٢) راجع شعر الزيدى في ترجمته في أخبار النحويين البصريين ، ومعجم الأدباء ،
وفي التصحيح والتحريف (ما وهم فيه الكسائي)
(٣) حرشة جمع حارش صائد الكلب والكواميخ جمع كلخ نوع من الأدم ،
والشواريز جمع شيراز اللبن النخين ، راجع ترجمة الرياشي

من ذلك كله ترى أنه لم تهياً لهم بيئة تصـلح أن تكون منبعاً
لنير هذا الفن كبيئة البصريين بمن فيها وفي أرباضها وما دنا منها من العرب
الخلص ، يضاف إلى هذا ما استفزهم للعمل حينئذ في إبراز فن لهم يضارع
الفن البصري غيرة منهم وحنقاً على البصريين ، فأصاخوا إلى كل مسموع لهم
وقاسوا عليه فعترت بهم عجلة الرأي ، ولم يدققوا تدقيق البصريين
بل تدرجوا مطاوعة لمناديتهم إلى الاكتفاء بالشاهد الواحد ولو خالف
الأصل المعروف المتفق عليه بين الفريقين ، قال الأندلسي (الكوفيون
لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوبوا
عليه بخلاف البصريين)^١

وقد يتساهلون مع هذا في التثبت من معرفة القائل ، وربما استشهدوا
بشطر بيت لا يعرف شـطره الآخر ولا يعلم قائله كدليالهم على جواز
دخول اللام في خبر لـ كن بقول المجهول :

ولا كنني من حبها لعميد^٢

وأول من سن لهم طريقة التسامح إلى أبعد مدى شيخهم الكسائي
(وذلك أن الكسائي كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز من الخطأ والالحن
وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات فيجعل ذلك أصلاً ويقيس عليه
حتى أفسد النحو)^٣

(١) الاقتراح ص ١٠٠

(٢) باب إن وأخواتها من شواهد الزخشرى في المفصل ، والرضى راجع

الخزانة شاهد ٨٦٥ ، والمغنى مبحث (لـ كن)

(٣) معجم الادباء ترجمة الكسائي

وسترى عند حكمة تخصص كل من المذهبين إشادة الكسائي بالقياس ،
وكثير ما انحدر الكوفيون فناطقوا القاءة بالقياس دون ورود لمطابق
شاهد ، فمن ذلك : -

أمثلة للقياس الكوفي

١- تجوزهم مجيء العدد للتكرار على وزني فعال ومفعَل ممنوعا من
الصرف للوصفية والعدل من خمسة إلى تسعة مع أن المسموع عن العرب
في ذلك من واحد لأربعة ، لكنهم قاسوا في الباقي عليها قال الرضى (والمبرد
والكوفيون يقيسون عليها إلى تسعة نحو خماس وخمس وسداس ومسدس
والسماع مفقود)^١

٢- وكذلك أجازوا تثنية أجمع وجمعاء وتوابعهما قياساً على جمعها ،
قال الرضى (وقد أجاز الكوفيون والأخفش لمثنى المذكر أجمعان أكتعان
أبصعان أبتعان ، ولمثنى المؤنث جمعاً وان كتمعان بصمعان بتمعان ،
وهو غير مسموع)^٢

٣- تجوزهم الجزم بكيف مطلقاً قال الرضى (والكوفيون يجوزون
جزم الشرط والجزاء بكيف وكيفما قياساً ، ولا يجوز البصريون إلا شذوذاً)^٣
٤- تجوزهم النصب بأن مضمرة في غير المسائل المعدودة قياساً
قال الرضى (وقد تنصب مضمرة شذوذاً .. والكوفيون يجوزون النصب
في مثله قياساً)^٤

(١) شرح الكافية غير المنصرف (٢) شرح الكافية التأكيد
(٣) شرح الكافية باب الظروف « كيف » (٤) شرح الكافية آخر نواصب المضارع

٥ - ومثل ما تقدم تجويزهم عطف المفرد بلـكن بعد الايجاب نظير
 بل بعده ، قال الرضى (أجاز الكوفيون مجيء لـكن العاطفة للمفرد بعد
 الموجب أيضاً نحو جاءنى زيد لـكن عمرو حملاً على بل ، وليس لهم به شاهد)^١
 ٦ - ومثل ذلك تجويز إضافة (كذا) إلى مفرد أو جمع قياساً على
 العدد الصريح ، قال ابن هشام (خلافاً للكوفيين أجازوا فى غير تكرار
 ولا عطف أن يقال كذا ثوب وكذا أثواب قياساً على العدد الصريح)^٢
 إن الكوفيين بعملهم هذا قد فتحوا باباً واسع الفوهة على أنفسهم ،
 فهم إذ أقاموا لكل مسموع وزناً والمسموع فى اختلافه لا يقف عند نهاية ،
 واعتمدوا بعد هذا على القياس النظرى عند انعدام الشاهد انعدام كلياً ،
 قد اضطروا إزاء هذا أن وضعوا قواعد كثيرة خالفوا فيها البصريين ،
 بل قد وضعوا جرياً على سنتهم للشيء الواحد متى ورد على صور متغايرة
 قواعد بقدر صورته فكثير عندهم التجويز للصور المتخالفة كما قلنا عندهم
 ما كثير عند البصريين من التأويل والشذوذ والاضطرار والاستنكار -
 وعلى سبيل الايضاح نوجه نظرك إلى ما ذكرنا من الشواهد السبعة التى
 عقبنا بها اعتراضاً على المذهب البصرى وقد رأيت كيف تخلص منها
 البصرى ، أما الكوفى فقد اعتمدها وضم ما يستفاد منها إلى قواعد مذهبه
 وجعلها دعائم أقيسة أخرى تضاف إلى أقيسته ، ولا جناح فى تعدد
 الأقيسة وإن اعترت نوعاً خاصاً فى المعنى فما ذلك عنده إلا ذريعة من ذرائع
 التنويع فى التعابير وبقدرها تكون الأقيسة ، وفى ذلك من السرف والارهاق

(١) شرح الكافية حروف عطف النسق

(٢) المغنى الباب الأول (كذا)

لطالب النحو ما فيه - لكننا بعد ذا لا نقصد رمي هذا المذهب بالضعف
 في كل قواعده وإلا كان تجنيا عايمه . فقد ظهر عند الموازنة بين المذهبين
 فيما اختلفا فيه تفضيله في بعض مسائل ذات بال، والحق أحق أن يتبع، ولترى
 ذلك مجلوا نسوق اليك أربع قواعد لهم على سبيل الارشاد إلى صحة ما نقول
 ١ - عدم لزوم إبراز الضمير مع الوصف الجاري خبراً على غير ما هو
 له حالا أو أصلاً مع أمن اللبس والشواهد على ذلك كثيرة قال الأعشى ميمون
 وإن امرأ أسرى اليك ودونه من الأرض مومة وببداء سملق
 لمحقوقة أن تسجيبي لصوته وأن تعلمي أن المعان موفق
 وقد حاول البصريون إجابات كلها لا تقوم على قدم، منها أن المصدر
 المنسبك من أن والفعل نائب فاعل لمحقوقة وتأتيها حينئذ جائز لأن نائب
 الفاعل الاستجابة فلا ضمير في الوصف، وغير ذلك ولهذا قال ابن مالك في كافيته
 وإن تـلا غير الذي تعلقا به فأبرز الضمير مطلقاً
 في المذهب السكوني شرط ذلك أن لا يؤمن اللبس ورأيهم حسن
 ٢ - صحة الفصل بين المتضايقين في السعة بمنصوب المضاف مفعولاً
 به أو ظرفاً أو بالقسم ولا شك في ورود ما يصح هذه القاعدة فقد وردت
 الشواهد في النثر للثلاثة، ولنكتف بشاهد على الفصل بالمفعول به، قرأ
 ابن عامر أحد السبعة قوله تعالى (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل

(١) استشهد بهما للرضي على الكافية لمذهب الكوفيين راجع الخزانة شاهد
 ٣٨٧ وهما من قصيدة في مدح الحلق الكلابي شرح بعضها في الخزانة الشاهد
 المذكور وشاهد ٢٠٤ و ٥٢١، وكلها في رغبة الآمل على لاكمل ج ١ ص ٤٠
 وما بعدها .

أولادهم شركائهم) وقد ردها الزمخشري الذي وافق البصر بين قال الصبيان
(ولا عبرة برده مع ثبوتها بالتواتر) فالحق مع الكوفيين ولذا يقول ابن مالك
فصل مضاف شبه فعل ما نصب مفعولا أو ظرفا أجز ولم يعب
فصل يمين

٣- عمل اسم المصدر عمل فعله ، وشوا هذه أكثر من أن تحصى قال
صلى الله عليه وسلم « من قبله الرجل امرأه الوضوء » وقال القطامي

أكفراً بعد رد الموت عني وبعد عطائك المائة الرتاعا^١
ليس أمام البصريين إلا الاستنكار لرواية الحديث ، والضرورة للنظم ،
والتمسح بهذين مجلبة إلى الأعنات والتضييق ، ولقد أجاد ابن مالك إذ قال
ولا سم مصدر عمل

٤- جواز العطف على الضمير المخفوض بدون عود الخافض في السعة
قرأ حمزة وغيره قوله تعالى « واتقوا الله الذي تسمعون به والأرحام »
بجر الأرحام - لقد ضاق الخناق على البصريين ، والرضي بعد التردد
لما عساه أن يدافع به البصريون لم ير بدا من أن يقول (والظاهر أن حمزة
جوز ذلك بناء على مذهب الكوفيين لأنه كوفي ولا نسلم تواتر
القراءات السبع)^٢

وفي هذا الدفاع شطط ، ومن ذلك جنح ابن مالك إلى رأى الكوفيين فقال
وعود خافض لدى عطف على ضمير خفص لازما قد جعل

(١) البيت من شواهد الرضى راجع الخزانة شاهد ٥٩٩ وهو من قصيدة
طويلة في مدح زفر الكلابي
(٢) شرحه على الكافية عطف النسق

وليس عندي لازماً إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح منبهة
حتى في تعبيره بخافض بدل جار كما هو معروف ، ولولا خوف الأطلالة
لوافينالك بشواهد كثيرة تفضي إلى الاطمئنان لهذه التواعد كوضح النهار
ومعها دفاع البصريين الذي لم يضرهما ، والواقع أن البصريين كانت محاولاتهم
في نقضها غير مجدية ومجردة عن النصفه فقد تعسفوا غاية التعسف
بما لا ترضاه العدالة ، ولا يستقيم في المنطق (وما كل مرة تسلم الجارة)
من هذا البيان يتضح لك معرفة طريقة كل من المذهبين الخاصة به ،
وبقي أننا نجيب على ما قد يدور بخلد الناظر من السؤال عن الحكمة
في تخصص كل باتجاهه ولم لم يعكس الأمر ؟ فنقول :

حكمة تخصص كل من المذهبين باتجاهه

إن ذلك يعتمد في الحقيقة أولاً وبالذات على اختلاف نزعتهم
الطبيعية ، فهي التي توجه كلا منهما حسب ما تقتضيه وتوجهه ، ونزعتهم
متغايرة لتغاير الموقع الطبيعي للبلدين .

ذلك أن البصرة قد أنشئت على طرف البادية في صقع عاش في الحرية
البدوية الآماد الطويلة فلم يمتد إليه نفوذ أجنبي يلين من شكيمته ، والعرب
النازلون فيها لم يعرفوا ما يبدل صلابة عقليتهم العربية وقد تجلى ذلك في كل
ما يتصل بهم من علوم وغيرها ، أما الكوفة فقد أنشئت على مدني من
(الحيرة) قاعدة المناذرة قديماً في صقع كان تحت إشراف الأكاسرة خائفاً
لأمرتهم ، دبت إليه الروح الفارسية في علومها وأنظمتها من حرية التفكير
والعُنو لسلطان العقل والدأب على التوسع في الابتكار وانفساح الميدان

للآراء ، تسربت هذه الروح فيمن توطنها من العرب وأقام فيها ، فكانت
نزعة الكوفة في عمومها تخالف نزعة البصرة في عمومها أيضاً ، ولا
جرم أن هذا الاختلاف إنما كان بفعل الطبيعة البلدية التي لا يرد قضاؤها
في النفوس والعقول والعلوم والدراسة وما إلى ذلك ، فكان حتماً مقضياً أن
يسلك البصري في أصول مذهبه مسلك الشدة والمحافظة على المأثور وأن
ينهج الكوفي في أصول مذهبه طريق السهولة والرواية ، ومن ثم اختلف
مبنى المذهبين في قواعدهما على ما تقدم تفصيلاً ، والتزام البصري هذا التشديد
أمل منه أن يسود اللغة نظام مطرد بقوانين محدودة مستقاة من الأساليب
العربية الصحيحة المتضاهية على أمثالها - إذ ما من ريب أن اللغة العربية
لغات قبائل شتى تغايرت في بعض ألفاظها ولهجاتها وتميزت في شيء من
تراكيبها - ذلك أن العربي غير مقيد بضوابط وضعية لا يتخطى حماها ،
بل يرسل الكلام حسب مشيئته في أي غرض كان غير خاضع لنظام
يسيطر عليه وقد ينزع في غير قوسه ، لتأثره بعامل أجنبي يعرض له
فيجانب جادة الطريق في بعض الأحيان ، وقد مر في المذهب البصري
تعقب ابن أبي إسحاق للفرزدق ، وعيسى بن عمر للناطقة ، وأبو عمرو
لذي الرمة ، وعيبهم لعمار الكبي مع شعره ، وتخليط سيديويه للعرب في الجملة
المذكورة ثمة ، قال أبو علي الفارسي في تعليل أغلاط العرب (إنما دخل
هذا النحو كلامهم لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ولا قوانين
يستعصمون بها وإنما تهجم بهم طبائعهم على ما ينطقون به فربما استمواهم
الشيء فزاغوا به عن القصد)^١

(١) المزهر أول النوع الخمسين ، معرفة أغلاط العرب

رأى ذلك البصرى وقد رغب رغبة صادقة في وضع قواعد عامة لأنواع
الأعراب في جزئيات الكلام عند الاستعمال يجب أن تطبق ويسار على
منهاجها بدقة وحزم ويتحاشى بها عن الأساليب المبهرجة ، فلم يجد بداً أن
يقف عند الشاهد المذعن بصحته المتكاثرة نظائره ضارباً صفحاً عما عداه
من المرويات الضعيفة أو الشاذة أو المنحولة مما يؤدي اعتمادها إلى الفوضى
والاضطرابات وعدم الوقوف عند غاية ، وذلك كله من البصرى نزوع إلى
شنشنته الأولى - أما الكوفي فقد حمله على مسلكه احترامه لكل
ما ورد مسموعاً من العرب وكفى ، والتيسير للناس أن يستعملوا استعمالاتهم
على مقتضى ما أثر عنهم ، فلا ضير على القائل متى حاكى أى استعمال كان ،
وما القواعد إلا وليدة اللغة فهي ذات الساطان عاينها دون العكس - هذا
مع الترخيص بالقياس على مقتضى رأى إذا فقد الشاهد ، وما كان ذلك من
الكوفي إلا تأثيراً بنزعتهم الطبيعية أيضاً

بذلك ترى أنه قد اتخذ كل من المذهبين سبيلاً له خاصة عرف بها
حتى صار لكل طابع يخالف طابع الآخر فكان نتيجة ضرورية لهذا أمران
(الأول) أن ما كثر من الأمور الأربعة التي تخلفت عن القياس عند
البصرى حسب مقتضيات من التأويل والشذوذ والاضطراب والاستنكار
قد قلت عند الكوفي

(الثاني) أن الأقيسة التي اعتمد عليها البصرى في تدوين مذهبه على
العكس من ذلك فهي قليلة عنده بالنسبة إلى الأقيسة التي تكون منها
المذهب الكوفي ، ومن ثمة قيل إن مذهب البصريين مذهب السماع
ومذهب الكوفيين مذهب القياس ، ولذا يقول الكسائي

فإنما النحو قياس يتبع وبه في كل أمر ينتفع^١
وفي المسألة الزنبورية الماضية في المناظرة ما يشهد بذلك، فسيديويه
يتمسك بالرفع ويأبى النصب لأنه الأعراب المستفيض في التراكيب
الواردة على سننه، ويجيز الكسائي النصب للقياس عنده

تلك هي الحالة العامة في المذهبين بالنظر إلى جمهوريهما، ولا ينافي
ذلك أن بعض البصريين قد يميل إلى المذهب الكوفي في بعض المسائل
لما انقده في ذهنه، وقد عرفت في ترجمة الأخفش أنه أكثر البصريين
موافقة للكوفيين وأن منشأ ذلك راجع إلى توطنه ببغداد في جوار
الكسائي الذي احتفى به وأكرم منواه طيلة حياته الأخيرة، كما أن
بعض الكوفيين قد يرى المذهب البصري في بعضها أيضاً مثل ذلك،
وربما خرج على الرأيين بعض من الفريقين وابتكر مذهباً له خاصاً بل قد
يتشعب الخلاف بين رجال الفريق وحده. على أنه لم يقف الخلاف بين
الفريقين عند المسائل العامة بل سرت عدواه إلى التسمية في المصطلحات
العامة الكثيرة جداً - والحقيقة أن ذلك ليس من صالح العلم في شيء،
فربما جر على المتعلم الأرهاق والنصب، فانه إذا اطلع على كتب البصريين
وعرف قواعد باب باسمه مثلاً ثم قرأ كتب الكوفيين وأراد الباب نفسه
فلا ريب أنه محتاج إلى اسمه عندهم حتى يهتدى إليه، وفي ذلك مضية
للوقت، وهالك بعض أمثلة من هذا

يقول البصري النعت والكوفي الصفة - والبصري البدل والكوفي
الترجمة - والبصري الظرف والكوفي الصفة أو المحل - والبصري حروف

(١) البيت مطلع قصيدة مذكورة في معجم الادباء ترجمة الكسائي ج ١٣

الجر والكوفي حروف الاضافة - والبصري الجر والكوفي الخفض -
والبصري المصروف وغير المصروف والكوفي المجرى وغير المجرى -
والبصري واو المعية والكوفي واو الصرف - والبصري ضمير الشأن
والكوفي ضمير المجهول - وهكذا

والمرابي على هذا في العجب اختلافهم في التعليل - نطق العربي بسكران
ممنوعا من التنوين فيقول البصري للشبهه بألفى التأنيث والكوفي
لزيادة الألف والنون - وفي معنى الكلمة نطق العربي باسم الفعل فيتفرق
البصريون والكوفيون في مدلوله وموقعه على أقوال شتى

لقد شغف القوم بالخلاف وثوران المراء بينهم فيما جل من العلم
ومادق ، ولذا يقول فيهم على سبيل التندر يزيد بن الحكم الثقفي

إذا اجتمعوا على ألف وواو وياء نار بينهم جدال
ولم يك عجيبا وغريبا أن يتبرم أبو غسان دماذ صاحب أبي عبيدة
لما سمع رأى البصريين في نصب المضارع بأن مضمرة وجوبا بعد الفاء
والواو وأودون اعتبار هذه الأحرف ناصبة كما يقول الكوفيون فيكتب
إلى شيخ البصرة أبي عثمان المازني قصيدة مطلعها

تفكرت في النحو حتى مللت وأتعبت نفسي له والبدن
ثم يستعرض فيها رأى البصريين السابق ويختمها بقوله

(١) أي إذا اجتمعوا للبحث عن أحرف العلة نار النزاع ، والبيت من شواهد
النحاة على اعراب أسماء الحروف المجائية إذا ركبت كما في البيت ، راجع شرح المفصل
ج ٦ ص ٢٩ والرضي راجع الخزانة شاهد ٩ وروى الحريري في درة الغواص
عن الأصمعي أنشدني عيسى بن عمر بيتا هجا به النحويين راجع الوهم ١٧٥

فقد كدتُ يا بكر من طول ما أفكر في بابه أن أجن^١
ولو أن الخلاف النحوي أغلق بابه بعد البصري والكوفي على مابه
في مناحيه المختلفة المضطربة لهان الخطب، ولكنه تشعبت مسائله
بعدها، فكان المذهب البغدادى والأندلسى وغيرهما من المذاهب الشخصية
الخاصة الملفقة مما أجهد النحوي وأنصبه، على أنه في خلال هذه المذاهب
الرئيسية خرج الكثير من علمائها عليها فلم يقف عند إجماع، وسبق في ترجمة
الأخفش والمبرد ما تعرفت منه خروجهما على المذهبين البصري والكوفي،
وما عاب العلماء اتخاذ أحدهم مذهباً مستحدثاً متى كان مستنده قوياً،
فإن المذاهب مبنية على ظنون قوية فتمتط، قال ابن جنى (وإنما لم يكن فيه قطع
لأن للانسان أن يرتجل من المذاهب ما يدعو إليه القياس، ما لم يُلَوَّب نص
أو يذهبك حرمة شرع إلخ)^٢

ولقد عني هذا الفن من بين الفنون قديماً وحديثاً بكثرة الأقوال
وتضارب الآراء، ويشفع لذلك أن أساسه الأهم من استعمالات العرب لم يسلك
اتجاهاً متوحداً معيناً، فالقبائل التي اعتد بها وأخذت عنها الشواهد
مختلفة في كثير من الأساليب، يضم إلى ذلك اضطراب الروايات نفسها
وورودها بألوان متغايرة قد تتباعد مبادئها في بعض الأحيان فينتقل البيت
من مدح إلى ذم وبالعكس وهكذا، وربما عمى الأمر واشتبه الحال وهنا

(١) راجع القصيدة في عيون الاخبار كتاب العلم والبيان (الاعراب واللحن)
مجلد ٢، والنوادر للقالى ص ١٨٦، والعقد الفريد للياقوتة في العلم والادب (نواذر
من النحو)، وأخبار النحويين البصريين ترجمة المازني

(٢) الخصائص باب (في الاحتجاج بقول المخالف) ج ١ ص ١٩٦

المرتفع للتصحيح والتحريف ، والأمثلة في كل ذلك متعارفة مشهورة ،
وتقدم لك بعض منها في شواهد سيديويه ، وسيرد عليك كثير منها في
الكلام على شرح الأشموني وحاشية الصبان ، بما تعرف منه انتشار
التصحيح والتحريف في كتب النحاة ، ووراء هذين الأمرين الفوضى
المنتشرة في نسبة الشواهد لقائلها ، فقد ينسب الشاهد لثنين فأكثر
وقد يقع التوزيع للبديت فبعضه لقائل من بيت والبعض الآخر لقائل
آخر ، لقد زاد الأمر عن حده وطفح الكيل أمام النحويين فلا غرابة
أن يختلف النحاة حينئذ في أحكامهم لاختلاف التقادير بينهم في الشواهد
فتكاثر الأقوال حتى تقابلت وتناقضت ، وحق لكل أن يقول ما يقول
لأنه قد قيل ، ومن هنا يدرك صدق القائل : عجبت لنحوي يخطئ .
الواقع الذي لا يمارى فيه اثنان أن علم النحو واسع المضطرب كثير
القواعد متشعب التطبيق على الجزئيات الكلامية التي لا تحد بغاية ،
وليس مقصودنا الآن هذا إنما زج بنا إليه الاستطراد ، وسنذكر كلمة
خاصة في ذلك بمشيئة الله تعالى ، إنما الذي نعى به بيان الأسباب التي أوجت
إلى التخالف بين الفريقين فحسب ، ونمط التخالف بينهما ، وما نجم عن
هذا التخالف من المسائل على أن يكون البحث محصوراً في المسائل العلمية
لا فيما يتصل بالتسمية للأبواب ، ولا فيما يرتبط بالتوجيه لما وقع الخلاف
فيه ، ولا فيما يعود إلى المدلول لبعض الأنواع ، فإن ذلك يقتضينا شيئاً كثيراً
فاذا كان البصرى قد تحفظ في أقيسته وتشدد ، والكوفي قد تحلل
من القيود التي تقيد بها البصرى واحتفى بكل مسموع له على كثرة
روايته للشعر عنه ، وكلفه بالشاذ منه ورواج المنحول عنه ، واكتفائه

بالشاهد الواحد أيا كان شأنه ، مع التعويل على القياس النظري - أدركت
سعة الفجوة بين الفريقين في مسألتيهما .

نتائج المخالفة بين المذهبين

لقد ترتب على ما سلف أن اختلف البلدان في فروع كثيرة جداً
يخطئها العدو ويعي الحاصر استقراؤها ، وذهب كل منهما ينصر مذهبه
بأدلة عقلية وعقلية على وفق منهجه ، واحتدم الخلاف بينهما في ذلك طويلاً ،
وقد ألف في بعض هذه المسائل أسفار خاصة ، وأغلب الظن أن أول من
كتب في ذلك ثعلب ، ألف كتابه (اختلاف النحويين) ، ثم ترادفت
المؤلفات فصنف ابن كيسان كتابه (المسائل على مذهب النحويين مما
اختلف فيه البصريون والكوفيون) ، ثم دون بعده أبو جعفر النحاس
المصري مؤلفه (المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين) ، ثم ألف
بعده ابن درستويه كتابه (الرد على ثعلب في اختلاف النحويين) ،
وهذه الكتب لم نطلع عليها حتى نقدر ما فيها عن خبرة - وجاء بعد هؤلاء
كمال الدين الأنباري وجرد قلعه لتقصي طائفة كبيرة من هذه المسائل
فدبج كتابه (الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين
والكوفيين) وأجاد فيه أيما إجادة ، فقد ذكر فيه ثمانى عشرة ومائة
مسألة ، وفيها بعض مسائل صرفية ، وزيد في بعض النسخ عليها ثلاث ،
وأيد كل مسألة بأدلة الفريقين قياسية وسماعية مع البسط والتفصيل على
نحو ما بين فقهاء الشافعية والأحناف ، ووقف منها موقف الفيصل العادل
غير معتسف في حكمه ولا متعصب في قضائه ، فيؤيد البصري مرة ويرجع

الكوفي أخرى (كما يقول في مفتتح الكتاب) إلا أن التتبع للكتاب
من ألفه إلى يائه يرى آخراً أن الفوز الباهر للبصري ، فانه إنما رجع
الكوفي في سبع مسائل منها فقط ، ولا أطيل عليك بما بسطه من أدلة
الفريقين فيها ورده على البصري ، فالكتاب بين الأيدي ، وأكتفى
بذكرها مجردة معتمداً في الارشاد إليها على أرقام المسائل باعتبار ترتيب
الكتاب لتيسير معرفتها ، فهاكها - قال الكوفيون

١٠ - (لولا) ترفع الاسم بعدها نحو لولا زيد لا كرمك ، والبصريون بالابتداء

١٨ - لا يجوز تقديم خبر ليس عليها ، والبصريون يجوز

٢٦ - اللام الأولى في لعل أصلية ، والبصريون زائدة

٧٠ - يجوز للضرورة ترك صرف المنصرف ، والبصريون لا يجوز

٩٧ - الياء والكاف في لولاي ولولاك في موضع رفع ، والبصريون خفض

١٠١ - الاسم المبهم نحو هذا أعرف من العلم ، والبصريون العلم أعرف

١٠٦ - جواز الوقف بالنقل على المنصوب المعرف باللام ، والبصريون لا

ولا يستطيع من له درجة علمية أن يتنازع عن هذا الحكم القاسي
من الأنباري ، فغير خليق به أن ينصب نفسه حاكماً بين المذهبين في
مسائل تنيف على المائة ، وقد أخذ على نفسه أول الكتاب ميثاق النصفة
ثم تكون نهاية القضاء أن يؤيد الكوفي في سبع منها فقط . ولولا أن
المقام لا يتسع لاستدركنا عليه مسائل أخرى من مسائله التي رجع فيها
البصري مستندياً إلى أدلة الخذاق من النجاة . ولعلك لم تنس المسائل
الأربع السابقة التي ذكرت آخر الكلام على المذهب الكوفي فقد رجحت
كفتهم فيها . وليس غرضنا أن نعدل المذهب الكوفي بالمذهب البصري ،

وإنما الغرض درء الحيف وإعطاء كل ذي حق حقه
ولنرجع إلى موضوعنا ، فقد ألف بعد الأنباري أبو البقاء العكبري
كتابه (التبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين) ، ولم نعر
على هذا الكتاب إلا أن المعروف عن العكبري أنه كوفي النزعة كما يتضح
جليا من مؤلفاته ، ومما لا مريية فيه أنه قد اطلع على كتاب الأنصاف ،
وشاهد هذا أنه في شرحه لديوان أبي الطيب المتنبّي قد ينقل عبارة الأنصاف
بنصها عند ذكر الخلاف بين الفريقين ، أو يلخصها تلخيصا لا يذهب معه تعرف
الأصل المأخوذ منه ، ولأذكر لك شيئا من هذا على سبيل التمثيل فأضع
أمامك ست مسائل من الأنصاف مرقومة بأرقام الكتاب وبجذائها أبيات
سنة للمتنبّي نقل العكبري في شرحها عبارة الأنصاف بحروفها أو ملخصها ،
غير أنه لم ينسبها للأنباري ، وهي على ترتيب الأنصاف .

١٤ - (نعم وبئس) اسمان أم فعلان وشرح العكبري لقول المتنبّي

بئس الليالي سهرت من طربي شوقا إلى من يبيت يرقدها

٢٦ - (لعل) لامها الأولى أصلية أم زائدة وشرحه لقوله

لعل بنعيم لبنيك جند فأول قرّح الخيل المهار

٤٥ - (المنادى المفرد المعروف) مبنى أم معرب وشرحه لقوله

أيا أسدا في جسمه روح ضيغم وكم أسد أرواحهن كلاب

٥٣ - (اسم لا النافية للجنس) معرب أم مبنى وشرحه لقوله

لا خلق أسمع منك إلا عارف بك راء نفسك لم يقل لك هاتها

٧٨ - (كي) يجوز أن تكون حرف جر وشرحه لقوله

جوعان يأكل من زادي ويمسكني لكي يقال عظيم القدر مقصود

٨٣ - (حتى) تنصب الفعل بنفسها أم لا وشرحه لقوله
أقر جـ لدى بها على فلا أقدر حتى المات أجدها
فبالضرورة لا بد أنه قد رجح كثيراً من آراء الكوفيين انتصاراً
لمذهبه في كتابه (التبيين) وحاج الأنباري فيها ، وهكذا حال المسائل
العلمية تتأرجح موازينها بين العلماء حسب التقادير المختلفة تبعاً لاختلاف
النظر ، ثم ألف بعد العكبري ابن إياز البغدادي كتابه (الأسعاف
في مسائل الخلاف) واستدرك مسائل زاده ، ولم نعتز على هذا الكتاب
أيضاً - ورحم الله السيوطي فقد خلاص في الجزء الثاني من كتابه (الأشباه
والنظائر) الفن الثاني القواعد الخاصة والضوابط إلخ (التدريب) ما في
كتابه (الانصاف والتبيين) بما بلغ اثنتين ومائة وأضاف إليها من زيادات
الأسعاف مسألتين - مع الإيجاز والافادة لأنه غني بجمعها غير مكررة ،
عارية من الأدلة والتنمил - ولقد أحببت أن أنقل كلامه بحروفه ابتغاء
لادراك مقدار كبير من هذه المسائل ، وهما هو ذا

سرد مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين
حسب ما ذكره الكمال أبو البركات الأنباري في (كتاب الانصاف
في مسائل الخلاف) وأبو البقاء العكبري في (كتاب التبيين في مسائل
الخلاف بين البصريين والكوفيين) - « الأول » الاسم مشتق من السمو
عند البصريين وقال الكوفيون من الوسم « ٢ » الأسماء الستة معربة
من مكان واحد وقال الكوفيون من مكانين (٣) الفعل مشتق من
المصدر وقالوا المصدر مشتق من الفعل (٤) الألف والواو والياء في التثنية
والجمع حروف إعراب وقالوا إنها إعراب (٥) الاسم الذي فيه ثاء التانيث

كطلمحة لا يجمع بالواو والنون وقلوا يجوز (٦) فعل الأمر مبنى وقلوا
 معرب (٧) المبتدأ مرتفع بالابتداء والخبر بالمبتدأ وقلوا المبتدأ يرفع الخبر
 والخبر يرفع المبتدأ (٨) الظرف لا يرفع الاسم إذا تقدم عليه وقلوا يرفعه
 (٩) الخبر إذا كان اسماً محضاً لا يتضمن ضميراً وقلوا يتضمن (١٠) إذا
 جرى اسم الفاعل على غير من هوله وجب إبراز ضميره وقلوا لا يجب
 (١١) يجوز تقديم الخبر على المبتدأ وقلوا لا يجوز (١٢) الاسم بعد لولا
 يرتفع بالابتداء وقلوا بها أو بفعل محذوف قولان لهم (١٣) إذا لم يعتمد
 الظرف وحرف الجر على شيء قبله لم يعمل في الاسم الذي بعده وقلوا يعمل
 (١٤) العامل في المفعول الفعل وحده وقلوا الفعل والفاعل معاً أو الفاعل
 فقط أو المعنى أقوال لهم (١٥) المنصوب في باب الاشتغال بفعل مقدر
 وقلوا بالظاهر (١٦) الأولى في باب التنازع إعمال الثاني وقلوا الأول
 (١٧) لا يقام مقام الفاعل الظرف والمجرور مع وجود المفعول المصريح
 وقلوا يقام (١٨) نعم وبئس فعلا ماضيان وقلوا اسمان (١٩) أفعل في
 التعجب فعل ماض وقلوا اسم (٢٠) لا يبنى فعل التعجب من الألوان
 وقلوا يبنى من السواد والبياض فقط (٢١) المنصوب في باب كان خبرها
 وفي باب ظن مفعول ثان وقلوا حالان (٢٢) لا يجوز تقديم خبر ما زال
 ونحوها عليها وقلوا يجوز (٢٣) يجوز تقديم خبر ليس عليها وقلوا لا يجوز
 (٢٤) خبر ما الحجازية ينتصب بها وقلوا بحذف حرف الجر (٢٥)
 لا يجوز طعامك ما زيد آكلا وقلوا يجوز (٢٦) يجوز ما طعامك آكل
 زيد وقلوا لا يجوز (٢٧) خبر إن وأخواتها مرفوع بها وقلوا لا تعمل في
 الخبر (٢٨) إذا عطفت على اسم إن قبل الخبر لم يحز فيه إلا النصب وقلوا

يجوز الرفع (٢٩) إذا خففت إن جاز أن تعمل النصب وقالوا لا تعمل
 (٣٠) لا يجوز دخول لام التوكيد على خبر لـ كن وقالوا يجوز (٣١)
 اللام الأولى في لعل زائدة وقالوا أصلية (٣٢) لا النافية للجنس إذا دخلت
 على المفرد بنى معها وقالوا معرب (٣٣) لا يجوز تقديم معمول الفاعل
 الأعراب عليها نحو دونك وعليك وقالوا يجوز (٣٤) إذا وقع الظرف
 خبر مبتدأ ينصب بفعل أو وصف مقدر وقالوا بالخلاف (٣٥) المفعول
 معه ينتصب بالفعل قبله بواسطة الواو وقالوا بالخلاف (٣٦) لا يقع الماضي
 حالا إلا مع قد ظاهرة أو مقدرة وقالوا يجوز من غير تقدير (٣٧) يجوز
 تقديم الحال على عاملها الفعل ونحوه سواء كان صاحبها ظاهراً أو مضمراً
 وقالوا لا يجوز إذا كان ظاهراً (٣٨) إذا كان الظرف خبر المبتدأ وكرره
 بعد اسم الفاعل جاز فيه الرفع والنصب نحو زيد في الدار قائماً فيها وقائم
 فيها وقالوا لا يجوز إلا النصب (٣٩) لا يجوز تقديم التمييز على عامله
 مطلقاً وقالوا يجوز إذا كان متصرفاً (٤٠) المستثنى منصوب بالفعل
 السابق بواسطة إلا وقالوا على التشبيه بالمفعول (٤١) لا تكون إلا
 بمعنى الواو وقالوا تكون (٤٢) لا يجوز تقديم الاستثناء في أول الكلام
 وقالوا يجوز (٤٣) كان في الاستثناء حرف جر وقالوا فعل ماض (٤٤)
 إذا أضيفت غير إلى متمكن لم يحز بناؤها وقالوا يجوز (٤٥) لا يقع
 سوى وسواء إلا ظرفاً وقالوا يقع ظرفاً وغير ظرف (٤٦) كم في العدد
 بسيطة وقالوا مركبة (٤٧) إذا فصل بين كم الخبرية وبين تمييزها بظرف
 لم يحز جره وقالوا يجوز (٤٨) لا يجوز إضافة النيف إلى العشرة وقالوا
 يجوز (٤٩) يقال قبضت الخمسة عشرة درهماً ولا يقال الخمسة العشرة درهم

وقالوا يجوز (٥) يجوز هذا ثالث عشر ثلاثة عشر وقالوا لا يجوز
 (٥١) المنادى المفرد المعرفة مبنى على الضم وقالوا معرب بغير تنوين
 (٥٢) لا يجوز بناء ما فيه أل في الاختيار وقالوا يجوز (٥٣) الميم المشددة في اللهم
 عوض من يا في أول الاسم وقالوا أصله يا الله أمـنا بخير فحذف ووصلت الميم
 المشددة بالاسم (٥٤) لا يجوز ترخيم المضاف وقالوا يجوز (٥٥) لا يجوز
 ترخيم الثلاثي بحال وقالوا يجوز مطلقاً أو إذا كان ثانيه متحرراً قولان
 (٥٦) لا يحذف في الترخيم من الرباعي إلا آخره وقالوا يحذف ثالثه أيضاً
 (٥٧) لا يجوز ندبة النكرة ولا الموصول وقالوا يجوز (٥٨) لا تلحق
 علامة الندبة الصفة وقالوا يجوز (٥٩) لا تكون من لا ابتداء الغاية
 في الزمان وقالوا تكون (٦٠) رب حرف وقالوا اسم (٦١) الجر بعد واو
 رب برب المقدرة وقالوا بالواو (٦٢) منذ بسيطة وقالوا مركبة (٦٣)
 المرفوع بعد مُذ ومنذ مبتدأ وقالوا بفعل محذوف (٦٤) لا يجوز حذف
 حرف القسم وإبقاء عمله من غير عوض إلا في اسم الله خاصة وقالوا يجوز
 في كل اسم (٦٥) اللام في قولك لزيد أفضل من عمرو لام الابتداء وقالوا
 لام القسم محذوفاً (٦٦) أيمن الله في القسم مفرد وقالوا جمع يمين (٦٧)
 لا يجوز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وقالوا يجوز (٦٨)
 لا يجوز إضافة الشيء إلى نفسه مطلقاً وقالوا يجوز إذا اختلف اللفظان
 (٦٩) كلا وكتنا مفردان لفظاً مثنيان معنى وقالوا مثنيان لفظاً ومعنى
 (٧٠) لا يجوز توكيد النكرة توكيداً معنوياً وقالوا يجوز إذا كانت محدودة
 (٧١) لا يجوز زيادة واو العطف وقالوا يجوز (٧٢) لا يجوز العطف
 على الضمير المجرور إلا باعادة الجار وقالوا يجوز بدونه (٧٣) لا يجوز

العطف على الضمير المتصل المرفوع وقالوا يجوز (٧٤) لا تقع أو بمعنى
الواو ولا بمعنى بل وقالوا يجوز (٧٥) لا يجوز العطف بلكن بعد لا يجاب
وقالوا يجوز (٧٦) يجوز صرف أفضل منك في الشعر وقالوا لا يجوز
(٧٧) لا يجوز ترك صرف المنصرف في الضرورة وقالوا يجوز (٧٨) الآن
اسم في الأصل وقالوا أصله فعل ماض « ٧٩ » يرتفع المضارع لوقوعه موقع
اسم الفاعل وقالوا بحروف المضارعة « ٨٠ » لا تأكل السمك وتشرب
اللبن منصوب بأن مضمرة وقالوا على الصرف « ٨١ » الفعل المضارع بعد
الفاء في جواب الأشياء السبعة منصوب باضمار أن وقالوا على الخلاف
(٨٢) إذا حذفت أن الناصبة فلاختيار أن لا يبقى عملها وقالوا يبقى
(٨٣) كي تكون ناصبة وجارة وقالوا لا تكون حرف جر (٨٤) لام كي
ولام الجحود ينصب الفعل بهما بأن مضمرة وقالوا باللام نفسها
(٨٥) لا يجمع بين اللام وكي وأن وقالوا يجوز (٨٦) النصب بعد حتى
بأن مضمرة وقالوا بحتى (٨٧) إذا وقع الاسم بين إن وفعل الشرط
كان مرفوعا بفعل محذوف يفسره المذكور وقالوا بالعائد من الفعل إليه
(٨٨) لا يجوز تقديم معمول جواب الشرط ولا فعل الشرط على حرف الشرط
وقالوا يجوز (٨٩) إن لا تكون بمعنى إذ وقالوا تكون (٩٠) إذا وقعت
إن الخفيفة بعد ما النافية كانت زائدة وقالوا نافية (٩١) إذا وقعت اللام
بعد إن الخفيفة كانت إن مخففة من الثقيلة واللام للتأكيد وقالوا إن بمعنى
ما واللام بمعنى إلا (٩٢) لا يجازى بكيف وقالوا يجازى بها (٩٣) السين
أصل وقالوا أصلها سوف حذف منها الواو والفاء (٩٤) إذا دخلت تاء
الخطاب على تاء الفعل جاز حذف الثانية وقالوا الأولى « ٩٥ » لا يؤكد

فعل الاثنين وفعل جماعة المؤنث بالنون الخفيفة وقالوا يجوز (٩٦) ذا والذي
وهو وهى بكاملها الاسم وقالوا الذال والهاء فقط (٩٧) الضمير فى لولاى
ولولاك ولولاه فى موضع جر وقالوا فى موضع رفع (٩٨) الضمير فى نحو
إياى وإياك وإياه إيا وقالوا الياء والكاف والهاء (٩٩) يقال فاذا هو هى وقالوا
فاذا هو إياها (تمام المائة) أعرف المعارف المضمر وقالوا الميم (١٠٠) ذا وأولاء
ونحوها لا يكون موصولا وقالوا يكون (١٠٢) همزة بين بين غير ساكنة
وقالوا ساكنة

وقد فات الأنبارى مسائل خلافة بين الفريقين استدركها عليه ابن إياز
فى مؤلف * منها الأعراب أصل فى الأسماء فرع فى الأفعال عند البصريين
وقال الكوفيون أصل فىهما ، ومنها لا يجوز حذف نون التثنية لغير الإضافة
وجوزه الكوفيون

موازنة بين المذهبين

لا إخالك بعد أن تستحضر ما عرضناه عليك إلا مرجحاً كفة
مذهب البصريين ، ولسنا فى حاجة إلى البسط بعد ما فات ، غير أنا هنا
نلم التشعيب الفائت لىتركز فى ذهن ويبقى فى الذاكرة ، فنقول إن مذهب
البصريين إنما رجع لأنه نشأ على ملاحظة أمور ثلاثة لا يراها الكوفيون
١ - أنهم يؤثرون السماع على القياس فلا يصيرون اليه إلا إذا أعوزتهم
الحاجة ، وحملهم على هذا سهولة اتصالهم بجمهرة العرب ، ولكثرتهم حولهم
قد تعصبوا فى رواياتهم فلا يحملونها إلا عن موثوق بفطرته ، أما الكوفيون
فعلى عكسهم فضلو القياس على السماع فى كثير من مسائلهم لتناثرتهم
عن خلص العرب ، ولذا تساهلوا فى رواياتهم فتلحقوها عن أعراب

لا يرى البصريون سلامتهم .

٢ - أنهم احتاطوا في أقيستهم فلم يدونوها إلا بعد توافر أسباب الاطمئنان عليها بخلاف الكوفيين الذين تفككوا من قيودهم ولذا يقول السيوطي (اتفقوا على أن البصريين أصح قياساً لأنهم لا يلتفتون إلى كل مسموع ولا يقيسون على الشاذ)^١

٣ - أنهم لا يعولون على القياس النظري عند انعدام الشاهد إلا فيما ندر جداً ، أما الكوفيون فطالما جنحوا إليه ، وسلفت لك أمثلة من هذا النوع - فهذه الأمور الثلاثة التي تولد عنها الاختلاف بين الفريقين في المسائل الجمة تضافرت في الهوض بمذهب البصريين على الكوفيين ، إذ لا ريب أن السماع في اللغة ركن أول لأنها ليست فلسفة يتحكم فيها ميزان العقل والدراية ، والتشدد في القياس الذي يؤذن بصحة نظائره حتم لازم ، وإلغاء القياس النظري في اللغة مستقيم مع الواقع ، هذا حال المذهبين في مجملهما وإن ظفر مذهب الكوفيين في بعض المسائل وقد ذكرنا لك أربعاً منها في الكلام على المذهب الكوفي ، وسبعاً منقولة عن الأنباري في نتائج المخالفة بين الفريقين .

وما مثل الفريقين عند التقريب الاكمل الطيب والمتطيب ، فالبصريون كالطبيب الذي عانى المهنة حدثاً وحذقها مدركا فأحكمها وأفاد المجتمع عن طول مدة ودقة خبرة ، والكوفيون كالمتطيب الذي قد اكتمل ونظر الطبيب وما يسديه فوجد عليه ثم تعرف منه وقارعه ، فأن الكوفيين مامنهم إلا من أخذ عن البصريين أرباب هذا الشأن بينما لم يتلق أحد من

البصريين عن واحد منهم ، قال السيوطي (وكذلك أهل الكوفة كلهم يأخذون عن البصريين وأهل البصرة يمتنعون من الأخذ عنهم لأنهم لا يرون الأعراب الذين يحكون عنهم حجة)^١ - إن احتضان العباسيين للكوفيين خصوصا بعد اتصال الكسائي وأصحابه هو الذي رفع من شأنهم عند أنفسهم ، واستخفهم إلى مناصبة البصريين لحبهم لهم وإيثارهم عن البصريين لما قدموا من مؤازرتهم في تكوين دولتهم إذ كانوا شيعتهم من جهة ولقربهم عن البصريين من جهة أخرى ، فأدنوا منهم قبل البصريين وأسبغوا عليهم نعمهم وأجزلوا لهم منحهم وأدخلوهم قصورهم واتخذوا منهم السمار والمؤدبين والمعلمين ، فالفضل الضبي وشرقي بن القطامي الكلبي مؤدبا المهدي ، والكسائي معلم الرشيد ثم مؤدب ولديه الأمين والمأمون ، والفراء رائد أولاد المأمون ، وابن السكيت شيخ أولاد المتوكل ، وابن قادم معلم المعتز بالله ، و#ثعلب أستاذ عبد الله بن المعتز وابن طاهر ، وبذلك قبضوا على أئمة الحركة العلمية في بغداد وساد مذهبهم فيها وانتشر قبل المذهب البصري ، حتى انقاد إليه كثير من العلماء حرصا على التقرب من الدولة وتغلغل الناس في الأخذ بدعائمه فنفت سوق الروايات الشاذة والموضوعة ، حتى عمى على الناس الطريق اللاحب ، يقول أبو الطيب (فلم يزل أهل المصريين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريبا وغلب أهل الكوفة على بغداد وخدموا الملوك فقرّبوهم ، فأرغب الناس في الروايات الشاذة وتفاخروا بالموادرت بهاهاوا بالترخيصات وتركوا

الأصول واعتمدوا على الفروع فاختلف العلم^١
 لقد استحوذ الكوفيون على بغداد وحالوا دون اتصال البصريين بها،
 بينما حاول البصريون الولوج إليها تأمناً على مقاسمة الكوفيين حظوتهم
 فلم يفلحوا، وفي حادثة سيبويه الماضية التي كان فيها القضاء عليه ما يشهد
 بتأمرهم عليهم ومناصرة العباسيين وبطانتهم لهم.
 على أنه مع هذا العنت الشديد والضغط المقيت قد نفذ إلى بغداد قليل
 منهم (كاليزيدي) إلا أن اتصاله يرجع إلى حسن وقته الذي سهل له الدخول
 في غمار العلماء الكوفيين ببغداد فانه قدم إليها قبل استفحال العداء العلمي
 بين الب- لدين وقد ظهر فضله عند يزيد بن منصور خال المهدي فاستبقاه
 عندما استعرت نار المحاصمة، وطار به إلى قصور الخلفاء فجعله الرشيد من
 مؤدبي المأمون، ومع هذا فقد كان متطامناً أمام الكسائي أولاً —
 أما (الأخفش) الأوسط الذي قضى الشطر الأخير من حياته في بغداد،
 فلسنا نحسبه فيمن نعد إذا ما ارتحل إليها إلا لياخذ بحق سيبويه أستاذة
 من الكسائي وجهاً لوجه، لا رغبة في منزلة ولا في دنيا يصيبها، لكن
 الكسائي قد تغلب عليه بدهائه وفيده باحسانه، فأقام عنده مؤدب
 أولاده حتى لقي ربه، ولقد كان لاقامته الطيبة مع الكسائي تأثيرها في
 نفسه حتى وافق الكوفيين في مسائل عدة ذات بال، واحتذى حذوهم
 في العناية بالقياس وقد مر في ترجمته بسط المقال في ذلك — هذا وكان قد
 اليزيدي إليها كذلك نفذ إليها (المبرد) بفضل لباقة البادية للخلفاء
 والأمراء فنال مكانته عندهما وبقي ناعم البال فيها، وشارك ثعالباً تعليم

(١) مراتب النحويين ص ١٤٧ ونقل في المزهرة المبحث الماضي

ابن المعتز ولا سيما وقد هدأت فيها المنازعة وكادت تضع أوزارها ، وما أشبه كلا الرجلين اليزيدي والمبرد بالآخر في الوسائل التي أتاحت لهما طيب الحياة ببغداد وإن اختلفت زمناتها ، ألحق أن السياسة هي التي عاضدت الكوفيين وأوجدت منهم رجالا كونوا مذهباً ناضل المذهب البصري ، ولولاها لما ثبتوا أمام البصريين في مساجلاتهم ، بل ولما قهروهم في مواطن كثيرة ظلماً وعدواناً - والدنيا منذ الخليفة مملوءة بالأغراض والشهوات ، والبصريون وإن لم ينصفوا في حياتهم إلا أنهم كوفئوا بعد مماتهم بتفضيل العلماء لمذهبهم وبقاء أغلب مؤلفاتهم تشيد بذكرهم ، أما الكوفيون فلم ينالوا الأمرين فالعلماء يرون مذهبهم في وضعه اللائق به ومؤلفاتهم قد أسدل التاريخ ستاره على كثير منها ، حتى كأن لم تكن لولا تراجم أصحابها التي تطالعنا على مؤلفاتهم ولولا ذكرها عرضاً خلال الكتب في بعض الأحيان لمناسبة ذكر خلاف ، وعلى كل حال فقد كان تلاقى الفريقين في بغداد موجهاً أنظار العلماء فيها إلى عرض المذهبين وانتقادهما

أثر تلاقى الفريقين ببغداد في تنويع النزعات إلى ثلاث

لقد تبينت مما سلف أن الطور الثالث (طور النضوج والكمال) قد تم على يد الفريقين بعد أن توطدت أقدامهما في بغداد بعيد منتصف القرن الثالث الهجري ، ومر عليهما حين من الزمن وهما يتطاحنان في مناصرة مذهبيهما على مرأى من العلماء الذين تنوعت اختياراتهم حينذاك ، فمن مؤيد البصري ومن مؤثر الكوفي ، ومن مازج بين المذهبين ، وإن قل هؤلاء إذ كانت حدة الخلاف بين الفريقين مع كثرة عديدهم

وعظيم شأنهم في حياة المجتهدين من دواعي تغلب الانحياز إلى أحد الطرفين على اختيار مذهب خليف، حتى إذا قضى المجتهدون نحبهم في أواخر القرن الثالث الهجري وأسدل الستار عليهم وانكسرت حدة النزعة الحزبية عرض العلماء المذهبين على بساط البحث والنقد، فاستعرضوا دعائم القواعد، التي تركزت عاميها من الرواية والشواهد والأقيسة ليتعرفوا مقدار هذه القواعد من الصحة والضعف حتى يبتنى حكمهم في الاختيار على أساس غير منهار، وهم ما يزال فيهم فئة تالقت عن البصري، وأخرى عن الكوفي، بينما أخذت عن الفريقين فئة ثالثة

على أنهم بعد هذا في أنفسهم بين محافظ على ترسم خطى سلفه فغلبت عليه النزعة الطائفية، وبين منصف تحلل من قيود الحزبية ونظر إلى العلم نظرة خالصة لا يشوبها عاطفة فأثر مارجح عنده وتمذهب به، فلم يكن غريباً على من ألقته عن بصري أن يجنح بعد إلى إيتار المذهب الكوفي أو المكون منها والعكس بالعكس، كما لم يكن بدعاً على من تتلمذ لهما أن يؤازر أحدهما، نجم عن ذلك كله أنهم اختلفوا طرائق قدا، فكان منهم من غلبت عليه النزعة البصرية، ومنهم من غلبت عليه الكوفية، ومنهم من جمع بين النزعتين - وطبعي أن البلاد الإسلامية التي كانت مستشرفة لهذا العلم قد تأثرت بهذه النزعات لأن بغداد كعبة الجميع، وقد نزح إليها من مصر في ذلك العهد عدد كبير، ساند كرام المشهورين منهم بعد الطوائف الثلاث العراقية، فألهم يرجع الفضل في دخول النحو وكتبه ودراسته البلاد المصرية، ونحن الآن بصدد الطوائف العراقية. ولما كانت أسماؤهم لامعة في سماء الكتب الأدبية واللغوية والأخبارية

اجتزأت بما أترجم لهم دون التنبيه إلى مصادر تراجمهم رغبة في الاختصار،
واكتفاء بشهرتهم الواسعة

فمن غلبت عليه النزعة البصرية

١- الزجاج : هو أبو اسحاق ابراهيم بن السري، ولقب بالزجاج لأنه كان
يخرط الزجاج، نشأ ببغداد وتلقى عن ثعلب ثم عن المبرد في مقابلة أجر معين
دائم، ورفع المبرد من شأنه حتى أدب القاسم بن عبيد الله الذي أخذ بناصره
بعد توليه الوزارة للمعتضد، ثم ساعدته الأقدار ونادم الخليفة المعتضد،
دخل يوماً دار ثعلب ووجد معه أبا موسى الحامض واستطرد الحديث
إلى ذمهما المبرد ثم سيديويه ويونس فانتأظ الزجاج وخطأ ثعلباً في نصف
كتابه (الفصيح)، لما عرض ثعلب لمخطئة سيديويه في الكتاب، إذ تعقبه
باعتراضات عشرة بينما ككتاب الفصيح كله عشرون ورقة، وقد ذكر هذه
الاعتراضات مع البسط- ياقوت في معجم الادباء ترجمة الزجاج، كما ذكرت
أيضاً في الأشباه والنظائر للسيوطي الفن السابع في الجزء الرابع،
وما من ريب أن العصبية المذهبية هي التي حملت الزجاج على تجبيبه ثعلب
وشينه كتابه حتى قيل إن ثعلباً كاد ينكر نسبته بعد إليه، كما أنها حملت
في مقبل الأيام ابن خالويه وهو كوفي النزعة على مخطئة الزجاج في اعتراضاته
على ماستري في ترجمته إن شاء الله - له مؤلفات منها مختصر النحو،
وما ينصرف ومالا ينصرف، وشرح أبيات سيديويه، وكتاب فعلت
وأفعلت، توفي ببغداد سنة ١٣١٠ هـ

٢- ابن السراج : أبو بكر محمد بن السري، نشأ ببغداد وسمع من

المبرد وكان أحدث تلاميذه وقرأ عليه كتاب سيبويه ، ثم انصرف إلى علم
الموسيقى لـكن لم ينشب أن يرجع إلى الكتاب والبحث في المسائل
النحوية ، وبرز في العربية وخلف المبرد في بغداد ، وله من التصانيف
النحوية « كتاب الأصول » قال ياقوت (وهو أحسنها وأكبرها وإليه
المرجع عند اضطراب النقل واختلافه ، جمع فيه أصول العربية وأخذ
مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب) ، وكتاب جمل الأصول ، وشرح
كتاب سيبويه ، والموجز توفي سنة ٣١٦ هـ

٣ - الزجاجي : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق من نهاوند ،
قدم بغداد وسمع من ابن السراج والأخفش ولازم الزجاج فنسب إليه
ومسكن دمشق وانتفع الناس بعلمه ، وله مؤلفات منها في النحو (الجمل)
ولهذا الكتاب حظوة عند المغاربة ، تدانى كتاب سيبويه عند المشاركة ،
ومنها الإيضاح الكافي ، وله كتاب (الأمالي) وهو من الكتب التي
اعتمدنا عليها مصادر لكتابنا ، توفي رحمه الله بدمشق سنة ٣٢٧ هـ

٤ - الصفار : أبو علي إسماعيل بن محمد ، أخذ عن المبرد واشتهر
بصحبه وكان صالحاً أديباً ، ولم يخلف مؤلفاً توفي ببغداد سنة ٣٢١ هـ

٥ - مهدي مان : أبو بكر محمد بن علي العسكري ، سمع من المبرد
وأكثر من الأخذ عن الزجاج ، وبمدحيته في النحو إلا أنه كان غير وقور
صنيداً بالتعليم إلا مع الجزاء المرضي له ، من مؤلفاته النحوية شرح شواهد
سيبويه ، وشرح كتاب سيبويه ولم يتم ، وشرح كتاب الأخفش ، والتأني
توفي سنة ٣٤٥ هـ

٦ - ابن درستويه : أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه
الفارسي ، نشأ بفسا (من بلاد فارس) ، وأقام ببغداد وتلقى عن ابن قتيبة
والبرد وثعلب وغيرهم ، ثم لازم المذهب البصري مع التعصب الشديد له ،
وتصانيفه في غاية الجودة منها في النحو الارشاد ، وأسرار النحو ، والرد
على ثعلب في اختلاف النحويين ، وأخبار النحويين ، وتوفي ببغداد
سنة ٣٤٧ هجرية .^١

٧ - السيرافي . أبو سعيد الحسن بن عبد الله نشأ بسيراف ، وارتحل
إلى عمان في سبيل العلم ثم عاد إلى سيراف ثم اتجه إلى عسكر مكرم ثم
توطن ببغداد وولى القضاء فيها ، تلقى عن ابن السراج ومبرمان وابن
دريد وغيرهم ، دخل على ابن دريد مرة وهو يقول أول من أقوى
في الشعر آدم في قوله .

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم وقل بشاشة الوجه المليح
فقال له يمكن إنشاده على وجه لا إقواء فيه ، وذلك بنصب بشاشة
على التميز ورفع المليح بقل ، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين ، فرفعه
حتى أقعده بجانبه ، نبه شأن السيرافي وخاصة في النحو ، وألف الكتب
القيمة ، فشرح كتاب سيديويه بما لم يسبق إليه حتى حسده أتراكه ،
وله كتاب أخبار النحويين البصريين ، وهذا الكتاب من المراجع التي
اعتمدنا عليها ، توفي ببغداد سنة ٣٦٨ هـ

١ ترجمته في سائر المصادر ، وفي درستويه ضبط آخر راجعهما في وقيات
الآعيان ، وفي القاموس ثالث

٨ - الفارسي : هو أبو علي الحسن بن أحمد ، نشأ بفسا (من بلاد فارس) ثم ورد بغداد فأخذ النحو عن الزجاج ومبرمان وابن السراج وابن الخياط وغيرهم ، ثم طار صيته في الأقطار الإسلامية فاتصل بملوكها ونال الزلفى عند سيف الدولة الحمداني بحلب مدة أوغرت صدر ابن خالويه الذي كان عالم بنى حمدان ، ثم عاد إلى فارس ولقى من عضد الدولة البويهى (فَنَّاخُسَرُو) بن دكن الدولة (حسن) بن بويه فوق الأمل ، فقد كان عضد الدولة يفخر أنه غلامه ، ولما أُلِفَ له كتاب (الايضاح) استصغره فأردفه مغنيًا بكتاب (التكملة) فقال (غضب الشيخ وجاء بما لا تفهمه نحن ولا هو) ، وقد اتبع أبو علي في الايضاح السابقين قبله في شواهد ، فلم يعتمد على شعر المحدثين في أحكامه ، بيد أنه استشهد في باب كان بيت لأبي تمام وهو قوله من كان مصرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا

وهذه الملاحظة عدت عليه ، لكن قالوا الحامل عليها أن عضد الدولة كان كثير الانشاد لهذا البيت ، فاعتماد الفارسي عليه مجازاة له في تقديره لحكمة البيت ، هذا ، وكما كان ابن خالويه واجداً على الفارسي كذلك السيرافي كان حاقداً عليه ، وتلك سنة المعاصرة بين أهل الفضل ، ومن مصنفات الفارسي أيضاً التذكرة ، والمسائل الحلبية ، والبغدادية ، والشيرازية ، وغيرها ، توفي بعد حياة حافلة بالدراسة والتأليف ببغداد سنة ٣٧٧ هـ

٩ - الرُمَّانِي : أبو الحسن علي بن عيسى ، نشأ بالرمّان « بمدينة واسط » ثم وفد إلى بغداد فأخذ عن الزجاج وابن دريد وابن السراج وغيرهم ، ونبغ في العربية مع ميل إلى الفلسفة لأنه معتزلى ، وظهر ذلك في دراسته وتأليفه حتى قال الفارسي (إن كان النحو ما يقوله الرمانى فليس

معنا منه شيء وإن كان النحو ما نقوله فليس معه منه شيء) ومن مؤلفاته
في النحو شرح كتاب سيديويه ، وشرح مقتضب المبرد ، وشرح أصول
ابن السراج ، توفي في بغداد سنة ٣٨٤ هـ

وممن غلبت عليهم النزعة الكوفية

١ أبو موسى الحامض : سليمان بن محمد ، ولقب بالحامض لشراسته ،
لازم ثعلباً زهاء أربعين حولاً ثم خلفه بعد موته ، وكان موهوب البيان ،
مشديد العصبية الكوفية ، له كتب متنوعة ، منها في النحو مختصر ،
وتوفي ببغداد سنة ٣٠٥ هـ

٢ ابن الأنباري : أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ، أقام مع
أبيه في بغداد وأخذ عنه وعن ثعلب وغيرهما ، ثم أربى على الكل لما أوتيته
من حافظة نادرة ، فقد كان يملئ مصنفاته المبسوطة من حفظه مع صدق الرواية ،
ومنها في النحو الكافي والواضح والموضح ، توفي ببغداد سنة ٣٢٧ هـ

٣ - ابن خالويه : أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، نشأ بهمدان ووقد
إلى بغداد وأخذ عن ابن الأنباري وابن دريد وغيرهما ، وقرأ على السيرافي
ثم توطن حلب وعطف عليه سيف الدولة ، وله مع المتنبي مناظرات ، وكان
قصير الباع في النحو طويله في اللغة ، يشهد بذلك ما ساقه في انتصاره لثعلب
عند رده الاعتراضات العشرة التي فند بها الزجاج نصف كتابه (الفصيح)
كما سبق التنويه عن ذلك في ترجمة الزجاج . وقد ذكر ردود ابن خالويه
مبسوطة السيوطي بعد ذكر اعتراضات الزجاج في الأشباه والنظائر
(الفن السابع) في الجزء الرابع ، وغير خاف أن للنزعة الكوفية في نفس

ابن خالويه أثرها في الدفاع عن ثعلب ، ومن مؤلفات ابن خالويه في العربية (ليس) توفي بحلب سنة ٣٧٠ هـ

وممن جمع بين النزعتين

١- ابن قتيبة : هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، ولد بالكوفة ، ونسب إلى الدينور (من بلاد فارس) لتوليه القضاء بها ، أقام ببغداد وسمع من الزيادي والسجستاني وابن راهويه وغيرهم ، وصنف مؤلفات تشهد له بعلو كعبه ، منها في النحو جامع النحو الكبير ، وجامع النحو الصغير ، وشهرته تغني عن التعريف به ، توفي ببغداد سنة ٢٧٦ هـ

٢- ابن كيسان : أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان ، أخذ عن المبرد وثعلب وغيرهما ، ثم ذاع اسمه فكان درسه غاصا بالأمراء والأشراف والدهماء ، والكل لديه سواسية ، وله مصنفات في مختلف علوم العربية منها في النحو المذهب ، والمختار في عالم النحو ، والمسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون ، والفاعل والمفعول به توفي ببغداد سنة ٢٩٩ هـ

٣- الأخفش الصغير : أبو الحسن علي بن سليمان ، وقد مضى الأخفش الأكبر شيخ سيبويه والأوسط تلميذه ، أخذ الأخفش الصغير عن المبرد وثعلب واليزيدي وأبي العيناء ولم يبلغ حد الكمال في النحو فكان يتبرم من السؤال فيه ، وله وقائع مع ابن الرومي انتهت بالصدقة ، ورد مصر ثم عاد إلى حلب ضيفا على ابن مقلة ثم قفل إلى بغداد ، وله مصنفات

منها كتاب التثنية والجمع ، وأخباره معروفة ، توفي ببغداد سنة ٣١٥ هـ
٤ - ابن شقيقير : أبو بكر أحمد بن الحسين البغدادي ، له كتاب

مختصر في النحو توفي سنة ٣١٧ هـ

٥ - ابن الحياط : أبو بكر محمد بن أحمد أصله من سمرقند ، قدم
بغداد بعد وفاة المبرد وضعف ثعلب عن الافادة لسممه الشديد فاستمع من
أترابهما ، وجرت بينه وبين الزجاج ببغداد مناظرة ، وكان دمث الخلق ، وله
من الكتب ، النحو الكبير ، والموجز ، والمقنع ، مات بالبصرة سنة ٣٢٠ هـ

٦ - نفطويه : أبو عبد الله إبراهيم بن محمد المهلب الأزدي من أهل
(واسط) أخذ عن المبرد و ثعلب وغيرهما ثم انتفع الناس بدراسته وكانت بينه
وبين ابن دريد مهاجاة ، وله تصانيف حسان ، منها في النحو المقنع ، توفي
ببغداد سنة ٣٢٣ هـ

نحاة مصر الآخذون عن العراقيين

بحار الناظر في تعرف الأسباب التي أقعدت مصر عن النهوض بهذا
العلم دون مشاطرة العراق في إبان تكوينه ونشوئه حتى أوشك أن ينضج
ويكمل مع توثق الصلات بينها وبين العراق في ذلك العهد ، ومع وفود
العرب الخالص إليها مع الفاتحين كالعرب الذين نزحوا إلى العراق وكانوا مثابة
لنحاته في تدوين النحو والسير به قدما إلى أن تم على أيديهم ، ومع وجود
العلماء الذين يعتمد عليهم وفيهم غناء أي غناء بين ظهرائهم من أمثال
عبد الرحمن بن هرمز الذي استوطن قديما الاسكندرية حتى قضى نحبه سنة
١١٧ هـ وقد مضى في الكلام على واضع النحو أن بعض العلماء عده الواضع له

وأعجب من هذا توافي الشام عن المشاركة في هذا العلم تلك الأيام
السابقة ، فإن للشام بعد هذه الدواعي المساوية فيها مصر امتيازها عنها
بالقرب من العراق من جهة ، واقتراب بادية الشام منها من جهة أخرى ،
فكان سهلاً على علماء الشام اتصافهم بها عن كتب منهم دون اغتراب وعناء
أما بلاد الأندلس فبعد الشقة بينها وبين العراق حال دون اقتفائها العراق
حيناً من الدهر ، ولا سيما إذا أضيف لذلك تقطع الأسباب بين المشرق والمغرب
في فترات اتفق فيها أن كانت النهضة في العراق سائرة إلى الأمام في سبيل
الاستكمال لهذا العلم ، فماتت الأندلس تشتغل بهذا العلم إلا بعد نضوجه
وكماله في العراق ، نعم لا غرابة في سبق العراق القطرين وغيرهما في مزاوله
هذا العلم فقد توافر في العراق أسباب متضافرة تجعله خليقاً أن يكون مهده ،
وقد بيناها أوائل الكتاب في الكلام على وضعه زماناً ومكاناً وعلى مشاهير
البصريين والكوفيين ، إنما الذي نبهت عنه وننشد الآن تعرف الأسباب
التي أخرجت الشام ومصر فلم تتأثر دمشق وحلب ولا القاهرة عاجلاً البصرة
والكوفة وبغداد - والذي يلوح لنا (والله أعلم بالحقيقة) أن العراق كان
دائماً الاتصال بالبلاد الحجازية المقدسة والرحلات بينهما متبادلة ، فسمع
أهل العراق من الصحابة ومن التابعين أحكام الدين فامتد نظرهم إلى ذلك
الأمر الجديد أمر اللغة والمحافظة على سلامتها حتى يكمل لهم الشأن من
جميع نواحيه ، وفي العراق حضارة علمية تليمة سهلت عليهم السير
في تنظيم هذا العلم واستكمال بناءه ، أما القطران فكانا في أشد الحاجة إلى
تعلم الدين وعلومه فغلب على العرب النازلين فيهما داعي الدين والناس
من ورأهم ، فساهم القطران في العلوم الشرعية ونبغ فيهما أئمة في القراءات

والحديث والفقهاء كانوا يعاصرون أئمة العراق فيها - وقصارى القول أن القطرين لم يتجهما لهذا العلم إلا بعد نشوئه ونموه وبوادر استكمالهما في العراق فهبما يذهبان إليه أرسالا للتلقى عن علماء في أخريات الأيام كما ترى ، على أن مصر كانت أسبق من الشام وأكثر وفادة ، ولهذا فأنا نقصر الكلام على علماء مصر في تلك الحقبة وقد تحدث عنهم الزبيدي في (الطبقات) بعنوان خاص بهم بعد البصريين والكوفيين ، كما أفردهم السيوطي في كتابه (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) بمبحث أواخر الجزء الأول ، وقد ذكرت أخبارهم في كتب التراجم موزعة فيها على طباق نظامها ، كالفهرست ، ونزهة الألباء ، ومعجم الأدباء ، وأنباء الرواة ، ووفيات الأعيان ، وفوات الوفيات ، والوفاء بالوفيات ، وبغية الوعاة - ولا يغيب عن الذهن أن علماء هذا العصر هم أصحاب الفضل في دخول النحو مصر دراسة وتصنيفاً ، وقد حملوا معهم إلى مصر بعض مؤلفات المشاركة كما ستري - أما نزعتهم المذهبية فارجعها إلى شخصية شيوخهم ، وستعرف في تراجم شيوخهم ، فلسنا بحاجة إلى أن نعين نزعة كل كما سبق في المشاركة ، وهالك أسماء المشهورين منهم مرتبين بحسب سني وفياتهم .

١ - ولاد : هو الوليد بن محمد التيمي أصله من البصرة ، ونشأ بمصر ثم رحل إلى البصرة يطلب العلم فتلقى عن المهلب تلميذ الخليل وعن غيره فروى كتب اللغة والنحو وحذقهما ، ثم قفل إلى مصر ومعه كتب النحو واللغة التي رواها بأسانيدها ، فهو أول من أدخل كتب النحو واللغة إلى مصر ، وقد بورك له في نسله فكان ابنه محمد وحفيده أحمد

من النحاة المعروفين، وكلاهما مشهور بابن ولاد، وسنذكر ترجمتهما فيما يأتي،
توفي ولاد بمصر سنة ٢٦٣ هـ

٢- أبو علي الدينوري. أحمد بن جعفر الدينوري خاتن ثعلب
وأصله من الدينور، قدم البصرة وأخذ عن المازني كتاب سيديويه، ثم دخل
بغداد فقرأه على المبرد أيضاً مع تحمله الملام من ثعلب، ثم وفد إلى مصر
متوطناً، وله مؤلفات في النحو، منها المذهب، توفي بمصر سنة ٢٨٩ هـ
٣- ابن ولاد: هو أبو الحسين محمد بن الوليد التميمي السابق،
أخذ بمصر عن الدينوري وأبيه وغيرهما، ثم يم بمصر فلقى المبرد وثعلبها،
وجاد بالمال في سبيل نقل كتاب سيديويه من المبرد وقراءته عليه، وبعد التزود
رجع أدراجه إلى مصر، فهو أول من أدخل كتاب سيديويه البلاد المصرية
توفي بمصر سنة ٢٩٨ هـ

٤- ابن ولاد. هو أبو العباس أحمد بن محمد التميمي السابق، فهو نحوي
ابن نحوي ابن نحوي، شدا على أبيه وغيره شيئاً من العربية، ثم صوب
نظره إلى بغداد فسمع من الزجاج وغيره مع معاصره أبي جعفر النحاس
المصري إلا أن الزجاج كان يؤثره على النحاس حتى كان بعد مغادرتها بغداد
يختصه بالسؤال ويشيد بعلمه، ولذا فأنهما أقاما في مصر على نفور دائم
بينهما، ومما زاد قوت العلاقة جمع بعض ملوك مصر بينهما في مناظرة
تلتهما مناظرات احتدم بينهما فيها الشجار، وبسطها السيوطي في الأشباه
والنظائر (الفن السابع فن المناظرات إلخ) في الجزء الثالث، كان أبو العباس
يستحسن آراء الأخفش التي خرج فيها على الفريقين، وله كتاب الانتصار
لسيديويه، وكتاب المقصور والممدود، توفي بمصر سنة ٣٣٢ هـ

هـ - النحاس . هو أبو جعفر أحمد بن محمد المصري ، تلقى مبادئ اللغة العربية في مصر ، ثم ارتحل إلى العراق ، فتلقى عن الأخفش الصغير والزجاج ونفطويه وابن الأنباري وغيرهم ، ثم آب إلى مصر ، وقد سبق الحديث عما حدث بينه وبين ابن ولاد ، كان قوى الذاكرة جيد التصانيف في متنوع العلوم ، من مؤلفاته في النحو كتاب (المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين) ، والتفاحة ، والكافي ، وغيرها

مر عليه المنذر بن سعيد البلوطي الأندلسي وهو يملئ من قصيدة
مجنون لي - لي

قد آسامها الباكون إلا حمامة مطوقه باتت وبات قرينها
فقال له ماذا أعزك الله باتنا يصنعان ؟ فقال وكيف نقول أنت يا أندلسي ؟
فقال باتت وبان قرينها ، فسكت وحقد عليه فمنعه استنساخ كتاب العين ، وكان على علمه وسعة ثقافته وشغف الناس بالأخذ عنه شحيح النفس رث الهيمية ، جلس يوماً على درج المقياس على شاطئ النيل في أيام الفيضان يقطع بيتاً من الشعر فظنه بعض العامة ساحر النيل فرفسه برجله ، فلم يوقف له على خبر وذلك سنة ٣٣٨ هـ

(نشوء المذهب البغدادي على أيدي الجامعين بين النزعتين)
قد مر بك أن فترة من الزمن بعد تلاقى الفريقين في بغداد اختلف فيها اتجاهات العلماء إلى ثلاثة أنحاء ، وقد تمايزت طوائفهم الثلاث تبعاً لاختلاف نزعاتهم ، وكانت الطائفة الخالطة بين النزعتين البصرية

(١) ملاحظة الأندلسي على النحاس مذكورة في معجم الأدباء في كل من ترجمة النحاس و ترجمة المنذر ، وفي نفح الطيب القسم الأول الباب الخامس ترجمة المنذر .

والكوفية تزاوّل المذهبين وتنظر فيهما نظرة غير مشوبة بالعصبية ،
فهي لا بد واجدة رجحان هذا المذهب في مسائل وذلك المذهب في مسائل
أخرى ، وكان عمل هذه الطائفة منبها بعض معاصريهم إلى استقراء ماصح
من القوانين النحوية دون التحيز إلى فريق دون آخر ، فجر ذلك إلى الخلط
بين المذهبين لاستخلاص مذهب منهما مرضى عليه عندهم ، ولقد اتسعت
هذه الحركة ونمت فعما لجها الكثيرون ، حتى احتل مكانا بين المذهبين
مذهب آخر جديد مؤلف من المذهبين بفروق قليلة ، اشتهر ذلك المذهب
بالبغدادى ، إذ كانت أرض بغداد هي التي أفلته وسماؤها التي أظلمته ،
ظهرت بواكيره في أخريات القرن الثالث الهجرى على مرأى من المتنازعين
من الفريقين في الدور الأخير من أدوار سجالهم ، فجعل العلماء يأخذون
من هذا المذهب مسألة ومن ذاك أخرى مثلا ، وهكذا دواليك تبعا
لما ترجح كفتها عند النظر ، وما أهل القرن الرابع الهجرى حتى كثرت قواعد
هذا المذهب الجديد وأيده النظائر له ، واشتهرت طائفة به ، فقام المذهبين
عملا ومزاولة ، وشق له سبيلا معهما ، وامتدت به الأيام قليلا ، فحدث
للنحو به عهد جديد ، قضى أن يعتبر طوراً آخر من أطواره

الرابع طور الترجيح (بغدادى)

سلف أن هذا الطور كان التمهيد إليه على أيدي الخالطين النزعتين ،
وأن أساسه المفاضلة بين المذهبين البصرى والكوفى وإيثار المختار منهما
ولقد أمعنوا في هذا الاختيار ، فاصطفوا مسائل ذات بال مزيجاً
من المذهبين ، على أنهم أسلمهم هذا الاستقراء البالغ خلال تلك الأيام

إلى العثور على قواعد أخرى من تلقاء أنفسهم لا تمت بصلة إلى المذهبين تولدت لهم من اجتهادهم قياساً وسماعاً ، ذلك لأن سلائق العرب ما انفكت سليمة في البوادي إلى أواسط القرن الرابع الهجري كما تقدم ، ومشافهة العلماء لهم حينئذ متيسرة إما بالرحلة إليهم في البادية وهي دانية منهم أو بالسماع منهم في الحضر إذ كان لفيف منهم ينتجعه استجداء للعطاء والتماساً للرزق ، فكان ذلك المذهب في عمومها مافقاً من المذهبين مع بعض قواعد استنبطوها ، وعلى هذا فمسائله إما كوفية أو بصرية أو مبتكرة ، بيد أنه لا يعزب عن الذهن أن مسائل المذهب الكوفي المختارة في أول تكوين المذهب الجديد كانت أكثر من البصرية ، لأن الكوفيين غلبوا على أمرهم ، فكان النفوذ في بغداد لهم ، ولم يلبث هذا الشأن أن تغير بعد حين ، وقد سلف شيء من هذا عند الموازنة بين المذهبين

(فمن القواعد التي ركن فيها البغادة إلى المذهب الكوفي)

- ١ - إعمال اسم المصدر عمل فعله كما تقدم
- ٢ - مجيء (بله) للاستثناء^١
- ٣ - إعطاء المستثنى المتقدم على المستثنى منه حكم المستثنى منه على سبيل القياس ، فيصير المستثنى منه المؤخر بدل كل لأنه عام أريد به خاص^٢
- ٤ - جواز نداء المعروف بأل في الاختيار دون التوصل إليه بأي^٣ أو اسم إشارة^٣ .

(١) المغنى الباب الأول (بله) ، وجمع الجوامع باب الاستثناء

(٢) همع الهوامع باب الاستثناء

(٣) باب المنادي الرضى على الكافية وابن الناطم على الألفية

٥ - عدم تنوين المنقوص الممنوع من الصرف مع الفتح حال الجر^١

٦ - مراعاة لفظ الجمع في العدد فيجرد من التاء في نحو ثلاث حمامات^٢

(ومن القواعد التي عولوا فيها على البصري)

١ - عمل المصدر المنون عمل فعله قال تعالى (أو إطعام في يوم ذي

مسغبة يتيمًا).

(أما القواعد التي استدركوها وراء المستحسن من المذهبين فنكتفي

بالإشارة إلى بعضها)

١ - جواز تعريف الحال مطلقا خلافا للبصريين الموجبين التنكير

مطلقا والكوفيين إن لم يشعر بالشرط نحو عبد الله المحسن أفضل منه المسمى.

٢ - جواز عدم الفصل بين أن المخففة والفعل المتصرف قال الرضى

(وحكى المبرد عن البغاددة علمت أن تخرج بالرفع بلا عوض إلخ)^٣

٣ - جواز بناء اسم لامع ارتباط الظرف والجار به قال الرضى (وحكى

أبو علي عن البغداديين أنهم يحيزون كون الظرف والجار في نحو لا آمر

بالمعروف ولا عاصم اليوم من أمر الله من صلة المنفى المبني إلخ)^٤

٤ - جواز إتياع محل المعطوف عليه مع عدم أصالته قال ابن هشام

بعد ذكره الشرط الأول لصحة العطف عليه (الثاني أن يكون الموضع

بحق الاصاله فلا يجوز هذا ضارب زيداً وأخيه لأن الوصف المستوفى لشرط

العمل الأصل أعماله لا إضافته لالتحاقه بالفعل ، وأجازه البغداديون إلخ)^٥

(١) شرح ابن يعيش مالا ينصرف (٢) شرح الاشموني أول باب العدد

(٣) شرح الكافية نواصب المضارع أن (٤) شرح الكافية اسم لا النافية للجنس

(٥) المغنى الباب الرابع، العطف على المحل

٥ - تقدير عامل النصب في ويحه وأختيها من مادتها قال خالد (وذهب بعض البغداديين إلى أن ويحه وويله وويسه منصوبة بأفعال من لفظها)
 هذا هو نمط المذهب البغدادي الذي زاولة كثيرون ذكرنا بعضاً
 منهم فيمن جمع بين النزعتين ، ولقد مالوا أخيراً في مؤلفاتهم إلى جعل
 المذهب البصري أساساً ، وتلك السنة سرت فيمن بعدهم وما تزال إلى
 أيامنا هذه في أكثر الكتب النحوية ، ظل هذا المذهب مدة مديدة
 اذ كانت بغداد بلد الخلافة ومحج العلماء طراً من أقصى بلاد الاسلام ،
 وإن كانت بغداد مضطربة الأحوال في هذا الحين باستبداد الأتراك بعد
 جرأتهم على الفتك بالخليفة جعفر المتوكل سنة ٢٤٧ هـ

إلا أن ذلك الاضطراب قد نقر قلوب أهل العلم الذين كان معظمهم من
 العرب والفرس ، فأخذوا يتفرقون في البلاد شرقاً وغرباً زرافات ووحدانا ،
 والخلافة تزداد ضعفاً على ضعف حتى انتمثر نظمها بتغلب بني بويه على أمرها ،
 وذلك على يد معز الدولة أبي الحسين أحمد بن أبي شجاع بويه ، فقد دخل
 بغداد من جهة الأهواز في عهد الخليفة المستكفي بالله وقبض على أزمة الدولة
 سنة ٣٣٤ هـ مع بقاء الخلافة صورية في بغداد ، وقد تحصنت الدول الإسلامية
 الجديدة من هذا الوقت في باقي الأقطار ، وبذلك اختصت البويهية الفارسية
 بالعراق وفارس وخراسان إلى أن تغلب عليها السلاجقة التركية سنة ٤٤٧ هـ ،
 كما اختصت السامانية الفارسية بما وراء النهر ، والغزنوية التركية بأفغانستان
 والهندو الحمدانية العربية بمحلب وما بين النهرين والأخشدية التركية فالفاطمية
 العربية بمصر وبلاد المغرب والأموية العربية بالأندلس وغير هؤلاء بأقاليم آخر

وتبع هذه التقاسيم توزع العلماء في مختلف هذه الأقطار، فتنقل هذا العلم في المدائن الإسلامية، وتدرج الانتقال من بغداد شرقاً إلى العراق العجمي خراسان فما وراء النهر، وغرباً إلى الشام ومصر فالمغرب والأندلس، وقامت علماء هذه الدول الحديثة يشتغلون به كل في قطره على طبق ما توحيه إليهم الحياة الجديدة، فأخذ المذهب البغدادي يتلاشى رويداً رويداً

انقراض عقد المذهب البغدادي

لقد ظهر هذا المذهب كما عرفت على أيدي الخالطين بين التزعتين أواخر القرن الثالث، وبلغ أشده منذ أوائل الرابع، واستحكم شأنه تلك المدة التي التأم فيها الفريقان ببغداد إلى أن تضعضع شأن الخلافة العباسية بغلبة البويهيين عليها، فحينذاك تمزق الشمل وتفرق العلماء، وما المذهب البغدادي إلا مذهب العلماء في بغداد، فكما انتثر جمعهم انقرط عقده، ومن هنا يعرف أن انقراض المذهب البغدادي كان على سبيل التقريب بعد منتصف القرن الرابع الهجري، وبعبارة أخرى بعد انصرام النصف الأول تقريباً من عمر الدولة العباسية، نعم إن روح المذهب البغدادي بقيت حية في العراق العربي وما يليه شرقاً إلى حين، لتقارب هذه البلاد وتماثل نزعات ذوي الشأن فيها، ويرى العلماء على حسب الاصطلاح المتواطأ عليه بينهم أن انقراض عقد المذهب البغدادي يعتبر حداً فاصلاً بين المتقدمين والمتأخرين

انتهاء المتقدمين وابتداء المتأخرين

لا ريب أن انتشار عقد المذهب البغدادي الناشئ عن انحلال عروة الدولة الإسلامية على يد البويهيين لم يصحبه تحديد الزمن الحقيقي

في الفصل بين المتقدمين والمتأخرين ، فابرح المتقدمون قبل الانتثار من
العلماء أحياء على اختلاف في تفاوت أزمنتهم بعد قصر أو طولاً ، وجدير
بهؤلاء أن يحفظ لهم ما كتسبوه قبله وأن يعدوا في مصاف المتقدمين ،
وأما من نشأ من العلماء قبيله وامتدت أيامه وعاصر من جاء بعده فيسرى
عليه وضعه ويعد في جماعة المتأخرين ، فنشاط العنوانين في الحقيقة راجع إلى
طول المعاصرة للجيل المتقدم أو المتأخر - ومن ثمة اعتبر العلماء أبا على الفارسي
وأضرابه من المتقدمين ، واعتبروا ابن جني تلميذ أبي على الفارسي وأتراب
ابن جني من المتأخرين ، وبذلك سهل التقريب لمعرفة المتقدمين والمتأخرين
فالمتأخرون عندهم يبدأون من العلماء الذين قاموا بنهضة هــ هذا الفن
بعد انقراط المذهب البغدادي ، واشتغالهم بعلم النحو في الممالك الإسلامية
الحديثة لا تجمعهم زعامة في قطر دون آخر ، لبثوا كذلك يتشاطرون الرفع
من شأنه ، ويتنافسون في الاستزادة منه فأبدعوا في مصنفاتهم وافتنوا
في تلوين عرض هــ هذا الفن بصور مختلفة ، وأدوا رسالتهم خير تأدية ،
وما فتموا جادين في خدمة هذا العلم حتى آذنت شمس الدولة العباسية بالمغيب
سنة ٦٥٦ هـ فسقط كثير من هذه الممالك الإسلامية وطوبت صفحاتها
حينئذ من الدهر ، فوهنت فيها اللغة العربية نفسها وخفت صوت هذا الفن
وبذلك اتحصر الكلام في مطلبين (الأول) في حالة هذا العلم ورجاله
في عهد الدول الإسلامية الحديثة المتعاصرة من عهد بني بويه إلى سقوط
بغداد ، و (الثاني) من سقوط بغداد إلى أيامنا الحاضرة

✽ المطلب الأول علم النحو وعلماءه في عهد الدول الإسلامية المتعاصرة ✽
إن تعدد هذه الدول الحديثة وإن فت في عضد الدولة الإسلامية

إلا أن تنافس ملوكها على اختلاف أصولهم من فارسي وتركي وعربي
 حملهم على مناصرة علمائهم استكمالاً لاستقلالهم الجديد ، وقد تبع ذلك أن
 العلماء أنفسهم تأثروا بهذه الروح فتغيرت تقاليدهم النسبية إذ كانوا قبلاً
 ينتسبون غالباً إما إلى أصولهم كالدؤلي والمازني والجرمي والزيادي والاحمدي ،
 أو صناعاتهم كاهراء والزجاج والنحاس ، أو ما يتصل بهم على وجه ما
 كالسكسائي والزجاجي ، فصاروا ينتسبون بعدئذ بكثرة إلى الأقطار
 المقيمين بها أو المدن التي نشأوا فيها ، فتيل البغدادي والثماني والتبريزي
 والزنجشري والأنباري والعكبري والسهميلي والأشبيلي والبطليموسي
 والمصري والحلبى والدمشقي ، وما إلى ذلك مما استراه كثيراً إن شاء الله تعالى
 فاتسعت الحركة العلمية بعد حصرها في دائرة ضيقة ونشطت بعد
 خمود خيم عليها حيناً ، وقد اجتمع علماء كل مملكة في داخلها لقلة التواصل
 بين الممالك من كثرة الفتن والاضطرابات ، فكثرت آراء العلماء الفردية
 وتراكمت سبب الخلافات ، وتنوعت التعاليمات النحوية ، وتضخمتم
 المؤلفات ، إلا أنه لم يعرض مذهب جديد خاص بمجتمعة في قطر ، غير أنه
 لما أقبلت الأندلس عليه في عصرها الزاهر واستكانت أقطار المشرق
 لما انتابها استحدثت الأندلس مذهباً رابعاً سنده عنده لمحة في موطنه .
 وعلى الجملة فقد كان هذا العصر ذهبياً لهذا العلم ففيه صنفتم
 الموسوعات ، واكتشف المكنون من أصدافه ، وتعددت ألوان صورته
 المختلفة في عرضه لاختلاف مشارب الأقطار في مناحيهم الفكرية مع
 إصابة الجميع الهدف المقصود ، بل كان هذا العصر كما يلميه الواقع ذهبياً
 لعلوم اللغة العربية كفة رغم أنه عصر ضعف وانحلال في رابطة الدولة

الاسلامية ، فإنه قلما عكف بعض علمائه على النحو وما يتصل به ،
وبعضهم على الأدب وما يرتبط به ، وبعضهم على اللغة وما يتبعها ، شأن
السابقين قبلهم في تخصصهم ، بل اتسعت آفاق مباحثهم وبدلوا عنايتهم
في متنوع فروع العربية فأحاطوا بها مع اختلاف نسبي في العناية ببعض
دون البعض ، ولذا فإن كثير أممهم ربما عده مؤرخو الفنون مرة في اللغويين
وثانية في النحويين وثالثة في الأدباء ورابعة في الأصوليين ، فابن جنى
والتبريزي والزبيدي والبطلاني لغويون نحويون أدباء ، وكذا كثير
منهم ممن لست في حاجة إلى التعريف عنه الآن فستعرف ذلك في ترجمته ،
بل إن بعضهم تجاوز أفق العلوم العربية إلى علوم الشريعة ، فالزنجشري
لغوى نحوى صرفى بلاغى أديب مفسر متكلم ، وابن الحاجب أصولى
نحوى فقيه ، وقد امتدت تلك الظاهرة الجديدة إلى من بعدهم من العلماء ،
ومع هذا فإن الذى سوغ لنا ذكر من نذكر في النحويين شهرتهم الذائعة
في النحو دراسة وتأليفها

نعم كانت هذه الأقطار مختلفة المشارب في نهجها العامى ، تماثل وتتقارب
وتتباعد بمقدار الاتصال والانفصال في مواقعها ، فلذا كانت العراق وفارس
وماوراءهما شرقا وتشابها في مسلكهما ، والأندلس والمغرب يتدانيان في مأخذهما ،
والشام ومصر يتلاقيان في موردتهما ، وقد بدا لنا تقسيم الحديث عن هذا العلم
ورجاله في هذا المطلب على هذا الاعتبار إلى ثلاثة فصول ، غير أننا سندع
في تراجم رجال هذا العهد الإشارة إلى مصادر أخبارهم للاختصار ، ولأنهم
من الشهرة بمكان ، فكتب الأدب واللغة والأخبار ملائى بالأحاديث عنهم

الفصل الاول

(علم النحو في العراق وما يليه شرقا وعلماؤه)

إن هذه البلاد وإن كان الغالبون عليها ممن لا يمتنون إلى أصول عربية إلا أنهم كانوا على علوم اللغة العربية أحذب من الخلفاء قبلهم ، فسخطوا ببدر الأموال في رفع منارها ومكافأة المبرزين في علومها ، بل قد حبيب إلى كثير من أولى الشأن فيهم مشاركة العلماء في هذا الشرف الأدبي فنالوا فيه مرتبة محمود ، ولم يفت جلهم الحرص على أن تتوج مؤلفات علماهم بأسمائهم ، فمن ذلك كتاب الايضاح والتكملة لأبي علي الفارسي إذ صدرها بالآهداء لعضد الدولة البويهسي ولهما حكاية طريفة ألعنا إليها في ترجمته ، وما ذلك إلا لأنهم يرونه مما يزيد في أهتمامهم ويكبرهم في عيون شعوبهم ، ولم يك عصر الدولة السلجوقية بعد الدولة البويهية بالعراق أقل نصراً للنحو وعلوم اللغة ، فللمدرسة النظامية التي أنشأها في بغداد نظام الملك (أبو علي الحسن ابن إسحق بن العباس وزير السلطان ألب أرسلان وولده السلطان ملك شاه وقتل رحمه الله عامه سنة ٤٨٥ هـ) الأثر الحسن في توجيه الخلق إلى التعليم فنبغ بفضائها عدد وفير من العلماء ، وهي أول مدرسة بنيت ببغداد خاصة بالتدريس فكان قبلها في المساجد الجامعة وجعلت فيها الرواتب للمدرسين وللطلبة ، وأجريت عليهم الجرايات ، وسترى في تراجم العلماء أن منهم الأساتذة فيها وأن منهم من تلقى بها ثم رقى إلى الدراسة فيها ، فكان لازماً لهذا وذاك أن كثير الانتاج للمؤلفات النحوية ، وأربنى عدد المشتغلين بالنحو ممن كانوا قبلهم في هذه البلاد ، غير أنهم كانوا يترسمون

خطاهم في المذهب البغدادى ، وإن تحللوا في أخريات أيامهم من الوقوف
عنده فاستباح كل لنفسه أن يرتضى ما يشاء من المذاهب الثلاثة ويقول
ما يراه في نفسه ، ولسنا بحاجة إلى ذكر أمثلة نبين فيها مختلف آرائهم
في جزئية ، فإن أقوال العلماء الذين نحن بصددهم منشورة مشهورة في كتب
النحو ، ولقد استمر نشاط هؤلاء المشاركة إلى أن دهمتهم حوادث التتر
فصرفتهم عن العناية بهذا العلم ، وهالك مشاهيرهم مرتبين بحسب وفياتهم
مع ذكر بعض مؤلفاتهم

١- ابن جنى : هو أبو الفتح عثمان ، وأبوه جنى (معرب كنى) مملوك
روى لسلیمان بن فهد الأزدي ، ولد أبو الفتح بالموصل ممتعاً بأحدى عينيه
وتلقى عن علماء الموصل ولم ينشب أن تصدر بها للدراسة يافعاً ، فر الفارسي عليه
وسأله والناس حوله فلم يحرجوا با فقال له (تزييت وأنت حصرم) فلأزمه
بعدئذ ، ثم خلفه بعد وفاته في بغداد ، وملاً اسمه الأسماع ، وحذق علوم
اللغة العربية ، واستحق بجدارة أن يكون إمام المتأخرين ، ارتحل إلى حلب
كثيراً وتناظر مع المتنبي فيها ، ثم توثقت بينهما أواصر المحبة ، ومؤلفاته
تتبع الألف-كارفاتها مع كثرتها غاية في الاتقان ، منها في النحو الخصائص ،
وسر الصناعة ، والمحتسب ، واللمع . توفي ببغداد سنة ٣٩٢ هـ

٢- العبدى : هو أبو طالب أحمد بن بكر العبدى (نسبة لعبد القيس)
تلقى النحو عن السيرافى والفارسي والرماني . وجد في علوم اللغة حتى عرف
بالافتنان في العلوم مع صحة النظر في القياس ، ومن مؤلفاته شرح كتاب
الجرى ، وشرح الايضاح للفارسي ، واختل عقله آخر حياته . توفي سنة ٤٠٦ هـ
٣- الرّبعى : هو أبو الحسن علي بن عيسى المشهور بالربعى (نسبة إلى ربيعة)

قال ابن خلكان (ولا أدري أهو ربيعة بن نزار أم غيره) أخذ عن السيرافي ببغداد ، ثم ارتحل إلى شيراز فلزم الفارسي عشرين عاماً ، ثم آب إلى بغداد وتصدر للإفادة ، غير أن شدوذه الخلقى نفر الناس منه فقد تبذل في المجون إلى غير حد ، ودأب على قتل الكلاب ومطاردتهم ، ومن تصانيفه النحوية شرح إيضاح الفارسي ، وشرح مختصر الجرمي ، والبديع ، توفي ببغداد سنة ٤٢٠ هـ

٤ - الثمانيني . هو أبو القاسم عمر بن ثابت الضرير نشأ بالثمانين (بلد بالموصل بناها الثمانون الخارجون مع نوح عليه السلام من السفينة عند الجودي) ، وتلقى عن ابن جني ، ومن تصانيفه النحوية (المفيد) ، كان منافساً لابن برهان ، ودرساً بكرخ بغداد ، فأنحاز إليه دهاء الناس وإلى ابن برهان خواصهم ، توفي ببغداد سنة ٤٤٢ هـ

٥ - ابن برهان : هو أبو القاسم عبد الواحد بن علي العكبري ، كان أول أمره منجماً ، ثم نظر في النحو واشتهر فيه إلى أن استقدمه إلى بغداد وزيرها عميد الدين فنال حظاً وفيراً ، غير أنه كان سىء البزّة ، ومع هذا كان الأمراء والسوقة يجلبونه لدينه وورعه ، توفي ببغداد سنة ٤٥٦ هـ

٦ - التبريزي : هو أبو زكريا يحيى بن علي بن الخطيب الشيباني من تبريز (من أكبر مدن أذربيجان) ، هاجر في سبيل العلم فسمع من أبي العلاء المعري وابن برهان وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم ، زار البلاد المصرية ولبت فيها أياماً تلقى عنه فيها ابن بابشاذ ، ثم أقام ببغداد ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ، وطبقت شهرته الأرجاء فقصده الخلق يفيدون من عرفانه ، ومصنفاته العديدة برهان صدق على تفوقه في علوم اللغة

العريضة ، منها في النحو مقدمة ، وشرح اللمع لابن جني ، تجاوز الله عن
سيئاته فانه أدمن شرب الخمر ولبس الحرير وذهب العمامة ، توفي فجأة
ببغداد سنة ٥٠٢ هـ

٧ - الفصيحى : هو أبو الحسن على بن محمد من أستراباذ
(من مدن طبرستان) تلقى النحو عن عبد القاهر الجرجاني ، وعرف بالفصيحى
لما لزمته (فصيح ثعلب) في دراسته ، قدم ببغداد ودرس النحو بالمدرسة
النظامية بعد التبريزى ، ولما اتهم بالتشيع أخرج منها ورتب بدله الجواليقي ،
توفي ببغداد سنة ٥١٦ هـ

٨ - ملك النجاة : هو أبو نزار الحسن بن صافى ، أبوه مولى
الحسين الأرموى التاجر ، ولد الحسن ببغداد فأخذ النحو عن الفصيحى
وغيره ثم سافر إلى واسط وإربل وخراسان وكرمان وغزنة ، وقصد الشام
فلبث في دمشق مدة طويلة وخرج منها ، ثم عاد إليها ورغد عيشه فيها
برعاية نور الدين محمود بن زنكى ، كان معترفاً بنفسه فاستخف بمن قبله ،
لقب نفسه ملك النجاة وكان يسخط على من لا يخاطبه بذلك ، ومن مصنفاته
النحوية الحاوى ، والعمدة ، والمسائل العشر المتعبدات إلى الحشر ،
وقد تحدى بها علماء العصر ، وهى مذكورة بنصها في سفر السعادة
للسخاوى ، ونقلها السيوطى عنه في الأشباه والنظائر (الفن السابع)
في الجزء الثالث ، وممن أجاب عنها ابن برى المصرى كما سنذكر في ترجمته ،
توفي الملك بدمشق سنة ٥٣٨ هـ

٩ - الزمخشري : هو أبو القاسم محمود بن عمر جار الله ، ولد بزمخشري
(بلد بخوارزم) ، وتلقى عن النيسابورى وغيره ، ثم أربى على من تقدمه

وغداً الامام المعلم في كثير من الفنون ، فشئت إليه الرحال وكان معتزلي
العقيدة ومؤلفاته بأيدينا تغنيان عن الاشادة بمعارفه ، منها في النحو والنموذج ،
والأمالي ، والمفرد والمؤلف ، والفصل ، وعن العلماء بالمفصل شرحاً وتعليقاً ،
فن أشهر شروحه شرح ابن يعيش : وشرح الاندلسي - ولما وصل بغداد
قاصداً الحج احتفى به ابن الشجري وتبادلا تحية يحمل بالادباء تعرفها
ذكرت في ترجمته في نزهة الألبا ، ومعجم الادباء ، وفي ترجمة ابن الشجري
في وفيات الأعيان ، وبعد أن جاور حرم مكة مدة قفل إلى وطنه
فمات به سنة ٥٣٨ هـ

١٠ - ابن الشجري : هو أبو السعادات هبة الله بن علي الشريف
البغدادى ، قال ياقوت (نسب إلى بيت الشجري من قبل أمه) ، أخذ عن
ابن طباطبغا والتبريزي وغيرهما ، ثم تفرد بالزعامة في بغداد ، فقد توافر فيه
من كرم النجار وغزارة العلم وحسن الحظ ما هيأه له ، ومن تصانيف
ابن الشجري (الأمالي) وهو سفر ممتع مشتمل على فنون من الآداب
أملأه في أربعة وثمانين مجلساً ، وقد التمس سماعه منه ابن الخشاب
الآتى ذكره ، ولما لم يجبه إلى سماعه فأحفظه حتى إذا وقف عليه خطاه
في كثير مما فيه ، فأحرق ابن الشجري ونهض للرد عليه في كل ردوده
وألف من ذلك كتاباً سماه (الانتصار) وهو على صغر حجمه مفيد جداً ،
ومن مؤلفاته النحوية شرح اللمع لابن جنى ، وما اتفق لفظه واختلف معناه ،
وقد ترجمه ترجمة قيمة تليق به الأنبارى الآتى ذكره ، والترجمة آخر
التراجم من كتابه نزهة الألبا ، وصل سنده فيها الأنبارى بعد شيخه

إلى أبي الأسود إلى علي كرم الله وجهه ، توفي ابن الشجري بالكرخ من

بغداد سنة ٥٤٢ هـ

١١ - ابن الخشاب : هو أبو محمد عبد الله بن أحمد البغدادي أخذ

النحو عن الجواليقي والفصيحى وابن الشجري وغيرهم ، حتى عد من أعلم أهل وقته فيه مع الخطوة الكبرى فى سائر الفنون فذاع اسمه وكان حسن الخط والخط فانتفع الناس به ، إلا أنه كان بخيلاً متبذلاً فى ملابسه قليل المبالاة بالمحافظة على ناموس العلم ، لم يتزوج ولم يتسر ، وله مصنفات فى النحو وغيره ، فمن النحوية شرح جمل الزجاجى ، والرد على ابن بابشاذ ، وغيرهما ، توفي ببغداد سنة ٥٦٧ هـ

١٢ - ابن الدهان : هو أبو محمد سعيد بن المبارك البغدادي ، أخذ

عن مشايخ العصر ، ثم عد فى أعلام بغداد فكان يقال فى عصره النحويون ببغداد أربعة : الجواليقي ، وابن الشجري ، وابن الخشاب ، وابن الدهان . وله مصنفات نحوية منها شرح الايضاح والتكملة لأبى علي ، والفصول الكبرى ، والفصول الصغرى ، والدروس وغيرها ، خرج من بغداد قاصداً دمشق فاعترضه فى الطريق بالموصل وزيرها جمال الدين الاصفهاني وقيدته باحسانه فأقام فى كنفه إلى أن مات بها سنة ٥٦٩ هـ

١٣ - الأنباري . هو أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد

الأنباري سمع من أبيه فى الأنبار ، ثم نزح إلى بغداد وتعلم بالمدرسة النظامية فأخذ عن الجواليقي ، ولازم ابن الشجري ، ثم تبحر فى علوم اللغة العربية وتيمن الناس به فتخرج على يده الكثير ، وكان محمود السيرة وخلف مصنفات متنوعة نالت رواجاً ، ولتقتصر هنا على ما طبقت شهرته

العالم العربي ، قنمها أسرار العربية ، والأنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين ، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء ، وهذه الكتب مما لا غنى لطالب العربية عن الانتفاع بها ، وهى من المراجع التى اعتمدنا عليها فى هذا الكتاب ، وقد سلف التعريف عن كتاب (الأنصاف) عند الكلام على نتائج الخلاف بين المذهبين البصرى والكوفى بما تبين منه ما احتواه من مسائل الاختلاف وأن صغوا الأنبارى مع البصريين ، ومما تجب ملاحظته أن صاحب الترجمة غير ابن الأنبارى السابق ترجمته فيمن كانت نزعتة كوفية ، توفى الأنبارى ببغداد سنة ٥٧٧ هـ

١٤- المَطْرَزَى هو أبو الفتح ناصر صدر الأفاضل بن أبى المسكارم عبد السيد الخوارزمى ، ولد بخوارزم فى السنة والبلدة التى مات فيها الزمخشري ، ولذا قيل له بعد خليفته لأنه كان يدعو إلى الاعتزال ، قرأ على أبيه وغيره فنبح فى العربية ودرس وصنف ، فمن مؤلفاته النحوية المصباح ، والمقدمة المطرزية ، ومن آرائه النحوية أن (سحر) مبنية عند قصد التعيين ، ورد عليه ابن الناظم فى شرحه على قول أبيه

والعدل والتعريف مانعا سحر إذا به التعيين قصدا يعتبر بأوجه ثلاثة نقلها عنه خالد فى التصريح ، ثم الأشمونى فى شرحه ، توفى المطرزى بخوارزم سنة ٦١٠ هـ

١٥- الكِنْدَى : هو أبى اليمن زيد تاج الدين بن الحسن ، ولد ببغداد وتلقى العلوم عن جملة العصر فقرأ النحو على ابن الشجرى وابن الخشاب وغيرهما ، ثم قصد حلب للتجارة منها إلى بلاد الروم مدة طويلة ، ثم رحل إلى دمشق وفيها طاب له المقام فى كنف الأمير (فروخ شاه)

ابن أخى السلطان صلاح الدين الايوبى حتى استوزره ؛ فدرس وأفاد
وازدحم الطلاب على الاخذ عنه ، وسمع منه الملك (عيسى) الايوبى
كتاب سيديويه ، وشرحه لابن درستويه ، وإيضاح الفارسي ، توفي بدمشق
سنة ٦١٣ هـ

١٦- العُكْبَرى : هو أبو البقاء عبد الله الضرير بن الحسين أصله من
عُكْبَرَا (بَلَمِيْدَة على دجلة فوق بغداد) ، ولد ببغداد وتلقى النحو عن
ابن الخشاب وغيره ، ثم حاز قصب السبق فى علوم اللغة العربية ، حتى لم
يكن فى آخر حياته من معاصريه من يضارعه فيها وتصدر لتعليم الناس
وغلب عليه اتجاهه إلى النحو ، وقد سبق أنه كوفى المذهب ، وله مصنفات
مفيدة ؛ منها فى النحو شرح الايضاح لأبى على ، وشرح اللمع لابن جنى ؛
وشرح المفصل للزمخشري ، والتبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين
والكوفيين ، ومضت كلمة عن هذا الكتاب عند ذكر مسائل الخلاف
بين الفريقين تعرفت منها أن هذا الكتاب يظن ظناً مسامحاً لليقين أنه
آثر المذهب الكوفى فى كثير مما فيه ، يشهد لقوة هذا الظن ما ذكره
العكبرى نفسه فى شرحه لديوان المتنبي عند المناسبة لذكر الخلاف ،
فكما عزز الأنبارى المذهب البصرى عزز العكبرى المذهب الكوفى ،
توفى رحمه الله ببغداد سنة ٦١٦ هـ

١٧- ابن الخباز . أحمد الضرير بن الحسين ، نشأ بأربل وتلقى العلم
بالموصل واشتهر قدره ، ومن مصنفاته النحوية النهاية ، وشرح ألفية
ابن معط ، توفى بالموصل سنة ٦٢٧ هـ

الفصل الثاني

علم النحو في مصر والشام وعلماءه

قد مضى أن القطرين في عصورها الأولى لم يكونا مهدياً وثيراً
لنحو كما كانت بلاد المشرق ، وحانت منهم التفاتات في أخريات الأيام
إلى النحو فظعنوا إلى العراق وسمعوا من علمائه ثم نشروه في القطرين
غير أنهم كانوا يعيدون على الأصابع وقد ذكرنا أشهرهم سابقاً ،
وفي غضون هذه المدة وقبيلها وبُعَيْدِهَا ورد بعض علماء العراق الشام
كالزجاجي والفارسي وابن خالويه وابن جني ، وبعضهم مصر كالتبريزي
فقد عرفت في ترجمته أنه أقام بمصر فترة من الزمن تلقى عنه فيها ابن بابشاذ ،
وبعضهم القطرين كالأخفش الصغير - غير أن ورود العلماء إلى القطرين
يعتبر كرحلات في بلادهم الإسلامية فلا يترتب عليه آثار تجعل القطرين
كالعراق مبعث العلم ، نعم كان لتشجيع بن حمدان في الشام وتمجيدهم العروبة
وعلماءها لأنهم عرب - الداعي القوي في تحبيب العلماء الإقامة في الشام ،
فقد سبق أن ابن خالويه توطئها في ذرا سيف الدولة حتى توفي بحلب ،
ومن قبله الزجاجي الذي ما برح الشام حتى توفي بدمشق ، ومن بعده
ملك النخاعة الذي نعم بخفض العيش في دمشق تحت ظلال نور الدين محمود
ابن زنكي ، كما عرفت في ترجمته

ظل القطران كذلك حتى قيصت لهما دولة الفاطميين التي كانت أوفر
عناية مما قبلها وبخاصة في الدواوين إذ كانت تعتمد إلى تعيين المراقب عليها
من عرف بالنحو وعلوم اللغة العربية فلا تصدر مكاتبتها إلا بعد وقوفه

عليها وموافقة ما فيها لأن الدولة عربية ، وممن تولى هذا المنصب فيها ابن بابشاذ وابن بري ، ثم أعقبتهما الدولة الأيوبية ولم تقصر شأوا عنها في هذا المضمار وإن كانت كردية الأصل ، فقد بلغ الأمر بالملك عيسى الأيوبي صاحب دمشق (أنه قد شرط لكل من يحفظ الفصل للزخشرى مائة دينار وخلعة حفظه لهذا السبب جماعة)^١

لهذا نشأ بالقطريين في هذا العهد بعض علماء النحو الذين أخذوا عن أسلافهم من القطريين فكانوا يقتفون كمن سبقهم من العلماء مذاهب العراقيين لأنهم تلقوا نحوهم عنهم قبل إقفار المشرق من هذا العلم وعلمائه ، وقد توارد إليهم في هذا الحين فئة من المغاربة في عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية ، وليس بخاف أن المشتغلين بالنحو في القطريين لهذا العهد وإن زادت نسبتهم عن سابقيهم نسبياً فقد كانوا قايلى العدد ولم تمتد أيامهم ، على أن الشام كانت أو كس نصيباً من مصر لكثرة الشغب بها من عدوان الصليبيين والتمتر حيناً بعد آخر ، حتى آل الأمر إلى الممالك وولى المسلمون وجوههم شطر القطريين بعد أن عصفت العواصف بالخلافة فحدثت نهضة جديدة بالتقدير لهذا العلم ، والكلام عليها في المطلب الثانى إن شاء الله ، ودونك أشهر العلماء في القطريين مرتبين حسب وفياتهم

أشهر علماء القطريين

١- الحَوْفَى . هو أبو الحسن على بن إبراهيم ، وأصله من شبر النخلة (من حوف بلسيس) بمديرية الشرقية ، ورد القاهرة

(١) راجع ترجمة الملك عيسى في وفيات الأعيان ، وفي شذرات الذهب

فسمع من أبي بكر الأدفوى وبعض علماء المغرب الذين نزحوا إلى القاهرة ،
وسرعان ما اشتهر علمه وأدبه ، فتصدر لأقراء العربية ، وصنف في النحو
(الموضح) استوفى فيه العلل والأصول ، توفي سنة ٤٣٠ هـ

٢- ابن بابشاذ . هو أبو الحسن طاهر بن أحمد المصري ، وأصله
من الديلم ولد ونشأ بمصر ، ثم وفد إلى العراق لتجارة اللؤلؤ فجنحت
نفسه إلى تلقي العلم عن علمائه وفتح عليه ، ثم قفل إلى مصر وتصدر للأفادة
في جامع عمرو بن العاص ، وتولى منصباً رفيعاً في ديوان الانشاء للفاطميين
حتى لا يخرج منه كتاب إلا بعد عرضة عليه ، وله مصنفات نحوية ،
منها شرح الجمل للزجاجي ، وشرح الأصول لابن السراج ، والتعليق
المشهور بتعليق الغرفة ، وقد انقطع آخر أيامه لعبادة الله في جامع عمرو
وعلا سطحه في ليلة مقمرة وبعينه ببيعة من النوم فزلت قدمه ومات
سنة ٤٦٩ هـ .^١

٣- ابن برقي : هو أبو محمد عبدالله بن برقي المصري ، وأصله من
المقدس ولد ونشأ بمصر فأخذ عن الشنتريني النحوي وغيره ، وشاع علمه
فانتفع بالتلقى عنه خلق كثير ، ورأس ديوان الرسائل كابن بابشاذ ،
وله مصنفات نحوية منها جواب المسائل العشر التي سأل عنها ملك النحاة
وتقدم الارشاد إلى موطنها في ترجمته ، أما مؤلفاته اللغوية فكثيرة ،
ومع طول باعه في علوم اللغة كان يرسل كلامه كيفما اتفق ، وكانت فيه
غفلة عجيبة ، توفي بمصر سنة ٥٨٢ هـ

(١) بابشاذ كلمة أعجمية بسكون الباء الثانية أو كسرهما ، وباعجام الذال أو
اهلها معناها الفرح والمرور ، وترجمته في المعجم ، وأنباء الرواة ، والوفيات ،
وحسن المحاضرة ، وبغية الوفاء

٤ - ابن معط : هو أبو الحسين يحيى زين الدين بن معط الزواوي ، ولد بالمغرب من قبيلة زواوة ، سمع من الجزولي وابن عساكر ، ثم رحل إلى دمشق واستوطنها ، وفيها انتفع الخلق بعلمه دراسة وتصنيفاً ، ثم أرغبه الملك الكامل الأيوبي في القدوم إلى مصر فتصدر بالجامع العتيق لدراسة النحو والأدب على أجر جزيل ، ومن مصنفاته النحوية (الألفية) التي أشار إليها ابن مالك في مستهل ألفيته ، وشرح الجمل للزجاج ، توفي بالقاهرة ودفن بالقرب من الإمام الشافعي سنة ٦٢٨ هـ

٥ - ابن يعيش : هو أبو البقاء يعيش موفق الدين بن علي بن يعيش نشأ بحلب ، وتلقى النحو عن فتيان الحلبي وغيره ثم ارتحل إلى بغداد أملاً في السماع من كمال الدين الأنباري لكن شاء القدر ألا يراه ، فقد توفي قبيل وصوله بغداد فعرج على الموصل ولبت بها مديدة ، ثم عاد إلى حلب ولما عزم على التصدر للأفراء رحل إلى دمشق فالتقى بالشيخ تاج الدين السكندري السالف ترجمته ، ثم سألته عن مسائل كثيرة ، ومنها إعراب ما ذكره الحريري في المقامة الرحبية العاشرة وهو (حتى إذا لآلئ الأفق ذنبُ السرطان ، وأن أنبلج الفجر وحان) فاستبهم الإعراب على السكندري ثم قال له إنك أردت إعلامي بمكانتك وكتب بخطه شهادة بالثناء عليه ، ثم قفل ابن يعيش بعد هذا التطواف إلى بلدة (حلب) واستقر فيها للافادة فانتفع الناس به حتى دان له رؤساؤها بالتمذة ، وله شرح على (المفصل) في غاية الجودة ، وشهرته تغني عن التعريف به ، ولولا ضيق المجال لكتبت كلمة عنه أعرض فيها مزاياه وقد أفاض في ترجمة ابن يعيش تلميذه ابن خلكان في وفيات الأعيان فقد تلقى عنه معظم كتاب (اللمع) لابن جني ، ونعته

بالعلم والظرف والكياسة وخفة الروح ، توفي رحمه الله ودفن بترتبه
بالمقام المنسوب إلى سيدنا ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام سنة ٦٤٣ هـ
٦ - السخاوى . هو أبو الحسن على علم الدين بن محمد ، ولد في سخا
(بمديرية الغربية) تلقى العلم عن البوصيرى وغيره ، ثم انتقل إلى دمشق
وسمع من الكندى وغيره ، وأربى على معاصريه مع الخلال الحميدة فازدحم
الطلاب عليه في جامع دمشق ، ومن تصانيفه النحوية شرح أحاجى
الزنجشبرى ، وشرح المفصل ، وله ألغاز في النحو بديعة ، توفي بدمشق

سنة ٦٤٣ هـ

٧ - ابن الحاجب : هو أبو عمرو عثمان جمال الدين بن عمر الكردى
الأصل المشهور بابن الحاجب لأن أباه كان حاجباً للأمير عز الدين موسى
الصلاحى بالقاهرة ، ولد ابن الحاجب بأسنا ثم تعمد أبوه بالقاهرة فحفظ
القرآن ولما يافع ، وتلقى العلوم عن الشاطبى وغيره فتبحر في العربية حدثاً ،
ثم انتقل إلى دمشق فأكب الناس عليه في متوع الفنون إلا أنه غلب
عليه النحو ، وقد أعجب به ابن خلدون كان قاضى الشام لما حضر للشهادة
عندما سأل في مشاكل من العربية ذكر بعضاً منها في ترجمته في وفيات
الأعيان ، ثم عاد إلى القاهرة وتصدر بالمدرسة الفاضلية ، ثم انتقل إلى
الاسكندرية ، كان رحمه الله أصفى الناس ذهنًا وأقدرهم بيانًا مع الإيجاز ،
اشتهر بالتصانيف المختصرة المنقحة في جملة من العلوم ورزقت مصنفاته
القبول ، فمنها في النحو (الإيضاح) شرح المفصل للزنجشبرى ، و (الأمل) الذى
هو الغاية في الدقة و (الكافية) وشرحها ، والكافية على وجازتها حوت
مقاصد النحو بأسرها ، فلا غرابة أن يتسابق حذاق النحاة في شرحها

ويضيّق المقام عن استيعاب شروحها ، وفي كشف الظنون تفصيلها ، وممن
شرحها الرضى والجامى ، وسنذكر نبذة عن هذين الشرحين ، فى ترجمة
أصحابهما بمشيئة الله تعالى ، ولا بن الحاجب قليل من النظم لضبط بعض
المسائل العلمية ، فمن ذلك فى النحو قوله فى الكافية

عدل ووصف وتأنيت ومعرفة وعجمة ثم جمع ثم تركيب
والنون زائدة من قبلها ألف ووزن فعل وهذا القول تقريب

توفى رحمه الله بالأسكندرية سنة ٦٤٦ هـ

الفصل الثالث

علم النحو فى الأندلس والمغرب وعلمائوه

تباعد الشقة بين هذه البلاد وبين العراق مهد النحو قضى عليها أن
تتأخر ردها من الزمن عن اقتفائها العراق فى مزاولتها إلى أن نضج
وكمل ، وعناية الولاة على الأندلس من قبل بنى أمية منذ فتحه سنة ٩٣ هـ
منصرفه إلى إخضاع البلاد للخلافة فحسب ، نعم لما استقلت بنو أمية
بالأندلس على يد عبدالرحمن الداخل صقر قریش سنة ١٣٨ هـ وتوطد فيها
الملك له ولعقبه من بعده استقبلت الأندلس عهداً جديداً وبدأت الحركة
العلمية فيه ، بفضل مناصرة بنى أمية اللغة جريا على دأب بنى أبيهم فى
المشرق ، فأرغبوا العلماء فى العلم وكافئوهم على دراستهم وتصنيفهم ،
فتجشم أفراد من الأندلس الأسفار إلى المشرق ورووا عن علمائه واقتبسوا
من معارفهم إذ لم يكن فى مقدورهم الرحلات إلى البوادي ومشافهة الأعراب

ففيها كما صنع المشاركة ، وقفلوا إلى الأندلس مزودين بعلوم المشاركة زيادة
على ما جلبوا معهم من مؤلفاتهم ، وكان أول من استحضّر منهم كتاب
سيدبويه من العراق حمدون النحوي الذي اشتهر به وقد توفي أوائل القرن
الثالث ، ولعله أول من عرف به في الأندلس ، ثم ظهر بعده الأفشين
القرطبي الذي رواء عن الدينوري المعري السابق ترجمته وقد توفي الافشين
سنة ٣٠٩ هـ ، ثم تقاطر إلى بلاد الأندلس كثير من علماء المشاركة لتوافر
المرغبات في الهبوط اليها ماديا وأديبا ، فتولد من هذين العاملين حركة
في علم النحو في ظل الأمويين واطرد نموها وازدهرت في آخر عهدهم ،
وازداد ازدهارها في عصر ملوك الطوائف الذين قاموا على انقراض
الأمويين وتقاسموا بلاد الأندلس بينهم من سنة ٢٢٨ هـ فانهم كانوا يتبارون
في تقدير العلم وأهله حتى كان منهم العلماء والمؤلفون ، وفي خلال تلك الحقبة
هبت نسمة من الأندلس على بلاد الغرب انتعشت فيها ، فظهر
في الأندلس والمغرب علماء ضارعوا علماء المشرق وانتشرت دراسة النحو
في سائر المدن ، وكادت الأندلس تحكي صورة العراق في عصره الزاهر -
فكان غير عجب أنه لما فسدت السيادة بالبادية أواسط القرن الرابع
الهجري وانصرف علماء المشرق إلى درس ما حفظوه ودونوه من كلام
العرب - أن يصنع كذلك بعد حين المغاربة في اجترائهم بما نقلوا من
السنة وكلام العرب المروي لهم عن علماء المشاركة والقواعد التي تلقنوها
عنهم ، فلم يرتحلوا بعد إلى المشاركة وعكفوا على ما حصلوا عليه وصدقوا
العزيمة في تسمير ما عندهم ، وتقضى البداهة أن إنعام الفكر في المسائل موح
وملهم باستكمال بعض النقص الفاتت ، وهكذا ما كان من الاندلسيين بعد

استغنائهم عن المشاركة واعتمادهم على أنفسهم ، فانهم عدلوا عن بعض آراء
المشاركة في النحو وخالفوهم في منهاج تعليمه وتدوينه واستدركوا عليهم
مسائل فاتهم ، وبذلك استحدثوا مذهباً رابعاً عرف بمذهب المغاربة أو
الاندلسيين ، ظهرت مبادئه من أوائل القرن الخامس الهجري ، الذي
يعد بحق فجر النهضة النحوية في هذه البلاد ، ولقد كانت نهضة رائدها
المقة المحضة لهذا الفن في تلك البلاد المحرومة منه زمناً طويلاً ، ومن ذلك
الحين قرروا كتاب سيديويه

كتاب سيديويه عندهم

شخف الاندلسيون من هذا الحين بكتاب سيديويه وتنافسوا في
استظهاره إذ كان حفظه عندهم شارة النبوغ في العربية ، فمن حفظه خلف
ابن يوسف الشنتريني ، وعنوا بشرحه والتعليق عليه فشرحه منهم
ابن الطراوة وابن خروف وابن الباذش وغيرهم ، وما انفكت العناية به
تزداد تترى حتى انتهت رياسة النحو إلى ابن الضائع الآتية ترجمته في المطالب
الثاني ان شاء الله فقد شرح كتاب سيديويه وأبدى مشكلات فيه عجيبة ،
لقد اطرده تسمير هذه النهضة في تلك البلاد وشيكا ، ونمت الحركة العلمية ،
وكثر العلماء وتباروا في تصنيف المؤلفات مع تنويع الانتاج بين نحوية
وغيرها ، فتطلعت إليهم الأنظار في سائر البلاد الاسلامية ، وملاّت قرطبة
الاندلس الاسماع وخلفت بغداد العراق لاسيما في النحو الذي حظى منهم
بما حرمه غيره من فنون أخرى ، فقد سارت نهضتهم النحوية قدما حتى القرن
السابع الهجري ، إذ فيه تسنم الذروة العليا من عنايتهم ، قال المقرئ (والنحو

عندهم في نهاية من علو الطبقة حتى أنهم في هذا العصر « القرن السابع » فيه كأصحاب عصر الخليل وسيدويه لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم مستحق للتمييز ولا سالم من الازدراء ^١

وعلى كر الايام تكاثرت مسائل مذهب المغاربة الجديد وذاعت قواعده وامتدت حياته حتى أخذه عنهم المشاركة بعد ما ضعف شأنهم إذ قد نزح كثير من المغاربة إلى المشرق إما للحج أو للإقامة ودرسوا في مساجده ومدارسه ومعهم مؤلفاتهم كبن مالك وغيره ، واستعرف في المطلب الثاني بعد سقوط بغداد وانقطاع المدد من العراق إلى القطرين (مصر والشام) أنه أكثر تدفق المغاربة إليهما فنفعوهما نفحة لا ينساها التاريخ لهم ، وهما يحسن أن نذكر على سبيل الارشاد بعض ما عرف عن جمهور المغاربة من عناصر مذهبهم مخالفًا للمعروف من المذاهب البصرية والكوفية والبغدادية فمن ذلك .

أمثلة للمذهب الأندلسي

- ١ - منع تأكيد العائد المنصوب المحذوف قياساً نحو جاء الذي ضربت نفسه قال الأشموني (ومنعه ابن السراج وأكثر المغاربة) ^٢
- ٢ - اعتبار الفعل القلبي معلقاً عن الجملة المسبوقه بالمعلق بعد المفعول

(١) نفح الطيب الباب الاول من القسم الاول (القرآن والعلوم الشرعية بالأندلس)

(٢) شرحه على الألفية باب الموصول العائد المنصوب

الأول قال ابن هشام (قال جماعة من المغاربة إذا قلت علمت زيدا لأبوه قائم أو ما أبوه قائم فالعامل معلق عن الجملة وهو عامل في محالها النصب على أنها مفعول ثان وخالف في ذلك بعضهم لأن الجملة حكمها في مثل هذا أن تكون في موضع نصب وأن لا يؤثر العامل في لفظها وإن لم يوجد معلق وذلك نحو علمت زيدا أبوه قائم ^١)

٣ — تجوزهم تأخير حال الفاضل عن اسم التفضيل قال السيوطي (وأجاز بعض المغاربة تأخير الحالين عن أفعل بشرط أن يليه الحال الأولى مفصولة عنه من الثانية فيقال هذا أطيب بسرا منه رطباً ، وزيد أشجع أعزل من عمرو ذا سلاح قال أبو حيان وهذا حسن في القياس لكنه يحتاج إلى سماع ^٢)

٤ — اعتبارهم نصب (غير) في الاستثناء كنصب المستثنى بالألا ، قال ابن هشام (وانتصاب غير في الاستثناء عن تمام الكلام عند المغاربة كانتصاب الاسم بعد إلا عندهم ^٣)

٥ — جواز العطف في تمييز المقدار المكون من الجنسيتين نحو عندي رطل سمنا وعسلا قال السيوطي (وقال بعض المغاربة الأمران سائغان العطف وتركه ^٤)

٦ — عدم اعتبار العطف لأم المنقطعة مطلقاً قال الصبان (فابن جنى والمغاربة يقولون ليست بعاطفة أصلاً لا في مفرد ولا جملة ^٥)

« ١ » المغنى الباب الثاني، الجمل التي لها محل من الاعراب ، الجملة الثالثة الواقعة مفعولاً

« ٢ » هم الهوامع باب الحال « ٣ » المغنى الباب الاول « غير »

« ٤ » هم الهوامع باب التمييز « ٥ » حاشيته في عطف النسق (٦)

٧ - تصحيحهم عمل أن المخففة المفتوحة في الظاهر أيضا قال السيوطي
(الثاني أنها تعمل في المضمر وفي الظاهر نحو علمت أن زيدا قائم وقرىء
أن غضب الله عليها ، وعليه طائفة من المغاربة)^١

٨ - تسويغهم نصب المضارع بعد الفاء في جواب الاستفهام المتضمن
وقوع الفعل نحو لم ضربت زيدا فيجزيك ؟ مخالفين اشتراط النحاة عدم
الوقوع قال الأشموني (ولم يشترط ذلك المغاربة)^٢

٩ - قصر حذف أن الداخلة على المضارع على السماع - سواء أبقى
منصوبا أم رفع قال الأشموني (وإليه ذهب متأخروا والمغاربة قليل وهو الصحيح)^٣
تلك بعض قواعدهم أما خلافتهم الشخصية وتعليلاتهم وطريقتهم
فهي تحمت البصر بكتبهم ، ولاتنس ما سبق التنبيه عليه في آخر المطلب
الاول من أن علماء الأندلس والمغرب يشركون علماء العراق وعلماء القطرين
في استيفاء المصادر كلها تراجمهم ، ونريد هنا أن نقول إن علماء الأندلس والمغرب
قد ترجمتهم أيضا المقرئ في (نفح الطيب) ، وهالك بعض مشهورينهم
مرتبين بحسب مقامهم .

أشهر علماء الأندلس والمغرب

١ - الزُّبَيْدِي . هو أبو بكر محمد بن الحسن واشتهر بالزُّبَيْدِي
(نسبة إلى قبيلة يمانية معروفة) ولد بأشبيلية وتلقى العلم بقوطبة عن
أبي علي القالي وغيره ، وتألق نجمه في سماء الأندلس فاختره (الحكيم) الخليفة

(١) مع الموامع « تخفيف أن » (٢) شرحه على الالفية إعراب الفعل

(٣) شرحه على الالفية آخر باب إعراب الفعل ، النواصب

الأموي لتعليم أبنائه وولاه قضاء قرطبة فنال دنيا عريضة توارثها بنوه وحفدته ، وله مؤلفات كثيرة لاسيما في اللغة ، منها (طبقات النحويين واللغويين من البصريين والكوفيين) وهذا الكتاب معتمد العلماء في التراجم وقد نقلنا عنه كثيراً في كتابنا ، توفي بأشبيلية سنة ٢٧٩ هـ

٢ - الأعلام : هو أبو الحجاج يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم لانشقاق شفته العليا ، ولد بشذتمرية ورحل إلى قرطبة فتلقى عن الأقبلي وغيره وساعدته قوة الحافظة على بعد السمنة فكانت تضرب اليه كباد الابل ، وكف بصره آخر حياته ، وكانت تغلب عليه النزعة الأدبية كما ترى في مؤلفاته ، فله شرح الجمل للزجاجي ، وشرح شواهد سيديويه ، وشواهد الجمل ، وديوان زهير ، والحماسة وغيرها توفي بأشبيلية سنة ٤٧٦ هـ

٣ - ابن السيد البطليوسي هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد ، ولد في بطليوس واستوطن ببلنسية موفورا لكرامة معلمه الجمل وإبداعه في التعليم فترامت سمعته إلى ابن الحاج صاحب قرطبة الذي استقدمه إليها ، غير أنه أقام عنده قليلا وخافه فعاد إلى بلنسية ، ومؤلفاته كثيرة خصوصا فيما يتصل بالشواهد العربية منشنة الأدباء ، له المسائل المنتورة في النحو ، وإصلاح الخلل الواقع في الجمل ، والخلل في شرح أبيات الجمل ، وشرح ديوان المتنبي توفي ببلنسية سنة ٥٢١ هـ

٤ - ابن الطراوة : هو أبو الحسين سليمان بن محمد ، ولد بمالقة ورحل إلى قرطبة فسمع من الأعلم كتاب سيديويه كما أخذ عن غيره ، ثم تجول كثيراً في الأندلس ، فانتفع به خلق كثير ، وكان جريثا في آرائه لهذا انفرد بمسائل جمة خالف فيها النحاة ، ولم يتحاش تغليب سيديويه

في الكتاب في (باب النعت) كما رأيت عند الكلام على الكتاب في ترجمة
سيبويه ، ومن مصنفاته المقدمات على كتاب سيبويه ، والترشيح ،
توفي بمالقة سنة ٥٢٨ هـ

٥ - ابن الباذش : هو أبو الحسن علي بن أحمد ، ولد بقرناطة وشب
على حب الفضيلة والزهد في الدنيا وبرع في الشريعة والعريضة فأكبره
لدايته ، بذل همته في النحو فشرح أمهات الكتب : إذ شرح كتاب سيبويه ،
والأصول لابن السراج ، والمقتضب للمبرد ، والإيضاح للفارسي ، والجل
للزجاجي ، والكافي للنحاس ، توفي بقرناطة سنة ٥٣٨ هـ

٦ - اللخمي : أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن هشام اللخمي ، ولد
في سبتة ، ولما شدا مبادئ اللغة والشريعة على مشايخه ، انكب على
التزيد قيها حتى صنف مؤلفات تداولها أهل الأندلس منها في النحو كتاب
الفصول والجل ، وله نظم جمع فيه معاني الخال ، توفي بسبتة سنة ٥٧٠ هـ
٧ - ابن طاهر : هو أبو بكر محمد بن أحمد ابن طاهر المشهور بالحداب ،

ولد بأشبيلية ورحل إلى مراکش فدرس في (فاس) كتاب سيبويه وذاع اسمه
فأقبل الناس عليه من الجهات النائية وله طرر على الكتاب ، توفي بفاس سنة ٥٨٠ هـ
٨ السهيلي : هو أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله ،

ولد بمالقة وسمع من ابن الطراوة وغيره ، وكف بصره في السابعة عشرة
فعوضه الله نور البصيرة ، وأحسن الناس فيه عقيدتهم ونفذت سمعته العلمية
والدينية إلى بلاد المغرب ، ونمى خبر إملاقه إلى ملكها فاستقدمه ومكث
بها ثلاثة أعوام مغموراً بالاحسان ، وله مصنفات منها التعريف والأعلام
بما في القرآن من الأسماء والأعلام ، والروض الأنف شرح السيرة ،

حدثت مسائل بينه وبين ابن خروف مذكورة (في الفن السابع)
من الأشباه والنظائر للسيوطي في الجزء الثالث ، والحق في جانبه ،
توفي عليه رحمة الله بمرأ كش سنة ٥٨٣ هـ

٩ ابن مضاء : أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن اللخمي القرطبي ،
نشأ بقرطبة في بيت حسب محباً للعلم ، فأخذ عن ابن الرماك في أشبيلية
كتاب سيديويه تفهما وسمع عليه وعلى غيره من الكتبة النحوية واللغوية
والأدبية مالا يحصى وامتد نهمه إلى سائر العلوم من الأصول والهندسة
وغيرها ، فكان وحيد عصره وتولى رئاسة القضاء في عهد أمير المؤمنين
يوسف بن عبد المؤمن من دولة الموحدين - وله في النحو كتاب (المشرق
في النحو) - وكتاب (الرد على النحاة) وهذا الكتاب هجم فيه على نحاة
المشرق وفند بمض قواعدهم : في اعتبار العامل وفي توجيه العامل وفي
اعتبار القياس وفي التعويل على التمارين الفرضية ، ويحتاج بسط ما في
الكتاب إلى تفصيل لا يسعه لمقام - وكتاب (تريه القرآن عمالاً يابق بالبيان)
وخطأه ابن خروف في هذا الكتاب وناقضه بكتاب سماه (تريه أئمة
النحو عما نسب إليهم من الخطأ والسهو) ، ولما بلغ ابن مضاء فاغتاظ ثم قال
نحن لا نبالي بالأكباش النطاحة وتعارضنا أبناء الخرفان - توفي ابن مضاء
بأشبيلية سنة ٥٩٢ هـ

١٠ ابن خروف : هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحضرمي
الأشبيلي ، ولد بأشبيلية وأخذ عن ابن طاهر السابق ترجمته . ثم برز

١ السهيلي مفسوب إلى سهيل بلدة قريبة من مالقة فيها أهله وأقاربه ، وسميت
بذلك لأن كوكب سهيل لا يري في بلاد الأندلس إلا من جبل مطل عليها

في العربية ، ومن مصنفاته النحوية شرح كتاب سيبويه أهداه إلى صاحب
المغرب فمنحه ألف دينار ، وشرح الجمل للزجاجي ، ومع طول باع المترجم
في النحو وذيوع صيته في التدقيق وغزارة مؤلفاته كان في خلقه زعارة ،
فلا عجب أن يندفع إلى منازلة السهيلي في المسائل المنوه عنها في ترجمته ،
وأن يعدو على ابن مضاء في مناقضته لكتابه المذكور آنفا في ترجمته
ومما هو حراً بالاحظة أن ابن خروف النحوي غير ابن خروف الشاعر
المشهور وإن اتفقا علماً وكنية ولقباً وأباً فقد اختلفا جداً ونسباً ووطناً ووفاة
ومدفناً ، فإن ابن خروف الشاعر هو أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف
القيسي القرطبي ، وهو الذي أرسل قصيدة للقاضي في حلب يوسف
بهاء الدين المعروف بابن شداد يستجديه فروخروف ، وتوفي متردياً في جب
بحلب سنة ٦٠٤ هـ - ولعل الاشتباه بين النحوي والشاعر هو الذي تسرب
منه الخطأ في نسبة شعر للنحوي ، ولم يتنبه لهذا أحد ممن ترجم النحوي
قبل ابن خلكان وبعده ، فإنه وحده الذي حقق هذا الفرق في وفيات الأعيان
ترجمة القاضي يوسف المذكور ، وهذا التحقيق من ابن خلكان جدير
بالتقدير والاعتبار ، توفي ابن خروف النحوي بأشبيلية سنة ٦١٠ هـ

١١- الجزولي : هو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز من قبيلة جزولة
بالمغرب تلقى العلم عمراً كش ، ولازم ابن بري المعمرى بعد عودته من الحج
مدة ثم عاد إلى المغرب ودرس مدة طويلة في بجاية ، ومن مؤلفاته النحوية
شرح أصول ابن السراج ، والمقدمة المشهورة وهي حواش على جمل الزجاجي ،
وذكر ابن خلكان في ترجمته نبذة رائعة عنها ، توفي بهسكونة سنة ٦٠٧ هـ
على أرجح الأقوال

١٢ الشلوبيّيني: هو أبو علي عمر بن محمد المعروف بالشلوبيّيني، ولد بأشبيلية، وأخذ عن السهيلي والجزولي وغيرهما ثم انتهت إليه رئاسة النحاة غير مدافع بل تغالى معاصروه ففضلوه على أبي علي الفارسي - وبه انتهت دولة الأئمة المجتهدين، وكان مع هذا فيه غفلة وحكاية في ذلك غريبة ومن مصنفاته النحوية التوطئة، والتعليق على كتاب سيديويه، توفي بأشبيلية سنة ٦٤٥ هـ

١٣ ابن هشام الخضر اوى: هو أبو عبد الله محمد بن يحيى الأنصاري الخزرجي، والخضر اوى (نسبة للجزيرة الخضراء) أخذ عن ابن خروف وغيره، وعنى في تصنيفه بكتاب الايضاح، فألف الافصاح بفوائد الايضاح، والاقتراح في تلخيص الايضاح، وغرر الاصباح في شرح أبيات الايضاح، توفي بتونس سنة ٦٤٦ هـ

١٤ - الدبّاج: هو أبو الحسن علي بن جابر الأشبيلي، قرأ على ابن خروف وغيره، ثم تصدر لأقراء النحو والقرآن خمسين عاماً، ولما دخل الأفرنج إشبيلية اغتم ومات سنة ٦٤٦ هـ

١٥ - ابن الحاج: هو أبو العباس أحمد بن محمد، قرأ على الشلوبيّيني وغيره، ومهر في علوم اللغة العربية وصنف فيها، له في النحو إملاء على كتاب سيديويه، ومختصر الخصائص لابن جني، وشرح الايضاح، كان يقول إذا مت يفعل ابن عصفور في كتاب سيديويه ماشاء، توفي سنة ٦٤٧ هـ

١ الشلوبيّيني بياء النسبة قال في معجم البلدان (شلوين أو شلوينية أو شلوينية حصن بالاندلس) وقال في القاموس (شلوين أو شلوينية بلد بالمغرب) وقال في وفيات الأعيان (الشلوين الأبيض الأشقر بلغة الأندلس)، وروي بغير النسبة والباء على كل مشوبة بالفاء لأنها أعجمية

✽ المطلب الثاني علم النحو وعلماءه بعد سقوط بغداد ✽

لقد كان سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ على يد الطاغية (هولاكو) المغرلي التتري حدث الأحداث ، إذ تقوض عرش الخلافة الذي كان ملاذ المسلمين ردحا من الدهر على اختلاف أجناسهم وتناثر أقطارهم ، سادوا فيه العالم وبسطوا نفوذهم على رقعة فسيحة من البسيطة رفرقت عليها راية اللغة والدين ، قضى الله ودالت دولة الخلافة العباسية من بغداد وتمزق شمل المسلمين (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ففر من فر من بغداد وقتل فيها من قتل ، وارتكب المغول في هذا الحادث الجرائم النكراء ، وأزالوا معالم المسلمين وأبادوا ثروتهم العلمية وألقوها في اليم بدجلة فعبثت عليها الخيول ، ولم يقف شر هؤلاء الطغاة عند بغداد ، بل استشرى شرهم وعم بلاد المشرق في عهد عقبه (تيمورلنك) الذي روع المشرق بحمافله الزاحفة وجيوشه المظفرة ، اتخذ قاعدة ملكه سمرقند واتجه شرقاً وغرباً يلتهم الممالك وينل العروش ويعيث في البلاد الفساد ، لا يثنيه عن ضراوته الوحشية صارف ، دخل أنقرة عنوة وأسر السلطان العثماني (بايزيد الأول) المعروف بالصاعقة وزج به في غياهب السجن سنة ٨٠٤ هـ ، دانت له الدول الإسلامية من حدود الهند شرقاً إلى سورية غرباً ، فامتدت أطمانه إلى الاستيلاء على القطرين (مصر والشام) لكنه خاب أمه بفضل بسالة المماليك سلاطين مصر حينذاك كما سيجيء الكلام عليه في الفصل الثالث ، وبلغ من جبروته أنه ألجأ الشيخين (سعد الدين التفتازاني والسيد

الشریف الجرجانی) إلى أن يتناظرا بين يديه يتمتع عيونه بما جر إلى موت
السعد لانهم زامه من السيد ، وكان يفكر في القضاء على ابن خلدون
لكن ابن خلدون احتال عليه وأمله في عودته من القاهرة حاملا كتبه إليه
فذهب وخلص من شره ، طالت مدة هذا الطاغية ، فلم يمت حتى دوخ
الشرق في عهده الطويل فقد ملك ستا وثلاثين سنة والشعوب الإسلامية
تحت نير العسف والاضطهاد لاهم لهذه الشعوب المغلوبة فيها إلا سلامة
أرواحهم ، حتى توفي سنة ٨٠٧ هـ - فاختلف أعقابها من بعده وألقيت
بينهم العداوة والبغضاء ، وقد أسلم بعضهم ودان الآخرون بالبوذية ،
فتفككت أواصرهم وانشعبت مملكتهم ، وكان الشرق يمجج يومئذ
بالبفن فتدول دولة وتقوم أخرى ، أو ينحل فتل دولة ويبرم فتل أخرى ،
فقد توطد في هذا الحين ملك الدولة العثمانية التي اتخذت بعد فترة
من نشأتها عاصمتها الجديدة (القسطنطينية) بعد فتحها المعداد أعجوبة
الدهر سنة ٧٥٨ هـ على يد السلطان محمد الثاني الفاتح ، وقد اطرده على
مرور الزمن تقدم نهضة الدولة العثمانية حتى استولت على القطرين
في عهد السلطان سليم سنة ٩٢٣ هـ وكان لهذا الاستيلاء أثره البالغ في طرو
عهد جديد على اللغة العربية ، وبالتالي على النحو الذي نتحدث عنه
وسترى تفصيل ذلك في الفصل الثالث ، وقد بلغت الدولة العثمانية أوج
مجدها في عهد السلطان سليمان القانوني المتوفى سنة ٩٧٣ هـ فكان لها شطر
كبير من بلاد الشرق ، فتد وصلت المملكة العثمانية زمن السلطان
المذكور فيه إلى آخر العراق شرقا باقتطاع جزء كبير من أملاك الدولة
الصفوية الآتية الكلام عليها بعد ، فدخلت (بغداد) في ملكه

وظهرت أيضاً في هذا الحين الدولة الصفوية بخراسان وحالفها الظفر
في المشرق حتى أدال الله لها على الدولة التيمورية بعد حرب ضروس
في موقعة شرور سنة ٩٠٧ هـ انتصر فيها الشاه اسماعيل الصفوي رأس
الدولة الصفوية ، واتسع ملكه فامتد بين جيحون وخليج البصرة
وأفغانستان والفرات ، فلم يعد بعدئذ للدولة التيمورية أثر وكان لم تغن
بالأمس وكان آخر سلاطينها سلطان هراة (حسين ، مرزا) المتوفى سنة ٩١١ هـ
فنشوء الدولتين الفتيتين (العثمانية والصفوية) حول التيمورية
قضى عليها القضاء النهائي ، لكن الطمع الدنيوى لم يدع الصفاء بين الدولتين
الباقيتين ، فقامت حروب بعدئذ بين السلطان سليم والشاه اسماعيل
مدة طويلة ، وبالجملة فكان المشرق بركان ثوران في نواحيه عامة
ولا قرار فيه للهدوء والسكون ، والعلماء كافة أنأى الناس عن منار
الاضطرابات يركنون إلى ثبات الاستقرار في مواطن الأمن الشامل ،
لهذا قد تصورت أنظار النجاة إلى القطرين (مصر والشام) فأخذوا
يرتحلون من المشرق رويداً رويداً ، إلى أن حان وقت تفردت فيه القاهرة
بالقيام بأعباء النهضة الثقافية للمسلمين وأضت كعبة القاصدين
— هذه حال بلاد المشرق —

أما الأندلس وبلاد المغرب فإنه ما انفك فيهما بقية من علماء النحو
تشتغل به بعيدة عن فوضى بلاد المشرق حتى أملت بهم النوائب فاختلف
ملوك بني الأحمر وتفرقوا أحزاباً واستعرت الحروب بينهم فطفق العلماء
يهبطون من الأندلس والمغرب إلى القطرين كالمشاركة أرسالا إلى أن
سقطت الأندلس واستولى عليها الفرنجة سنة ١٤٩٢ هـ واستعرف

تفصيل ذلك في الفصل الثاني ؛ فلم ير الطريد من الأندلس والمغرب
ملجأ لهم إلا القطرين كما سبقهم من قبل إخوانهم المشاركة ، ومن
ذلك تعرف أن القطرين معمر والشام اتسع رحبهما للوافدين إليهما
من اليمن واليسار ، من المشرق والمغرب وفيهما التقى علماء المشرق
والمغرب بعلماء القطرين ، وقامت القاهرة عاصمة القطرين بدورها بعد
أختيها بغداد وقرطبة ، وعلى هذا ينبغي في الكلام على هذا العلم
ورجاله في هذا العهد أن نسير على طباق ما تقدم في المطلب الأول
إذ الحال من حيث الاتجاه في النزعة لم تتغير عند كل فريق من الثلاثة ،
وبذلك انقسم الحديث إلى ثلاثة فصول

الفصل الأول

(علم النحو في المشرق وعلماءؤه)

إن بلاد المشرق لما منيت بهذا الخطب الجلل الذي أباد تراثها العلمي
وأودى بحياة علماءها العاملين ، دهشت طويلا من الأيام ، وعشش عليها
يوم الآلام . غير أن بعض علماءها في إبان الشدة والقسوة لأول عهد المغول
نجوا بأنفسهم إلى حيث يأمنون في سربهم ، فمنهم من وجدوا لهم مراعما
في الأرض وسعة ، ومنهم من رضوا من الحياة الدنيا بالغذاء العلمي الروحي ،
ومن هؤلاء الرضى الذي ولى وجهه شطر الحرمين ونعم بجوار الحرم المدني
وآلف كتابه المشهور الذي سجل له على النحو فضل الأبد ، وستقف على
شأنه عند التعريف به في ترجمة الرضى

نعم لما أسلم بعض سلاسل التتر في أخريات أيامهم ، وقد ناهضتهم الدولة العثمانية أولاً ثم الدولة الصفوية ثانياً انتفت بعض سلاطينهم وأولى الشأن فيهم إلى وجوب استجلاب مودة الشعوب المملوكة استبقاءً لمكبرهم فتوددوا للعلماء وأهابوا بهم في القيام بما يعود على البلاد بالنفع والخير، ولعل من أكبرهم مظهرراً في ذلك سلطان هرة السلطان حسين، فقد غمر الجامي بما جعله لا يصوب نظره إلى سلطان آخر في إقليم آخر رغم استزارته من كثير من سلاطين ذلك الوقت كما سترى في ترجمته

كذلك الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، وهما دولتان إسلاميتان ناشئتان يحفزهما الدين إلى إحاطة العلماء بالتكريم ، والعلماء حفظة الدين ولغة الدين - على كل حال كان طبعياً وحتماً مقضياً على هذه الدول أن تصانع شعوبها وتتقرب إلى خواصها للتنافس بينها - والشعوب عربية تواقية إلى استرجاع مجدها الحائل ، واللغة عندهم عنوان المجد وسبيل البقاء على الدين ، فلاريب أنهم عندما تنقشع سحب الاضطرابات وتسكن الثورات يكون أول هم الخواص فيهم أن ينشروا ما اندرس فيهم مما كادت تذهب الحوادث بأصوله ، حقاً لقد شعر العلماء بواجبهم إزاء كارثة بغداد التي اجتاحت ثروتهم العلمية ، ولولا بقية مما في صدورهم لذهبت وانطمست معالمها ، والنحو معبر العلوم فهو أجدرها بالجد والنشاط كما كان أسبقها في التكوين ، إلا أن العلماء لم يستطيعوا استعادة مجده القديم في هذه البلاد ذلك الحين لا مرين (الأول) أن الشغب كان منتشرراً في جميع ربوع البلاد الشرقية فالنفوس قلقة والأفكار متبلبلية ، والعلم إنما يترعرع في كنف السكون والاستقرار (الثاني) أن هذه الدول لم تحن على اللغة من أعماق قلوبها لأنها ليست

عربية تغار على لغة أصلها ، فالتتر إن حذبوا عليها في آخر عهدهم فلا سترضاء
 شعوبهم ، والترك بالطبيعة لا يؤثرونها على لغتهم وستعرف في الفصل الثالث
 أنهم فرضوها على القطر بن بعد فتحهما ، والدولة الصفوية كانت تؤثر
 الفارسية عليها - ليكن علماء المشرق مع هذا كله لم يألووا في النهوض بواجبهم
 في النحو لأنهم نشأوا في المشرق مهد اللغة العربية وعلومها ، والبيئة
 غلبة في توجيه المرء مدة حياته ، والنحو أساس اللغة العربية ، بيد أنه
 لا يخفى أن علماء المشرق في العهد المغولي فمابعد مختلف حالهم عن علماءهم
 قبله ، وبعبارة ثانية يختلف حال النحاة بعد سقوط بغداد عن حالهم قبله ،
 فإن السابقين على سقوط بغداد لم يدركهم المذهب الأندلسي الذي أدرك
 من كان من المشاركة بعد سقوط بغداد في بلادهم ، ولذلك عرضت مؤلفات
 علماء العهد المغولي وما بعده إلى المذهب الأندلسي ، فالذهب إلى يفاضلون
 بينها أربعة البصري والكوفي والبغدادى والأندلسي ، بينما أولئك كانوا
 يوازنون بين الثلاثة الأولى - هذا - والحقبة الناصعة أن مؤلفات النحويين
 في هذا العهد وإن أتقن ضبطها وأحكم ترتيبها إلا أن تأثير البيئة العجمية
 في المؤلفين على اتساع آفاقهم في مداركهم وقوة بداعتهم جعلت كتبهم
 على شرف موضوعها وجلال مباحثها صعبة التناول ضعيفة الأثر في تقدم
 اللسان العربي لما حشيت به من الفلسفة القديمة في تبيان قواعدها والأسلوب
 المنطقي في توجيهها ، وما للسان العربي بذلك من صلة على ما لا يخفى ،
 ومن البدهي أن الحديث عن المشاركة بعد سقوط بغداد يقتضى (بعد ترك
 العراق العربي الذي انتهى أمره وانقضى الحكم فيه) التطواف والسيحان
 في خراسان والهند والسند وإيران والبلاد العثمانية في هذه الحقبة الممتدة ،

وفي تلك الاقاليم أعلام مشاهير سارت بذكرهم الركبان ، ولهم آثارهم التي
تعنو لها الجباه ، فالتلبية لهذا الاقتضاء ينوء بحملها الكاهل ، فكل إقليم
يتطلب سفرأ وحده في تراجم علمائه ، والحاجة عندنا تجزىء فيها الاقتصار
على قليل منهم ، على أننا لا نعرض إلا لمن غلب عليه النحو واتسم به
ممن لهم آثار بين أيدينا وتردد الكتب أسماءهم ، فلا نذكر أمثال السعد
والسيد والعضد ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق ، فدونك أشهر
المشاركة مرتبين على حسب وفياهم

أشهر علماء المشرق

١ - ابن إياز : أبو محمد الحسين جمال الدين بن بدر ، نشأ ببغداد
وتلقى عن سعد بن أحمد البيهقي وقرأ على التاج الأرموي ، وكان حسيباً
دعته الأخلاق ، ومن مصنفاته النحوية شرح فصول ابن معط ، وشرح
الضروري لابن مالك ، والأسماع في مسائل الخلاف وهضت كلمة عن هذا
الكتاب عند الحديث على نتائج المخالفة بين المذهبين (البصري والكوفي)
رأيت فيها أنه استدرك على الأنباري مسائل أخرى مما فيها الخلاف ،
وقد أضاف السيموطي إلى مسائل الأنباري مسألتين مما استدرك ابن إياز
ذيل بهما مسائل الخلاف كما سلف ، توفي ببغداد سنة ٦٨١ هـ

٢ - الرضي : هو محمد بن الحسن نجم الملة والدين الأستراباذي ، هجر
بلاد المشرق وأقام بالمدينة المنورة وألف شرحه على الكافية لابن الحاجب
في النحو ، وله شرح ألفه بعد على الشافية لابن الحاجب أيضاً في الصرف ،
وأعجب العجب أن هذا الامام العلامة يفوت على أصحاب المعاجم الاقضية

في ترجمته ، فلم ندر متى وأين ولد ونشأ؟ وأين كانت مراحل حياته؟
وكم مؤلفاته وفيم كانت؟ ومتى وأين كانت وفاته على التحقيق؟ ومن
تلقى عنهم؟ ومن تخرج على يديه؟ - ومما يزيد الأسف عدم معرفتهم اسمه
فان السيموطي وهو من متأخري أصحاب المعاجم المعنيين بالتراجم اضطر
إلى ذكره في بغية الوعاة (حرف الراء) اكتفاء بشهرة لفظ (الرضي)
وقال في ترجمته (ولم أقف على اسمه ولا على شيء من ترجمته) ثم قرظ
شرحه للكافية بما فيه الكفاية وأشار إلى شرحه للشافعية . نعم إن البقاعي
المعاصر للسيموطي في (مناسبات القرآن) قد ذكر اسمه لمناسبة الكلام
على تاريخ شرح الكافية - وبعد فان المحقق البغدادي في مقدمة خزنة
الأدب قد جمع نفقا متفرقة من المصدرين السابقين ومن غيرها فيها إلام
إجمالى بترجمة الرضي والتنويه بشرحه للكافية وإن لم تف بالمقصود، وبحسبنا
في تقدير الرضي علمياً وأنه حجة عصره غير منازع ما خلفه من (شرحى
الكافية والشافعية) وهما الكتابان اللذان لم يدع شيئاً من الفنين إلا أوفياه
حته وكشفا النقاب عن سره (فليس وراء عبادان قرية) ، ومن الواجب
أن نذكر نبذة خاصة عن شرح الكافية فأما نحن بصدد النحو

❖ شرح الرضي على الكافية ❖

هذا الشرح قد جمع بين دفتيه قواعد النحو وأسرارها بابتكار يدل
على تعمق في النحو واستكشاف لخبائنه وإحاطة بأوابده ، ويعجبني منه
ولوعه بضم الأنواع في محاولاته التي يعنى فيها بلم أطراف الكلام الذي
يراد التعميد له ، حتى لا يدع باباً إلا قضى وطر العلم فيه ، هذا من ناحية

التأليف ، أما من ناحية الفن فإنه ليس في شرحه جماعاً وإنما هو الفيصل
تستحكم الفكرة عنده فيبرزها مدعومة بالدليل النقلي والنظري غير متحيز
إلى مذهب خاص من المذاهب الأربعة السابقة وإن كان في الجملة بصري
الاتجاه ، فقد لا يستبعد صوابية مذهب الكوفيين أحياناً إذا صح لديه
حكمته ، وإليك أمثلة مما رأى قربه إلى الصواب فيها على ترتيب الشرح
— من الأمثلة التي رأى قرب المذهب الكوفي فيها للصواب —

- ١- يرى الكوفيون شرطية أن المدغمة في ما في نحو أمانت منطلقاً انطلقت
قال (ولا أرى قولهم بعيداً من الصواب لمساعدة اللفظ والمعنى إياه إلخ)^١
- ٢- يرون الضمير في أنت وأخواته (التاء) وفي إيك وأخواته (الكاف) ، قال
(وما أرى هذا القول بعيداً من الصواب في الموضعين)^٢
- ٣- يرون المصدر المنسبك من أن والفعل في نحو عسى زيد أن يقوم بدل
اشتمال من الاسم الظاهر ، قال (والذي أرى أن هذا وجه قريب)^٣
على أنه قد يبدو له ابتكار جديد يخرج به على كل النحاة عماده في ذلك
استقلال الرأي ورجاحة الحجة ، وإنى أسوق إليك بعض أمثلة من هذا
النوع على ترتيب الشرح أيضاً

— من الأمثلة التي خالف فيها النحاة —

- ١- مخالفته في اشتراط أصالة الصفة في منع الصرف فقال (وأنا إلى الآن
لم أقم لي دليل قاطع على أن الوصف العارض غير معتد به في منع الصرف إلخ)^٤
- ٢- مخالفته في عدم عطف البيان نوعاً مستقلاً في التوابع ، ورأى إدماجه

(١) حذف كان (٢) المضمحل (٣) أفعال المقاربة (٤) غير المنصرف

في بدل الكل فيقول (وأنا إلى الآن لم يظهر لي فرق جلي بين بدل الكل
من الكل وبين عطف البيان بل لا أرى عطف البيان إلا البديل إلخ)^١

٣ - مخالفته في اعتبارهم فعال معدولة عن فعل الأمر ، فقال (والذي
أرى أن كون أسماء الأفعال معدولة عن ألفاظ الفعل شيء لا دليل عليه
والأصل في كل معدول عن شيء ألا يخرج من نوع المعدول عنه أخذاً من
استقراء كلامهم ، فكيف خرج الفعل بالعدل من الفعلية إلى الاسمية)^٢

٤ - مخالفته في تعميمهم المنع في الثلاثة الآتية : تقدم معمول
المصدر عليه والفصل بينه وبين معموله بأجنبي وحذفه مع بقاء معموله ،
ورأى جوازها مع الظرف والجار والمجرور ، فقال (وأنا لا أرى منعاً من
تقدم معموله عليه إذا كان ظرفاً أو شبهه .. ويجوز الفصل بينه وبين معموله
بأجنبي ... وكذا يجوز إعماله مضمراً مع قيام الدليل)^٣

٥ - مخالفته في جعلهم الصفة المشبهة موضوعة للدوام ، ورأى أنها
موضوعة لمجرد الثبوت ، فقال (والذي أرى أن الصفة المشبهة كما أنها ليست
موضوعة للحدوث في زمان ليست أيضاً موضوعة للاستمرار في جميع
الآزمنة لأن الحدوث والاستمرار قيدان في الصفة ولا دليل فيها عليهما إلخ)^٤
٦ - مخالفته في إذن فليست بحرف ناصب للمضارع كما يقول البصريون
وبعض الكوفيين ولا اسم أصله إذا والنصب بعده بأن مضمرة كما يقول البعض
الآخر من الكوفيين ، بل يقول إنها اسم أصله إذا والنصب بعدها بأن مضمرة ،
ولهذا قال (الذي يلوح لي في إذن ويغلب في ظني أن أصله إذ إلخ)^٥
٧ - مخالفته في جعلهم فاء السببية وواو المعية عاطفتين المصدر

(١) البديل (٢) أسماء الأفعال (٣) المصدر (٤) الصفة المشبهة (٥) نواصب المضارع

المسبوك من الناصب المحذوف والمضارع على المصدر المتصيد من الكلام قبلهما، ورأى أن الفاء لمحض السببية والواو للحال أو بمعنى مع فقط^١ وفي الكتاب أمثلة كثيرة من هذا الطراز لمن شاء أن يستزيد، ومن البدهى أن من بلغ هذا الحد فتمد وصل إلى العنقود.

نعم قد يتحاشى الخروج على الأجماع مع لمح أسباب النزوع عنه، فقد انقذ عنده استحسن ادعاء البناء للمضارع المجزوم لولا إجماعهم، فقال (ولولا كراهة الخروج من إجماع النحاة لحسن ادعاء كون المضارع المسمى مجزوما مبنيًا على السكون إلخ)^٢

بقي أن تعرف مسلكه في الكتاب من حيث الاستشهاد، وهذا أمر جدير بالنظر لأن الشاهد في علم النحو هو النحو، ومن المعروف أن الشاهد إما نثر أو نظم، وليس كل نثر أو نظم مما يصح في علم النحو الاعتماد عليه كما بسطه تفصيلاً البغدادى في مقدمة خزنة الأدب بما فيه المقنع

— شواهد —

إن قارئ الكتاب من أوله إلى آخره يقف على شواهد نثرية مستفيضة من القرآن الكريم وكلام العرب المعترف بالاحتجاج بهم والحديث الشريف وقول الامام على كرم الله وجهه - وشواهد شعرية. أما القرآن وكلام العرب فكثير ما استشهد بهما وهو في ذلك موافق للنحاة القدماء والمتأخرين قبله فليس ثمة داع إلى ذكر نصوصهم ما في الكتاب وأما الحديث فقد استدل به كثيراً أيضاً حتى على غير القواعد، وقلمنا

تقرأ باباً في الكتاب إلا رأيت الحديث فيه - تقرأ من أول الكتاب أنواع الاعراب فيستشهد على معنى المعرب بقوله صلى الله عليه وسلم (التيب يعرب عنها لسانها) - ثم تقرأ باب غير المنصرف فيستشهد على الصرف للتناسب بالنظير بقوله (خير المال سكة مأبورة وفرس مأمورة)^١ وعلى صيغة الجمع المنتهى بقوله (إنكن صواحبات يوسف) وعلى وزن الفعل بقوله (إن الله نهاكم عن قيل وقال) - ثم تقرأ باب الفاعل فيستشهد على الحصر بقوله (إنما الأعمال بالنيات وإنما الولاء للمعتق لا صلاة لرجل إلا في المسجد) - ثم تقرأ باب الاختصاص فيستدل على قيام الاسم المضاف الدال على المراد من الضمير مقام أى بقوله (إننا معاشر الأنبياء فينا بكء) أى قلة كلام، وهلم جرا، والرضى في الاستدلال بالحديث متابع لابن مالك قبله.

وأما قول على كرم الله وجهه فان الكتاب ممتلىء به مع النسبة في بعض الأحيان إلى نهج البلاغة، ويكفيك لتقدير ثقة الرضى بكلام الامام ما ذكره عند التمهيد على الاستدلال لورود إذ بعد بيننا في باب الظروف من الجزء الثاني إذ يقول (ألا ترى قول أمير المؤمنين على رضى الله عنه وهو هو من الفصاحة بحيث هو: بيننا هو يستقيها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته)^٢

(١) السكة السطر من النخل، والمأبورة الملقحة، والمأمورة كثيرة النسل من أمر الزيد بحرف فكان حقها مؤمرة لولا الأتباع، وهذا ما قاله أيضاً القالي قدماً في الآمال ج ١ ص ١٠٣ ولكن البكرى في التنبيه على أوهام القالي فند الاتباع مراعي أن الفعل الثلاثي مؤد هذا المعنى راجع التنبيه ص ٤٢

(٢) هذه الجملة المذكورة من الخطبة الشقشقية المعروفة يعجب من أبي بكر في استقالاته من الخلافة أول الأمر مع حرصه آخر حياته على عقدها لعمر وقد ذكر بعضها في النهج

فلا عجب أن يلجأ إليه في عدة أبواب - يقول في حذف الخبر وجوبا (وفي نهج
 البلاغة وأنتم والساعة في قرآن واحد ... وقريب منه قول أمير المؤمنين
 على رضى الله عنه فهم والجنة كمن رآها) - وفي باب المفعول المطلق لمناسبة
 جواز ذكر العامل وحذفه يقول (وفي نهج البلاغة في الخطبة البكالية :
 نحمده على عظيم إحسانه ونير برهانه ونوامى فضله وامتثانه حمداً يكون
 لحقه أداء) - وفي باب المفعول له استدلال على عدم لزوم التشارك بين الفعل
 والمفعول في الفاعل يقول (والدليل على جواز عدم التشارك قول أمير
 المؤمنين على رضى الله عنه في نهج البلاغة : فأعطاه الله النظرة استحقاقاً
 للسخط واستتماماً للبليّة - والمستحق للسخط إبليس والمعطى للنظرة
 هو الله تعالى) والكلام في الشيطان - وهكذا استرسل الرضى في الكتاب ،
 والرضى في الاستدلال بكلام الامام غير مسبوق ، ولم أقف على شيء
 في ترجمة الرضى أتلمس منه هذه الوجهة الجديدة أنرجع إلى النسب أم التشيع ؟
 وأياً ما كان فإن الامام لا نكران في صحة الاستشهاد به
 وأما النظم فقد دعم الرضى القواعد بالشواهد الشعرية أيضاً فذكر
 في كتابه سبعة وخمسين وتسعمائة ، والمستقرى لها يتبين أن أكثرها
 للجاهليين والمخضرمين والاسلاميين ممن يستشهد بكلامهم فقد عُرِفَ
 قائلها ، والباقي بعضه مجهول القائل ولا حرج في ذلك لأن أكثره من
 أبيات سيديويه المعدودة وسيديويه مصدر ثقة - وقليل منه لم يوقف على
 قائله غير أن كتب السابقين اعتمدت عليه ، وبعضه منسوب للشعراء
 المحدثين الذي لا يعتمد النحاة بهم في أحكامهم - هذا - وقد ساق الرضى
 قليلاً من الشعر لمناسبات معنوية لا علاقة لها بالقواعد ، وإن أردنا سعة

اطلاعه في الأدب بما لم يتح لنحوى غيره - فمن هذا في باب المبتدأ والخبر
لتوجيه تقديم المبتدأ على الخبر في نحو (سلام عليكم) قوله: إن تقديم الخبر
ربما يتسرب منه الدعاء عليه قبل المبتدأ، ونظير ذلك أن أبا تمام لما أنشد
في مطلع قصيدة في مدح أبي دلف العجلي
على مثاها من أربع وملاعب
«تذال مصونات الدموع السواكب»
قال بعض الحاضرين قبل نطقه بالشرط الثاني (لعنة الله والملائكة
والناس أجمعين) فأنخذل أبو تمام عن إتمام الانشاد، ومنه في باب التنازع
عند ذكر رأى الكسائي الموجب حذف الفاعل من الأول عند إعمال
الثاني خوف الأضمار قبل الذكر، مع أن الحذف أشنع من الأضمار قبل
الذكر، قوله: فحال الكسائي حال «سميد بن حسان» إذ يقول:
فكنت كالساعي إلى متعب موائلا من سبيل الراعد
ومنه في باب المفعول به المناسبة حذف الفعل جواز ووجوباً في
قولهم (انته أصرأ قاصداً) عند شرح المثال قوله: القصد خلاف القصور
والأفراط كقول الشاعر
«ولاتك فيها مفرطاً أو مفرطاً»
كلا طرفي قصد الأمور ذميم
ومنه في باب أسماء الأصوات عند الكلام على ويلته وأن هذا
الدعاء على حد قائله الله عند التعجب قوله: فان الشيء إذا بلغ الكمال يدعى
عليه صوناً له عن عين الكمال، كما قال جميل
رمى الله في عيني بئينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقوادح
وهكذا - وليس في مثل هذا النوع من مؤاخذه على الرضى،
إنما المؤاخذه عليه في الشهادة بشعر المحدثين، والنعمة لا ينظرون إليه

في اتخاذه أساساً للقوانين النحوية بحال ، وقد ذكر منه مقداراً كبيراً
سأذكر لك بعضاً منه على ترتيب الشرح مكثفياً به عن الباقي لسهولة
الوقوف عليه

من شواهد الشعراء المحدثين

قد استشهد رحمه الله في باب الفاعل بقول أشجع السلمي
كأن لم يمت حتى سواك ولم تقم على أحد إلا عليك النوائح
وفي باب المبتدأ والخبر بقول أبي نواس

غير مأسوف على زمن ينقضي بالهم والحزن
وبقول أبي تمام الطائي

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأرى الجنى اشتارته أيدٍ عواسل
وفي باب الحال بقول بشار

إذا أنكرتني بلدة أو نسكرتها خرجت مع البازي على سواد
وبقول أبي الطيب المتنبي

قبلتها ودموعي مزج أدمعها وقبلتني على خوف فما لهم
بدت قرأ ومالت خوط بان وفاحت عنبراً ورنّت غزالا

وفي باب اسم الفعل بقول ربيعة الرقي

لستان ما بين اليزيدين في الندي يزيد سليم والأغر بن حاتم

وقد كرر الاستشهاد بالمتنبي في أبواب عدة ، ولا ريب أن استشهاده
بالمحدثين إحدى الهنات الملاحظة عليه

— انتقاد هين —

الواقع أن الكتاب برهان حق على عبقرية صاحبه وإذا ما تشبعتنا بالملاحظات

الطفيفة فانا لا نعدم العثور على شيء منها - ولا بأس بسرد بعض منها
الآن فدنكها (الأولى) استشهاده بالمحدثين (الثانية) أنه ربما لاح له
تعقب ابن الحاجب في الكافية فلا يبالى التشهير (ورب لأثم ملهم) فانظر
إلى عبارته في رده عليه تجويزه دخول من على تمييز كم الاستفهامية إذ يقول
(فلم أعر عليه مجروراً بمن لا في نظم ولا نثر ولا دل على جوازه كتاب
من كتب النحو ولا أدري ما صحته) - ولهذا كان حسناً من السعد
في البطول رده على الرضى بشاهد فيه التلميح البديع وهو قوله تعالى
(سئل بنى اسرائيل كما آتيناهم من آية بينة) (الثالثة) أنه اعتبر قياسية
تاء الوحدة في الفرق بين الآحاد والأجناس في المخلوقات والمصادر كتمر
وضرب فقال في باب المذكر والمؤنث (وهو قياسى في كل واحد من الجنسين
المذكورين أعنى المخلوقة والمصادر) ثم هو بعد هذا ناقض نفسه إذ يقول
في شرحه على الشافية أواخر باب جمع التكسير (وليس أسماء الأجناس
التي واحدها بالتاء قياساً إلا في المصادر نحو ضربة وضرب إلخ)
على أن تلك الهنات تتلاشى تجاه المحاسن التي انطوى عليها ذلك
الشرح ، وللسيد الشريف (على) الجرجاني تعليقات على الشرح جمعت
بين الوجازة والأفادة ، وقد نال هذا الشرح الإعجاب منذ شمع نوره في
المشرق ، ولم ينبثق نوره في مصر إلا أخيراً

ظهوره بمصر

من العجب العجيب أن يطول الأمد على اختفاء هذا الشرح
النفيس بعد تأليفه عن نحاة مصر ، فلا يدخل مصر إلا بعد ابن هشام
المتوفى سنة ٧٦١ هـ ، قال البقاعى إبراهيم بن عمر المتوفى سنة ٨٨٥ في كتابه

مناسبات القرآن (ولم ينقل الشرح من العجم إلى الديار المصرية إلا بعد أبي حيان وابن هشام)^١ وإني أعلم غير ظان أنه مع نقله إلى مصر بعد ابن هشام لم تتداوله الأيدي العامة وأن قليلا من العلماء اطلع عليه فلم يتيسر لكثيرهم السماع به ، بله الوقوف عليه — فلاشعوني المتوفى سنة ٩٢٩ لم يذكر الرضى مرة واحدة في شرحه ، والأشعوني أولع المؤلفين بجمع المعلومات والتأليل لها في شرحه ، وستعرف هذا عند التعريف بشرح الأشعوني ، فما لا شك فيه أن شرح الرضى حرمت منه مصر طويلا ، إذ الكتب النحوية التي تعتمد عليها مصر إنما هي مؤلفات ابن هشام وابن عقيل والأشعوني ، وهي خالية من كل جزئية علمية لها اتصال بالرى ، ومن اليقين أن الأيام لو تقدمت بظهور شرح الرضى لارتشف منه هؤلاء المؤلفون المتدربة كتبهم بأيدينا وعليها اعتمادنا من مناهله السائغة العذبة ، واعتمادوا في الأحكام محاولة ضم كل شيء إلى إفقه ، وازدادوا في تنقيح علمها ما وسعتهم الفكرة ، — هذا وقد توفي الرضى رحمه الله سنة ٦٨٦ هـ

٣ - الكافي جى : هو أبو عبد الله محمد بن سليمان ، ولد في بلدة (ككجة كى) من آسيا الصغرى ثم ارتحل إلى فارس فسمع من الفنى وغيره ، واشتهر بالكافى جى للملازمة (كافية) ابن الحاجب ، ثم هبط مصر وفيها نبه قدره ودان له العلماء في متنوع الفنون ، فازدحم الطلاب على دروسه طبقة بعد أخرى ، وصنف ما يرى على المائة وأغلب المؤلفات مختصرة . ومن أنفسها فى النحو شرح (القواعد الكبرى) لابن هشام

(١) نقلها البغدادى فى مقدمة الخزانة (الأمر الثالث)

توفي بالقاهرة سنة ٨٧٩ هـ^١
 ٤ - الجامي : هو أبو ضياء الدين عبد الرحمن نور الدين بن أحمد
 نظام الدين ، ولد في قرية خرجرد من قرى جام (ولاية بخراسان) وانتقل
 مع والده صغيراً إلى هراة فشب معروفاً بالجامي ، وتلقى بالمدرسة النظامية
 عن السمرقندي وشهاب الدين الحاجري وغيرها ، ثم طمعت نفسه إلى
 الازدیاد في العلم فتوجه إلى سمرقند وسمع من قاضي زاده الرومي الذي
 أطراه كثيراً وتنبأ عن أمل فيه كبير ، وهنا طارت شهرته في المشرق ،
 فقفل إلى هراة ودنا من قلب سلطانها أبي الغازي السلطان حسين مرزا
 آخر سلاطين بني تیمور المتوفى سنة ٩١١ هـ وطوفت سمعة الجامي حتى
 رغبت السلاطين في لقياءه ، ولهذا لما سافر إلى الحج أرسل له السلطان
 محمد الفاتح العثماني يستزيه بعد عودته من الحج غير أنه اعتذر رغبة في
 سرعة العودة إلى هراة ، كما كاتبه ابنه السلطان بايزيد الثاني ، فقد أثر
 الإقامة الممتعة في هراة في ظلال السلطان حسين ، ولقد خلف الجامي
 مؤلفات شتى في متنوع الفنون ، ومن آثاره النحوية شرحه على كافية
 ابن الحاجب وسماه الفوائد الضيائية (نسبة لولده ضياء الدين) ، والشرح
 صغير الحجم كبير المادة ، ومن أبسط المسائل فيه مسألة الكحل وباب لو ،
 ونقل فيه كثيراً عن شرح الرضي لكافية مع غزو النقل إليه ، والأقبال على
 شرح الجامي عن العلماء به ، فعليه حاشية لمحمد مات قبل إكمالها إذ وصل فيها
 إلى بدل الكل من الكل فأكملها الأنصاري ، وحاشية للبسنوي ، وحاشية
 لعصام الدين ، وحاشية لمحمد عصمة الله ، توفي الجامي بهراة سنة ٨٩٨ هـ^٢

(١) ترجمته في الضوء اللامع ، والبغية ، وحسن المحاضرة ، والشذرات ، والبدر الطالع
 (٢) ترجمته في الشقائق (الطبقة السابعة - السلطان محمد) ، والشذرات ، والبدر الطالع

الفصل الثاني

النحو والنحاة في الأندلس والمغرب

إن بلاد الأندلس والمغرب في هذا الحيز قد كثر فيهما علماء النحو الذين دوى ذكرهم في كتبه ، لأنهم نشأوا بعد نضوجه واستكمال مذهبهم الخاص الذي تقدم شرحه وبعض مسائل منه ، وقد خدموا هذا العلم بمصنفاتهم التي أعاضت النحو معظم ما فقدته من كارثة بغداد الصماء لتوافر رغبتهم فيه وقدمية منزلته في نفوسهم ، بل إن منهم من وقف بحمته ونشاطه عليه كابن عصفور وابن الضائع وغيرهما فاكتمسب النحو منهم قوة ساعدته على استطالة عمره بعد عوامل الفناء التي أصابته بأبادة كثير من كتبه وبفترة الخمول التي خيمت على علمائه من أعاصير اضطرابات المشرق وما تولد عنها مدة طويلة ، ولقد سبق لك أن النحو أوفى على الغاية في هذه البلاد هذا العصر (القرن السابع) وكان عندهم شارة النبغ والفوق ، وأن عنوان عرفانه وصمة الرسوخ فيه استظهار كتاب سيديويه ، لأن له المكانة السمية عندهم فمن لم يشتهر به فعلمه مطروح مهما حصل ، ولذا كانوا يقولون عن أحمد بن عبد النور النحوي المعروف المتوفى سنة ٧٠٢ هـ إنه لا يعرف شيئاً ، ولا دهشة من هذه الحال عندهم لأن النهضة الأندلسية في النحو هبت مصاحبة الكتاب عندهم ، فللكتاب اليد الطولى في كونها وإنماءها والبقاء عليها ، ولها فضل إكبارهم منزلة الكتاب عندهم والاحتفاظ به كأنفس ذخيرة لديهم - هذا - وعند الاعتبار والتبصر يجب أن يدرك أن ذلك إيدان بأقول نجمه من هذه البلاد ، وهذا ما حدث فإنه

ما تم أمر إلا بدا في النقصان - فقد اتفق أن شب ضرام الاضطرابات
في البلاد وقد استوى على ملك الأندلس بنو الأحمر الذين يؤثرون الأدب
على النحو والناس على دين ملوكهم ، فدعا ذاك الأمران علماء النحو في
البلاد الى الاستشراف إلى القطرين (مصر والشام) وصاروا ينزحون
إليهما زرافات ووحداً إلى أن بلغ الشر إناء وتفرق ملوك بني الأحمر
شيئاً واستعدى بعضهم على بعض ملوك الأفرنج فقصوا عليهم القضاء
الآخر في حادث تقشعر منه الجلود وسقطت آخره حواضر الأندلس
(غرناطة) على يد فرديناند سنة ١٤٩٢ هـ ونكل الأفرنج بالمسلمين ، ومثلوا
بترائهم العلمي في غرناطة الصورة الكريهة التي ارتكبتها المغول في بغداد
(وما أشبه الليلة بالبارحة) ففرجل من بقى من العلماء إلى القطرين كما
سبق . وفي الحق أنه لولا العلماء الذين جلوا إلى القطرين من بلاد المغرب
ومعهم أغلب مؤلفاتهم لفات العالم العربي من هذا العلم قسط كبير -
وهناك بعض المشهورين منهم مرتبين باعتبار منى وفيائهم
١- الأندلسي : هو أبو محمد القاسم علم الدين الأورقي بن أحمد ، ولد بمرومية
وتردد إلى بلنسية ، وفيها أخذ النحو عن ابن الشريك وابن نوح وغيرها
ولقى الجزولي ، وورد مصر ثم اتجه إلى دمشق فسمع من تاج الدين الكندي
كتاب سيديويه وغيره ، ودفعه طموحه إلى علماء بغداد فجلس في حلقة أبي البقاء
العكبري ، وعاد إلى حلب واستوطن الشام والتف الناس حوله ينهلون من
معارفه إذ كان موطاً الأكناف حسن البزة كما انتفعوا بمؤلفاته الكثيرة ، منها
في النحو شرح مقدمة الجزولي ، وشرح المفصل ، توفي بدمشق سنة ١٦٦١ هـ ١

(١) ترجمته في معجم الأدباء ، ونفع الطيب القسم الاول الباب الخامس ، وبغية الوعاة

٢ ابن عصفور : هو أبو الحسن علي بن مؤمن الأشبيلي ، أخذ عن الدباج والشلوبيني ، وكان أصبر الناس على المطالعة ، بيد أنه وقف عنايته على النحو فما لبث أن توحد بحمل راية النحو في بلاد الأندلس التي تجول فيها كثيراً ، وحدثت جفوة بينه وبين الشلوبيني ، وله مصنفات منها المقرب وشرحه لم يتم ، ومختصر المحتسب لابن جني ، وثلاثة شروح على الجمل الكبيرة للزجاجي ، كان رفيق الدين جلس آخر حياته في مجلس شراب رمي فيه بالنار نج إلى أن مات سنة ٦٦٣ هـ^١

٣ ابن مالك : هو أبو عبد الله محمد جمال الدين بن عبد الله الطائي ولد بمجيتان (بلد بالأندلس) وسمع من الشلوبيني أياما ، ثم ورد المشرق حاملاً ، ثم استوطن الشام فسمع بدمشق وحلب من ابن يعيش وتلميذه ابن عمرون ، ثم تصدر لأقراء العربية في حارب مدة فدمشق التي توطئها فأثني بما أعجز الأوائل لقوة حافظته ، فكان يستشهد بالقرآن فان لم يجد فالسنة فان لم يجد فأشعار العرب التي كان في استذكارها نسيج وحده ، وصنف مؤلفات نظماً ونثراً تشهد له بالتفوق على من تقدم ، وجمع بعضهم أكثرها في نظم ذكره السيوطي في البغية - ولتقتصر هنا على النحوية ، فمن النظم (الكافية الشافية) استوعب فيها كل ما سمعه وشرحها ، و (الألفية) وهي ملخص الكافية طبقت شهرتها الآفاق وترجمت إلى لغات وعليها شروح كثيرة استقرأها كشف الظنون ، ومن شروحها شرح ابن عقيل وشرح الأشموني وسنذكر عنهما نبذة عند الكلام على ترجمة مؤلفيهما ، ومن النثر (الفوائد النحوية والمقاصد النحوية)

(١) ترجمته في فوات الوفيات ، وبغية الوعاة ، وشذرات الذهب

و (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) - ولاغرو أن طلاب اللغة العربية مدينون لهذا الإمام الذي أسدى هذه الذخائر ، فما أحراه بكتاب منفرد فيه التعريف بحياته ومؤلفاته وما فيها بالتفصيل ، نعم إن المحسن لا يضيع عمله عند الله فقد جعل الله لابن مالك لسان صدق فيمن بعده ، فؤلفاته وأقواله تنافلتها العلماء في كتبهم مشاركة ومغاربة ، فالرعي القريب منه زمناً وهو من المشاركة نقل عنه في شرحه الكثير من مقاله ، والمغاربة ومن في القطرين اتبعوه واعتمدوا عليه فكان قطب دأرتهم ، هذا والغريب من ابن خلسكان الذي كان يشيعه إلى بيته بعد الصلاة كل يوم تعظيماً له ألا يترجم له في وفيات الأعيان ، توفي رحمه الله بدمشق سنة ٦٧٢ هـ^١

٤ - ابن الضائع : أبو الحسن علي بن محمد الأشبيلي البكتامي ، لازم الشلويني وأخذ عنه كتاب سيديويه بين قراءة وسماع ، ثم فاق أترابه وأبدع في التصنيف ، له شرح على سيديويه جمع فيه بين شرحي السيرافي وابن خروف مع الاختصار الحسن ، وله مشكلات عجيبة أباها في كتاب سيديويه سبق الألامع إليها في الكلام على علم النحو وعلماؤه في الأندلس والمغرب في المطالب الأول ، وشرح على الجمل الكبيرة الزجاجي ، وكان لا يعتمد في الاستشهاد على الحديث الشريف مخالفاً سنة ابن خروف في التعويل عليه ، توفي سنة ٦٨٠ هـ^٢

٥ - ابن أبي الربيع : أبو الحسين عبيد الله بن أحمد الأشبيلي ،

(١) ترجمته في نفح الطيب الباب الخامس من القسم الأول ، وفوات الوفيات ، والوافي بالوفيات ، وبغية الوعاه ، وشذرات الذهب

(٢) ترجمته في بغية الوعاه

تلقى عن الدباج والشلوبيني ولم يكن في طلبه الشلوبيني أنجب منه ، ثم هاجر من أشبيلية بعد استيلاء الأفرنجية عليها إلى سبتة وتوطنها ، ووقعت مناظرة بينه وبين مالك بن المرحل هل يقال (كان ماذا ؟) ونتج عنها مهاجاة بينهما مقذعة ، ولذا قال مالك

عاب قوم كان ماذا ليت شعري لم هذا
وإذا عابوه — هـ — دون علم كان ماذا^١
ومن مؤلفات ابن أبي الربيع النحوية شرح سيبويه ، وشرح الجمل للزجاجي ، وقد رأيت في حاشية الشمني على المغني الباب الأول مبحث (لكن) أن كتاب (البسيط) من مؤلفاته مع أنني لم أطلع على هذا الكتاب ضمن مؤلفاته في ترجمته ، ومع أن ابن عتيل عند قول الناظم

وفعل أمر ومضى بنيا وأعربوا مضارعا إن عريا
قال (ونقل ضياء الدين بن العليج في البسيط) - وتابعه على ذلك السيوطي في فهرس بغية الوعاه (باب الكنى والألقاب والأسماء والأضافات) عند حرف الباء ونصه (صاحب البسيط ضياء الدين بن العليج أكثر أبو حيان وأتباعه من النقل عنه ولم أفد له على ترجمة) والله أعلم بالحقيقة ، توفي سنة ٦٨٨ هـ^٢
٦ - ابن آجر روم : أبو عبد الله محمد بن محمد الصنهاجي (نسبة إلى صنهاجة قبيلة بالمغرب) المشهور بابن آجروم (الفقير الصوفي) بلغه البربر ، ولد بفاس وذاع فضله في علوم كثيرة إلا أنه غلبت عليه القراءات والنحو ولم يؤثر عنه في النحو إلا مقدمته التي طبقت شهرتها الآفاق ، قال السيوطي

(١) ذكرت المناظرة وما حدث فيها في ترجمة مالك : في نفح الطيب « الباب السابع » من القسم الأول ، وبغية الوعاه (٢) ترجمته في بغية الوعاه ، ونفح الطيب

في بغية الوعاه (وهنأشيء آخر وهو أنا استفدنا من مقدمته أنه كان على مذهب الكوفيين في النحو لأنه عبر بالخفض وهو عبارتهم وقال الأمر مجزوم وهو ظاهر في أنه معرب وهو رأيهم وذكر في الجوازم كيفما والجزم بها رأيهم وأنكره البصريون فتفطن) توفي بفاس ٧٢٣ هـ^١

٧ - أبو حيان : محمد أنير الدين بن يوسف الغرناطي ، ولد بمطخارش (من ضواحي غرناطة) وتلقى عن كثيرين منهم ابن الضائع ودرس بين ظهرانيهم ، ثم هاجر وضرب في مغارب الأرض ومشاركها وأخذ عن كثير ممن لقيه ، ثم انتهى به المطاف إلى القاهرة فأخذ عن ابن النحاس ، وتصدر في الجامع الأقر وصنف كثيراً من مؤلفاته النحوية (التذييل والتكميل في شرح التسهيل) وملخصه (ارتشارف الضرب من لسان العرب) وكان على مذهب ابن الضائع في منع الاستشهاد بالحديث ولذا رد على ابن مالك في شرحه على التسهيل بكلام مسهب ، توفي رحمه الله بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ^٢

٨ - الشاطبي : هو أبو اسحق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي ، تلقى العربية وغيرها عن أئمة المغاربة منهم أبو القاسم السبتي وأبو عبد الله التلمساني والمقرئ وابن لب ، فنبغ في فنون متنوعة وصنف فيها مؤلفات أعجب بها العلماء منها (الموافقات) في أصول الفقه ومن مؤلفاته النحوية شرحه على (الألفية) لابن مالك فانه المنهل العذب الذي اغترف منه النحاة بعده .

(١) ترجمته في الضوء اللامع ، وبغية الوعاه ، وشدرات الذهب
(٢) ترجمته في الوافي بالوفيات ، وفوات الوفيات ، والدرر الكامنة ، وبغية الوعاه ، وحسن المحاضرة (أئمة النحو واللغة) ، ونفح الطيب (الباب الخامس) من القسم الأول ، وشدرات الذهب ، والبدر الطالع

ومن آرائه الصائبة تجويزه الاستشهاد بالحديث إذا علم أن المعنى به فيه نقل الألفاظ لمقصود خاص بها كالأحاديث المنقولة في الاستدلال على فصاحته صلى الله عليه وسلم خلافا لابن خروف وابن مالك المجيزين مطلقاً وابن الضائع وأبي حيان المانعين مطلقاً، وقد أوفى هذا المبحث حقه في باب الاستثناء، ونقله عنه بحذافيره البغدادى في مقدمة الخزانة توفي الشاطبي بالأندلس سنة ٧٩٠ هـ^١

الفصل الثالث

النحو والنحاة في مصر والشام

إن مصر والشام في هذه الآونة كانتا مستعلماتين تخفق عليهما راية واحدة حملها المماليك الذين ولوا أمرهما بعد الأيوبيين منذ سنة ٦٤٨ هـ واتخذوا القاهرة قاعدة ملكهم، وكان المماليك لشعورهم بنقص أحسابهم ولأنهم دخلاء يحاولون استكمال مهابتهم بغرس ما ينمى النفع للبلاد. ثم كان حادث بغداد موحياً إليهم جسامة العبء الملقى على كاهلهم إذ لم يبق للإسلام بلاد ذات شوكة تعقد عليها الآمال سوى القطرين، والاندلس في دور احتضارها الأخير فناصروا اللغة العربية لأنها لغة الدين والشعب ولم تحل جنسيتهم التركية والجر كسية دون اعتمادها لسان الدولة الرسمي وتحبيب علماءها إلى نشرها ورفع لوائها ليستعيدوا مجد العراق في بلادهم وقد كان ذلك مستعجلاً في أدمغتهم

(١) ترجمته في « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » - ديباج ابن فرحون -

حتى أن الظاهر يبهرس البندقدارى استمدعى أحد أولاد الخلفاء
العباسيين الهاربين من أيدي التتر وعقد له بيعة الخلافة فألبسه تاجها
بالقاهرة سنة ٦٥٨ هـ، ولقبه المستنصر بالله واستمد منه سلطنة الملك
نائباً عنه، ولما خرج الخليفة على رأس جيش لمحاربة التتر فقتل، بايع
الظاهر بعده عباسياً آخر هو (أبو العباس أحمد) ولقبه الحاكم بأمر الله
وهو جد الخلفاء العباسيين بمصر، وهكذا استمرت الخلافة العباسية في
القاهرة مدة ولاية المماليك للقطريين وإن كانت صورية، فقوى بالاعتزاز
بها مشائهم واشتدت شوكتهم فاستطاعوا مقاومة (تيمور لنگ) الذي
حاول بعد فتوحاته إلى سورية أن يستحوذ على القطريين فأرسل إلى السلطان
(قلاوون) - وكان يضطغن عليه لكن الله أنقذه من شره وتغلب عليه
في موقعة (حمص) فنجى القطران من الوقوع في يده - مضت الحقبة
الطويلة التي ولي فيها المماليك القطريين وكأن الله أراد أن يعيد إلى المسلمين
فيهما بعض ما رأوه في العراق إبان مجده الزاهى فقامت القاهرة مقام
بغداد، وكما ورثتها في الخلافة العباسية نابت عنها في النهود بالثقافة العلمية،
فلا غرو أن القطريين كانوا آتخذ ملتقى علماء المسلمين من مشارق الأرض
ومغاربها، وتوالت النهضة في القطريين إلى أن أدال الله لبني عثمان من
المماليك واستولى السلطان سليم على القطريين سنة ٩٢٣ هـ فضعفت النهضة
وتغير الحال، وعلى هذا فينبغي الكلام على النهو وعلمائه في كل عصر من
العصرين على حدة لاختلاف الشأن فيهما.

النحو والنحاة في عصر المماليك

وضيح مما فات أن المماليك قبضوا على زمام المقاليد في القطريين والعراق

في الاحتضار والاندلس في سبيل الزوال ، وأن علماءهما لم يلقوا أمامهم
 موطناً يعيشون فيه ويجدون مبتغاهم من الهدوء ونشر العلوم والأفادة
 والاستفادة إلا القطرين لا سيما وقد عرف عنهما حب العلماء وإكبارهم ،
 وإن العلماء بدورهم قد رأوا إفقار البلاد من الكتب العربية ، يقول السيوطي
 وهو من علماء هذا العهد (وقد ذهب جل الكتب في الفتن الكائنة
 من التتار وغيرهم بحيث إن الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف
 المتقدمين والمتأخرين لا تبقى حمل حمل واحد) ، وربما كان في هذا الكلام
 شيء من الغلو إلا أنه أياً ما كان دليل على إحسانهم بالنقص والخسارة ،
 وواجب الدين في أعناقهم يقضى عليهم بأحياء ما درس من علوم لغة الدين ،
 وبينهم بعض المشاركة الذين فروا من وجه المغول والجم الغفير من المغاربة
 الذين وردوا القطرين من عهد بعيد فهدت حركة طيبة في علومها
 وفي مقدمتها النحو . ومن الأنصاف أن نقول إن عماد هذه الحركة التي
 كان فيها إمساك للحوباء إنما هم جالية الأندلس الذين سلف ذكرهم فانهم
 لما ألبسوا بالقطرين واتخذوها مقرأ لهم بثوا علمهم وأذاعوا مصنفاتهم فيهم ما
 بين الناس فتخرج عليهم تلاميذ كانوا كواكب العصور المتأخرة وصارت
 مصنفاتهم نبراساً لمن صنف بعدهم من العلماء ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن
 رحلتهم إلى القطرين كانت بعيدة العهد وطالت أيامها فاختلطوا بالعلماء قبل
 حداثتهم بزمان غير قريب ولا كذلك المشاركة الذين بغتوا بمحادثتهم ولجأوا
 إلى القطرين فانهم وردوها وقد تشبع العلماء من روح المغاربة ، ومن هنا ندرك

السر في تغلب المذهب الأندلسي

عند نخاعة القطرين على البغدادى

من الحديث السالف الذى وقفت منه على تبكير المغاربة عن المشاركة
فى النزوح إلى القطرين واستيطانهما ومعهم مؤلفاتهم وقد تكون لديهم
مذهبهم تدرك أن مذهبهم سبق المذهب البغدادى إلى علماء القطرين ،
فإن علماءهما قد تتلمذوا لهم فتشبعوا بروحهم وتغلب المذهب الأندلسي
عليهم فتغلغل فى الدراسة والتصنيف والرأى أخيراً ، فألفية ابن مالك
الأندلسي التى كثرت الشروح عليها وطاف المؤلفون فى القطرين حولها هى
التي توزعت دراستها على مراحل التعليم باعتبار شروحيها سهولة وصعوبة ،
واختصاراً واتساعاً - وكذا (الكافية الشافية) له أيضاً ، وقد راجت
أقوال ابن مالك حتى عند المشاركة ، فقد نقل الرضى عنه كثيراً فى شرحه
(الكافية) لابن الحاجب ، وبالجمله فإن اتجاه النخاعة بعد اقتنى المنهاج
الأندلسي وما برح إلى عصرنا الحاضر فى القطرين - ففي هذا العصر
فاضت دراسة النحو فى أغلب مدن القطرين وبخاصة فى القاهرة
ودمشق وحلب ، وقد كانت الدراسة أول أمرها أشبه شىء بعلاج المريض
الذى لم يبق فيه إلا الدماء وليكن أطراؤها على طول الأيام مخوفة بالترغيب
والتقدير قد أكسبها استعادة ما فقد النحو من الازدهار ، فظهر فى البلدين
جها بذة العلماء الذين حفظوا وجود هذا العلم بعد نكبتى المشرق والمغرب
ونقلوه كاملاً غير منقوص لمن بعدهم ممن حدثوا فى عصور الظلام ، ونشطت
حركة التأليف لتزايد الأقبال عليهما ، ومن مظاهر هذا النشاط أن توخى
أغلب المؤلفين فى مؤلفاتهم المتعددة التدرج والتنويع فيها لاختلاف قدر

الطالبين من مبتدئ وشاد ومنته، فجمعوا فيها بين وجيز ووسيط وبسيط .
 حباً في تعميم النفع كما صنع ابن مالك وابن هشام والسيوطي ، نعم إن التأليف
 على عمومته في خلال هذا العهد قد طرأ عليه اتجاه جديد ، وذلك أن معظم
 المؤلفات السابقة كانت زعيمة بالأبانة عن نفسها بنفسها لا ترتقب تفسيراً
 ولا توضيحاً مع النزوع إلى الوجهة النحوية ، يستوى في هذا مطولها
 ومختصرها إذ لم يقصد واضح - هو المختصرات سابقاً إلا مجرد التسهيل
 على المبتدئ بذكر جزئيات من مسائل العلم تؤنسها إذا جديفها ، فساوت
 عباراتها في التأدية ما فيها من المعاني ، ومن ألف مختصراً على هذا النهج
 قديماً الزجاجة في (الجل الكبير) وعبد القاهر الجرجاني في (جمله) أيضاً
 أما في هذا العهد فقد طفق المؤلفون ينشئون المتون مع استيعابها
 لما في المطولات ويفتنون في سبيل إيجازها ما وسعته قدرتهم ، ومن هنا
 مست الحاجة إلى الشروح وربما جللت بالحواشي ، وأقرب الأمثلة لهذا
 شروح كافية ابن الحاجب وألفية ابن مالك وكافيته ومغنى ابن هشام
 وتوضيحه وبعض حواشيه . وهذه المؤلفات التي كانت غزيرة المادة العلمية
 من الجهة النحوية لم يعجبها إلا ما شابها في الشروح والحواشي من كثرة بيان
 اللهجات العربية لكثير من الكلمات مما يمت إلى فقه اللغة بسبب وثيق ،
 ومن التعليل والتوجيه لمتضارب الآراء النحوية مما لا يعود بظائل
 على النحو ، ومن محاولة أخذ القاعدة النحوية من مادة الكتاب المعلق عليه
 وكثيراً ما يكون في العبارة قصور في الدلالة . لكن هذه الهنات لم تذهب
 بحاسن هذه المصنفات ، وجلها ما يزال إلى يومنا عتاد طلاب النحو
 ومطمح أنظارهم ، ويظهر أن الحامل لهم على الأكثر من المتون حبيبهم

في سرعة تلافى ما ضاع من كتب النحو ، والمتون كفييلة بجمع ما أكثر من القواعد في موجز الكلام فلكي يسهلوا على الراغبين جمع شتات هذا الفن في قبضة اليد صنفوها كعلاج بداههم ، فلم يكن بعد هذا بد من شروح تكشف قناع هذه المخدرات المكنونة ، وبالتالي قد تقتضى الشروح تفصيلاً لما أجهل فيها فكانت بعض الحواشي - فما أجدر عهد الممالك بتسميته عهد المتون والشروح ، وسيتبين لك عند تراجع علمائه أن معظم مؤلفاتهم متون وشروح ، فقاما ترى حاشية لمؤلف منهم - كل ذلك والاقطار الإسلامية الأخرى منهرفة عن هذا العلم وغيره ترزح تحت نير الظلم من ملوك لا تحنو على اللغة وعالمها ولا تربطها بها أسباب ، فان المطالع لصفحات تاريخ النحويين لهذا العهد لا تكاد تقع عيناه عليهم إلا متوطنين بالقطرين إما نازحين إليهما أو مولودين بهما ، فما لا مزية فيه أنه لولا القطران في هذا الأمد لا نقطعت الصلة بين النحو وقديمه وحديثه ، ولكازله نظام آخر ، تلك هي حالة هذا العلم ورجاله - وهالك بعض مشاهيرهم مع الترتيب الزمني في وفياتهم

١ - ابن الناظم : محمد بدر الدين بن محمد ولد بدمشق فأخذ عن أبيه ونشأ حاد الذهن إلا أنه غلبت عليه معاشرته الشذاذ فأقصاه أبوه فأقام ببلدك وانتفع الناس بعلمه ، وكانت له مشاركة في علوم كثيرة ، ومن مؤلفاته النحوية شرحه على (ألفية) والده ، وقد تعقبه كثير من أئمة اللغة ، انظر باب المفعول المطلق والتنازع والصفة المشبهة وربما حمله التعقب إلى الانيمان ببيت منه بدل آخر ، ففي باب التنازع رأى أن قول أبيه بل حذفه الزم إن يكن غير خبر وأخره إن يكن هو الخبر

يفيد أن ضمير المتنازع فيه إن كان المفعول الأول في باب ظن يجب حذفه مع أنه لا فرق بين المفعولين فاستصوب أن يقول بدله واحذفه إن لم يك مفعول حسب وإن يكن ذاك فأخره تصب والشارح في الواقع مغلق ولهذا كثرت الحواشي عليه ، فكتب عليه ابن جماعة والعيني والسيوطي وذكريا الانصارى وابن قاسم العبادي وغيرهم . ومنها شرحه على (كفايته) أيضاً ، ولما توفي أبوه استدعى إلى دمشق فولى وظيفة أبيه ومات بمرض القولنج شاباً بدمشق سنة ٦٨٦ هـ^١

٢ - ابن النحاس : هو أبو عبد الله محمد بهاء الدين بن إبراهيم الحلبي أخذ عن ابن يعيش وابن مالك وغيرهما ودخل مصر وتلقى عن مشايخها ثم صار إمام المصريين في العربية ودرس بالجامع الطولوني - وفي فوات الوفيات ترجمة (محمد بن رضوان) من شعره إلى الشيخ بهاء الدين سلم على المولى البهاء وصف له شوقى إليه وأنى مملوكه أبداً يحركنى إليه تشوقى جسمى به مشطوره منهوكة لكن نحات لبعده فكأننى ألف وليس بممكن تحريكه

ولم يصنف إلا ما أملاه على (المقرب) لابن عصفور توفي بمصر سنة ٦٩٨ هـ^٢

٣ - المرادى : هو الحسن بن قاسم المصرى ، أخذ عن أبي حيان وغيره ، وصنف وتفنن وأجاد ، فمن مصنفاته شرح المفصل ، وشرح التسهيل ، والجنى الدانى فى حروف المعانى ، وشرح الألفية - ومؤلفات المرادى مصادر لدى النحاة وثيقة ، فالدمامى عول فى شرح التسهيل على شرحه ،

(١) ترجمته فى الوافى بالوفيات ، وبغية الوعاء ، وشذرات الذهب

(٢) ترجمته فى بغية الوعاء ، وفوات الوفيات ، وشذرات الذهب

والأشعرون نقل في شرح (الآلفية) كثيراً عن شرحه ، وقالوا إن ابن هشام استفاد في (المغنى) من الجنى الدانى - توفى بالقاهرة سنة ٧٢٩ هـ^١ ، ابن هشام : هو أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصارى ، ولد بالقاهرة ولزم عبد اللطيف بن المرحل وسمع على أبي حيان ديوان زهير وحضر دروس التاج التبريزى ، ثم فاق أقرانه بل شيوخه وتخرج على يده الكثير - صنف المؤلفات الملية بالفوائد الغريبة والمباحث الدقيقة والاستدراكات العجيبة مع التصرف في منهجها والتنويع في إفادتها مما يدل على الاطلاع الغريب - فمنها شذور الذهب في معرفة كلام العرب وشرحها ، وقطر الندى وبل الصدى وشرحها ، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، وشرح التسهيل لابن مالك ، والجامع الكبير ، والجامع الصغير ، والأعراب عن قواعد الأعراب ، ومغنى اللبيب عن كتب الأعراب - وكتاب المغنى قد أتى فيه بالعجب العجيب وابتكر فيه أسلوباً جديداً في عالم التأليف النحوى فطارت شهرته إلى المغرب يقول ابن خلدون (ووصل إلينا بالمغرب لهذه المصنوع ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها إلى أن قال فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه والله يزيد في الخلق ما يشاء)^٢

إن ابن هشام نسيج وحده ، فما من كتاب له إلا وفيه شاهد على علو كعبه ، وانتبين ذلك فأمامك التوضيح والمغنى - ففى التوضيح خطأ

(١) ترجمته في البغية ، وحسن المحاضرة (أئمة النحو واللغة) ، والدور ، والشذرات
(٢) المقدمة الفصل السادس علوم اللسان علم النحو ، ومن اعجاب ابن خلدون ذكر مثل ذلك قبل في المقدمة فصل (في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل)

ابن مالك في مسائل كثيرة ، وسأقتصر على قليل منها خوف التعاويل ،
ففى أول باب التمييز عقب عليه في قوله :

اسم بمعنى من مبين نكره ينصب تمييزاً بما قد فسر
بأن تمييز النسبة ناصبه المسند لا النسبة ، وفي باب الاضافة عقب عليه في قوله :
قبل كغير بعد حسب أول ودون والجهات أيضاً وعل
بأن (حسب) لا تعرب نصباً إذا نكرت وأن (عل) لا تضاف ولا تنصب
على الظرفية أو غيرها ، وفي باب الوقف عقب عليه في قوله :
وليس حتماً في سوى ما كع أو كيع مجزوماً فراع ما رعو
بأن المضارع المجزوم الباقي على حرفين لا تجب فيه هاء السكت بدليل
إجماع المسلمين في الوقف عل (ولم أك) بترك الهاء - وفي المغنى وازن
كثيراً بين المذاهب النحوية وإن كان صغوه مع البصريين
فما اختار من مذهب الكوفيين

١ - إنكارهم وجود أن المفسرة قال (وعن الكوفيين إنكار أن
التفسيرية البتة وهو متجه عندي الخ) ١
٢ - ورود أن شرطية قال (وإليه ذهب الكوفيون وبرجحه
عندي أمور الخ) ٢

٣ - إعراب فعل الأمر بالجزم بلام الأمر المقدرة لأنه مقتطع من
المضارع المجزوم بها قال (فحذفت اللام للتخفيف وتبعها حرف المضارعة
وبقولهم أقول لأن الأمر معنى الخ) ٣

٤ - عدم وجوب أن تكون أم المنقطعة بمعنى بل والهمزة جميعاً قال

(١) الباب الأول «أن» (٢) المبحث الماضي (٣) الباب الأول «اللام»

(والذى يظهر لى قولهم إذ المعنى فى نحو أم جمع - لو الله شركاء ليس على الاستفهام إلخ) ^١

ولعلك غير ناس رده فى المعنى على الزمخشري وابن مالك فهمهما عبارة سيديويه فى غلط العرب المذكورة سابقا فى أواخر أسباب اختلاف البصريين والكوفيين .

كنت أود أن أذكر تعريفا خاصا بكتاب (المعنى) أعرض فيه سبب التأليف له وانجازه فيه ونقده للنحاة وانتجاءه منحنى قويا فى الاستشهاد بالقرآن الكريم وما آخذ على العلماء فى أغريب مشتهرة وما إلى أولئك من مزايا أخرى ، لكن لا يتسع هذا الكتاب لكل مانود ، وما يجدى التعريف إلا بسفر خاص به - غير أنه مما لا ينبغي التساهل فيه أن أنبه على أن المعنى قد تبارى العلماء فى التعليق عليه منذ ظهر فشرحه ابن الصائغ إلى أثناء الباء الموحدة وسمى شرحه (تنزيه السلف عن تمويه الخلف) ، والدمايني بعد أن علق عليه فى الديار المصرية ونزح إلى الهند شرحه بتوسع وسمى شرحه (تحفة الغريب بشرح معنى اللبيب) وفى هذا الشرح اعتراضات على المعنى كثيرة تعقبها الشمنى فى حاشيته عليه المسماة (المنصف من الكلام على معنى ابن هشام) ، وللسيموطى حاشية على المعنى وصل فيها إلى (ستى) وللأثير حاشية تامة ، وللدسوقي أيضا ، وللأثيرى سماها (القصر المبني على حواشى المعنى) وصل فيها إلى أول الباب الثانى ، توفى ابن هشام بالقاهرة ودفن خارج باب النصر سنة ٧٦١ هـ ^٢

(١) الباب الأول « أم »

(٢) ترجمة فى الدرر ، والبغية ، وحسن المحاضرة ، والشذرات ، والبدر الطالع

٥ — ابن عقيل : هو أبو عبد الرحمن عبد الله بهاء الدين بن عبد الرحمن ،
الحملي أصلاً ، تلقى عن الجلال القزويني وأبي حيان وغيرهما ، واشتهر في
العربية حتى تبوأ منزلة مشايخه ودرس بالقطبية والخشبية والجامع
الناصرى بالقلمعة ، والجامع الطولوني ، وولى القضاء الأكبر لشهرته بالتمدين
إلا أنه كان غير محمرد التصرفات المالية على نفسه ، ومن مؤلفاته النحوية
شرحه على التسهيل المسمى (المساعد على تسهيل الفوائد وتكميل
المقاصد) ، وشرحه على الألفية ، وهالك كلمة عن هذا الشرح

— شرحه على الألفية —

يمتاز هذا الشرح بالسهولة فلا يحتاج الطالب الشادى إلى تفهيمه
من موقف وليس من المبالغة أن يقال إن هذا الشرح هو الذى أرشد
المتعلمين إلى معرفة المراد من الألفية تماماً ، فان عنايته متجهة إلى إيضاها
وتبيان المقصود منها وهو شرح حسن متوسط فى النصف الأول ومختصر
فى النصف الثانى وتجلى فيه مؤاتمة ابن عقيل للنظام ، ولهذا دافع
هجوم ابنه عليه فى شرحه كثيراً فيقول مثلاً فى باب المفعول المطلق
(وقول ابن المصنف إن قوله وحذف . . . ليس بصحيح) وقد اهتم
العلماء بهذا الشرح وكتبوا عليها الحواشى فمنها حاشية (إرشاد النبيل إلى
ألفية ابن مالك وشرحها لابن عقيل) لابن الميث ، وحاشية لعطية
الأجهورى ، وحاشية للسجاعى ، وحاشية للخضرى ، توفى ابن عقيل
ودفن بالقرب من الامام الشافعى سنة ٧٦٩ هـ

٦ — ابن الصائغ : محمد شمس الدين بن عبد الرحمن ، أخذ عن ابن المرحل

(١) ترجمته فى الوافى ، والدرر ، والبغية ، وحسن المحاضرة ، والشذرات ، والبدر

ولازم أبا حيان فهر في العربية مع النشاط وحدة الذكاء ودمائة الأخلاق،
فسرعان ما تبوأ المناصب العليا، فولى قضاء العسكر وإفتاء دار العدل،
ودرس بالجامع الطولوني، وصنف وأبدع فن مؤلفاته النحوية شرح
الألفية، والتذكرة عدة مجلدات، والرقاة في إعراب لا إله إلا الله،
وحاشية على المغنى سلكت الإشارة إليها، والوضع الباهر في رفع أفعال
الظاهر وهذا الكتاب مذكور برمته في الفن السابع من الأشباه والنظائر
في الجزء الرابع توفي بالقاهرة سنة ٧٧٦ هـ^١

٧ - ناظر الجيش: هو محمد محب الدين بن يوسف، ولد بحلب واشتغل
بها ثم قدم إلى القاهرة ولازم أبا حيان وغيره، ومهر في العربية وولى
نظر الجيش وغيره، فكان المثل الأعلى في الكياسة والجود والتدين، ومن
مؤلفاته النحوية شرح التسهيل لابن مالك سماه (تمهيد القواعد بشرح
تسهيل الفوائد)، توفي بالقاهرة سنة ٧٧٨ هـ^٢

٨ - ابن جماعة: هو محمد عز الدين بن أبي بكر بن عبد العزيز،
ولد بطنجة، أخذ عن ناظر الجيش والسيرامى وغيرهما ثم صار المشار إليه
في الديار المصرية في فنون شتى، ولم يتزوج وكان فيه ميل إلى السهولة
والمزاح، وجاوزت مؤلفاته الآلاف، منها في النحو وحاشية على شرح ابن الناطم
تسمى (المسعف والمعين في شرح ابن المصنف بدر الدين)، وحاشية
على المغنى، وحاشية على شرح التوضيح، توفي سنة ٨١٩ هـ^٣

-
- (١) ترجمته في الوفيات، والدرر، والبغية، وحسن المحاضرة «الفقهاء الحنفية»، والشذرات
(٢) ترجمته في الدرر الكامنة، وبغية الوعاة، وحسن المحاضرة، وشذرات الذهب
(٣) ترجمته في الدرر، الضوء اللامع، والبغية، وحسن المحاضرة، الشذرات، البدر

٩ - الداميني : محمد بدر الدين بن أبي بكر بن عمر الخزومي أصله من دماين (قرية قريبة من الأقصر) ولد بالأسكندرية وتعلم بها ثم هبط مصر وارتفع قدره فيها فالتف حوله الطلاب بالأزهر ثم اشتغل بالدنيا ولما نكب بالحريق هرب من الغرماء إلى الصعيد فاستقدموه مرغماً وبعد صلاح حاله غادر لديار المصرية فدرس في جامع زبيد باليمن وترك اليمن متجهاً إلى الهند وهناك صعد نجمه وأقبلت الدنيا عليه فتفرغ للتعايم والتصنيف فمن مؤلفاته النحوية : شرح تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك الذي أسماه (تعليق الفوائد على تسهيل الفوائد) عول فيه كثيراً على شرح المرادى للتسهيل ، وقد ألفه تلبية لطلب السلطان أحمد شاه ، وفي مستهل الشرح بعد الإهداء كلمة جيدة عن ابن مالك ومؤلفاته ، وله تعليق على المغنى كتبه بالديار المصرية ، وشرح مزيج على المغنى ألفه بالديار الهندية ، سماه (تحفة الغريب في الكلام على مغنى اللبيب) إجابة لرغبة السلطان محمد شاه ، وفي هذا الشرح جلي عن غزارة مادة وعبقورية فذة ، بيد أنه أسرف في تعقبه لابن هشام مما حمل الشمنى على محاولة الرد عليه دائماً في حاشيته المسماة (المنصف من الكلام على مغنى ابن هشام) ففي التسمية ما يغنى عن البيان ، والحقيقة أن الداميني في بعض الأحيان يكون متوخياً لأصابة الحق في اعتراضه ، فمن هذا على نمط التمثيل تخريج ابن هشام في مبحث (كل) قول الفرزدق

وكل رفيق كل رحل وإنهما تعاطى القنا قوماً هما أخوان
بناء على ظنه تنوين (قوما) إذ قال (وهذا البيت من المشكلات لفظاً وإعراباً ومعنى) فأبان الداميني أن (قوما) متنى وطاح كلام ابن هشام

من أسامه - كان الداميني رحمه الله أديباً جيد النظم فترى طلاوة أدبه
في الغازة النحوية المشهورة التي يستعملها بخطاب علماء الهند ، فمنها
إلغازه في مفرد جمع المذكر السالم فقد اشترطوا علميته ومع هذا فلا يجمع
إلا مقصوداً تنكيهه فيقول

أيا علماء الهند — د لا زال فضلكم مدى الدهر يبدو في منازل سعدكم

ألم بكم شخص غريب لتحسنوا بارشاده عند السؤال لقصد

وها هو يبدى ما تعسر فهمه عليه لتهوده إلى سـ جبل رشده

فيسأل ما أمر شرطكم وجوده لحكم فلم ترض النجاة برده

فلما رأيتم ذلك الأمر حاصه — لا أيتهم ثبوت الحكم إلا بفقده

وهذا لعمري في الغرابة غاية فهل من جواب تنعمون برده

وقد أجاب بعض الفضلاء عليه بشعر من بحر وروى السؤال ، كما في حاشية

القطار على الأزهريه مبحث جمع المذكر السالم - ومنها إلغازه في جر الفاعل

وقد ذكره في (تحفة الغريب بشرح مغنى اللبيب) عند الكلام على الجملة

الرابعة المضاف إليها من الجمل السبعة التي لها محل من الاعراب في (الباب

الثاني) ، وذلك أن ابن جنى في الجزء الأول من الخصائص (باب في الفرق

بين تقدير الاعراب وتفسير المعنى) المناسبة قال في بيت طرفه

بحفان تعترى نادينا من سديف حين هاج الصنبر

(يريد الصنبر فاحتاج للقافية إلى تحريك الباء .. وكان يجب على هذا أن يضم

الباء فيقول الصنبر لأن الراء مضمومة إلا أنه تصور معنى إضافة الظرف

إلى الفعل فصار إلى أنه كأنه قال حين هيج الصنبر فلما احتاج إلى حركة الباء

تصور معنى الجر فكسر الباء وكأنه قد نقل الكسرة عن الراء إليها إلخ)
فقال الدماميني على هذا التقدير ماغزاً

أيا علماء الهند إني سائل فمنا بتحقيق به يظهر السر
أرى فاعلاً بالفعل أعرب لفظه بحر ولا حرف يكون به الجر
ولبس بمحكي ولا بمجاور لذي الخفض والانساز للبحث يضطر
فهل من جواب عندكم استفيدته فمن بحر كم مازال يستخرج الدر
وأجاب عن هذا اللغز انظروا أيضاً من البحر والروى السجاعي
فانظروا في ترجمته في الجبرتي .

قال الشمني تعليقاً على الدماميني : قد سبقه إلى الالغاز بهذا فرج
ابن قاسم الأندلسي في منظومته النونية في الالغاز النحوية - وهذا مبني
على القطع بسكون الباء في الصنبر لكن في الصحاح ورودها بالكسر أيضاً
فلا إلغاز وقد نقل ذلك كله تفصيلاً البغدادى في الخزانة مكرراً في شاهدهى
٦٠٧ و ٧٥٩ ، بل على السكون قد يكون الكسر للتخلص لا للنقل
فلا إلغاز أيضاً كما قال الخضرى على ابن عقيل أول باب الفاعل ، توفي
الدماميني بالهند في كبرج سنة ٨٢٧ هـ^١

١٠ - الشمني : أبو العباس أحمد تقي الدين بن محمد بن محمد المشهور
بالشُمْنِي (نسبة إلى مزرعة ببلاد المغرب) ولد بالاسكندرية وقدم مع
أبيه القاهرة فتلقى النحو عن الشطنوفى وبقية الفنون عن أساتذتها
ثم صار واحداً العصر فى سائر الفنون ، وتزاحم الناس فى الأخذ عنه
إذ كانت التلمذة له مفخرة ، وولى المشيخة والخطابة بقايتباى ، وطلب

(١) ترجمته فى البغية ، وحسن المحاضرة ، والفضوء ، والشذرات ، والبدر الطالع

للقضاء فأبى — وله في النحو حاشية على المغنى وشرح الدمامينى سماها
(المنصف من الكلام على مغنى ابن هشام) وسبقت الإشارة إليها ،
وقد وهبها الله القبول فحرص الناس على قراءتها ، غير أنها في الحقيقة ليست
من الحواشى الإضافية التى أسبغت ثوباً جديداً على ما تعلق عليه فليس من
المبالغة قول الشوكاني عاينها فى أثناء الكلام على ترجمة الشمنى فى البدر
الطالع (وقد رأيت حاشية على المغنى وحضرت عند قراءة الطلبة على
فى الأصل فما وجدت بها مما يرغب فيه لا بكثرة فوائده ولا بتوضيح خفى
ولا بمباحثه مع المصنف بل غايتها نقول من كلام الدمامينى وإنى لأعجب
من تنافس الناس فى مثلها) . توفى رحمه الله بالقاهرة سنة ٨٧٢ هـ^١

١١ — خالد الأزهرى : هو خالد زين الدين بن عبد الله ولد بمجرجا
(فى الصعيد) وتحول وهو طفل مع أبيه إلى القاهرة ثم حفظ القرآن وخدم
فى الأزهر وقاداً فسقطت منه يوماً فتيلة على كراس أحد الطلبة فشتمه
وعيره بالجهل فعز عليه شتمه واشتغل بالعلم بعد أن جاوز العقد الثالث
وقرأ فى العربية على يعيش المغربى والسهمورى ، وأخذ قليلاً عن الشمنى
والمناوى وغيرهما ، وقد بورك له فى عمله فصنف مؤلفات انتفع بها لا خلاصه
منها فى النحو (التصريح بمضمون التوضيح) والأزهرية وشرحها ؛
وشرح الاجرومية ، وشرح قواعد الاعراب لابن هشام ، وإعراب الالفية ،
توفى عائداً من الحج بركة الحاج خارج القاهرة سنة ٩٠٥ هـ^٢

١٢ — السيوطى : أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين ابن أبى بكر

(١) ترجمته فى البغية ، حسن المحاضرة (الفقهاء الحنفية) الضوء ، الشذرات ، البدر

(٢) ترجمته فى شذرات الذهب ، والضوء اللامع

نشأ يتيما وكان ذكيا حافظة فتلقف مشايخ العصر في كل فن وأخص
مشايخه في النحو والشمى والسيرامى والكافيجى ونفر في سبيل العلم إلى الشام
والحجاز واليمن والهند ، فأعطاه ربه ما أَرْضاه وصنف مؤلفات في متنوع
العلوم تربو على الثلاثمائة فسبحان الوهاب ، ومن أشهرها في النحو الأشباه
والنظائر ، وجمع الجوامع وشرحه جمع الهوامع ، والاقتراح في أصول النحو
ومن مؤلفاته الممتعة (المزهر) في علوم اللغة وأنواعها و (بغية الوعاة)
في طبقات اللغويين والنحاة ، وهذه الكتب من المراجع القيمة التي لجأنا
إليها في هذا الكتاب ، وبعد فلا أستطيع في هذه الكلمة الموجزة إيفاء المترجم
حقه وقد ترجم لنفسه في الجزء الأول من كتابه (حسن المحاضر في تاريخ
مصر والقاهرة) فارجع إليه تر العجب العجيب توفي بالقاهرة سنة ٩١١ هـ

١٣ - الأشمونى : هو أبو الحسن على نور الدين بن محمد بن عيسى
الأشمونى أصلا ولد بقنطار السباع وتوطن القاهرة مكبا على العلم
مع التقشف في مأكله وملبسه ومفرشه لاهم له إلا العلم والطاعة ، أخذ
عن الجلال المحلى والكافيجى والتقى الحصنى وغيرهم ، ومن أشهر مؤلفاته
النحوية شرحه على الألفية المسمى (منهج السالك إلى ألفية ابن مالك)

— تعريف بشرح الأشمونى —

في الحق أنه أغزر شروح الألفية مادة على كثرتها واختلاف مشاربها
بل إنه من أوفى كتب النحو جمعا لمذاهب النحاة وتعليلا لهم وشواهدهم
على نمط البسط والتفصيل ، ولا غرابة أن يجمع في شرحه ما جمع ،
فأمامه من شروح الألفية شرح ابن الناظم والمرادى وابن عقيل

(١) ترجمته مسهبة أيضا في البدر الطالع ، والضوء اللامع ، وشذرات الذهب

والتوضيح وغيرها، ومن شروح الكافية شرح الناظم وغيره، ومن شروح
التسهيل المرادى وغيره، وأمامه المغنى، وهذا كله عدا كتب السابقين،
فما عليه وقد رام أن يكون شرحه موسوعة إلا أن يضم كل شيء إلى
نظيره ويضعه في موطنه، وإذا أنعم الناظر في شرح الأشموني وكانت
الاصول السالفة بين يديه فانه يسهل عليه أن يرجع المقال إلى مصدره،
وقد يحسن الأشموني في بعض الأحيان فينسب القول إلى قائله فيصرح
بالمغنى في باب المعرب والمبنى عند قول الناظم (وفعل أمر ومضى بنياً)،
وبالتوضيح في باب النكرة والمعرفة عند قول الناظم (كافعل أوافق نغبط
إذ تشكر) وفي الابتداء بعد قول الناظم (وأخبروا باثنين أو بأكثر إلخ)
وبالمرادى في التنازع عند قول الناظم (وأخبره أن يكن هو الخبر)،
وكثيراً ما يصرح بلفظ الشارح يقصد ابن الناظم، ولكن ذلك كله من
الأشموني قليل جداً بالنسبة لأغفاله النسبة إلى صاحب الكلام،
فاذا قرأت المباحث فيه المتعلقة بالادوات في باب (عطف النسق)
مثلاً أو (النواصب) أو (الجوازم) أو (لو) أو (أما ولولا ولوما) أو
(كم وكأين وكذا) وأمثال هذا فانك واجده قد نقل كلام المغنى مع
قليل من التغيير إما بنقص لا يباح أو زيد لا يذكر أو تقديم أو تأخير
ربما أذهب شيئاً من المطلوب زيادة على أنه ربما دعا الكتّابين عليه إلى
تنكب الجادة، ولتهافته على تسطير ماحوته الكتب السابقة. فقد
كتب بعض المعلومات في موطن غيره أنسب بالكتابة فيه وحمله
هذا الصنيع إلى تكرارها ثانياً وثالثاً، والخيلة في التخاص عند
لجوءه إلى (التنبيه) مفرداً ومثنى وجمعاً، ولو اتسقت هذه التنبيهات

فى الترتيب على المعنى المقصود من البيت المشروح لحسنت وضعاً وكانت
الثمره منها أشهى - ولا يتسع هذا الكتاب لضرب أمثاله لكل هذا -
تلك حالة هذا الشرح من الناحيتين العلميه والتأليفية - بقى علينا إيفاء
المطلوب أن نكتب كلمة عن شواهد لا أهميتها لدى المستفيد من الشرح

❦ شواهد ❦

سلك الاشمونى فى شواهد مبيع السابقين عليه الذين دونوها
فى مصنفاتهم : سواء فى ذلك الشعر والنثر ، وسواء فى النثر القرآن
الكريم والحديث الشريف وكلام العرب (مثلاً أو غير مثل)
أما الشواهد النثرية فمحشودة فى الشرح فلنسنا فى حاجة إلى عرض
شئ منها لأن النثر متفق على الاستشهاد به فى غير الحديث أما فيه فتابع
لابن مالك المجيز له على ما سبق فى ترجمته - وأما الشعر فكثير أيضاً
ومقلد فيه من أخذه منهم ، وقد ساعده تأخره الزمنى على جمع مقدار كبير
من مختلف المؤلفات قبله ، فما يمتاز به هذا الشرح زيادة الشواهد فيه
عن المصنفات النحوية زيادة يؤود الطالب حفظها والاحاطة بما تستوجبه
المعرفة بها من قائلها ومن قصائدها ومما قيلت فيه وغير هذا من مقتضيات
الوقوف على جليلة الحال فى الشعر ، وإن المتتبع لهذه الشواهد يعلم أنها
للشعراء المعتد بهم إلا قليلاً غير أن قليلاً من الشعر المعتقد به قد ناله
التحريف أو التصحيف ، لهذا ناسب أن أذكر الأمرين : الشعر المحدث
والشعر القديم الطارىء عليه التغيير

❦ من شواهد الشعراء المحدثين ❦

ذكرت فى الشواهد بعض أبيات للشعراء المحدثين الذين لا يعتد بهم

النحاة ، فمن أمتلة ذلك استشهاده في الابتداء بقول أبي نواس
غير مأسوف على زمن ينقضي بالهم والحزن
وبقول أبي العلاء المعري

يذيب الرعب منه كل غضب فلول الغمد يمسكه لسالا
واستشهاده في باب إعراب الفعل بقول الشريف المرتضى

أتبيت ريان الجفون من الكرى وأبيت منك بليلة الملسوع

— من الشواهد المحرفة أو المصحفة —

كثر ما وقع في شواهد الشعرية من تصحيف أو تحريف ،
ولا يجمل بي أن أعرض كل ما عثرت عليه من تلك الشواهد فانه يقتضى مع
التفصيل رسالة خاصة ، فسأجزي بذكر بعض الشواهد ، وإن ذلك التغيير
العارض على الشواهد قد يجر عليها عدم صحة الاستشهاد بها في الحقيقة ،
وقد لا يستدعى ضرراً في ناحية الاستشهاد بها ، وهالك أمتلة للنوعين

— مما لم يحن التغيير الطارىء فيه على الشاهد —

١ - استشهاد في باب أبنية المصادر بعد قول الناظم (وغير ما مر
السماع عادله) على ورود المصدر بزنة اسم المفعول كعقول في قول الشاعر
لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا
وصحة البيت هكذا

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا
فأنه من قصيدة للراعي النهرى مذكورة في جمهرة أشعار العرب (الملحمت)
فالتغيير طمس وزن البيت فقط ولم يستتبع ضرراً في موطن الشاهد

٢ - استشهاد في باب عطف النسق بعد قول الناظم (وحذف متبوع

بداهنا استبح) على تقدم المعطوف على المعطوف عليه بقول ذى الرمة
 كأننا على أولاد أحقب لاحقها ورى السفى أنفاسها بسهام
 جنوب ذوت عنم التناهى وأنزلت بها يوم رباب السفير خيام
 وصحة البيت الثانى كما فى سيبويه ج ١ ص ٢١٦ هكذا

جنوب ذوت عنم التناهى وأنزلت بها يوم ذباب السبيب صيام
 فالتغير جر إلى الأقواء والأبعاد عن مرمى الشاعر فقط

٣ - استشهاده فى إعراب الفعل بعد قول الناظم (ويلن انصبه)
 على ورود (لن) للدعاء بقول الأعشى
 لن تزالوا كذاكم ثم لا زلت لكم خالدا خلود الجبال
 وصحة البيت هكذا

لن يزالوا كذاكم ثم لا زلت لهم خالدا خلود الجبال
 فإنه من معلقة الأعشى فى جمهرة أشعار العرب

مما جنى التغير فيه على موطن الشاهد

١ - استشهاده فى أول باب (نعم وبئس) للكوفيين على اسميتهما بقول الشاعر
 صبحك الله بخير باكر بنعم طير وشباب فاخر
 وصحة الشطر الثانى (بنعم عين إلخ) كما فى لسان العرب، وشرح
 القاموس، وعلى هذا ضاع الاستشهاد بالبيت

٢ - استشهاده فى إعراب الفعل بعد قول الناظم (ويلن انصبه إلخ) على
 أن المضارع نصب شذوذا بأن الواقعة بعد العلم بقول جرير
 نرضى عن الله إن الناس قد علموا ألا يدانينا من خاقه بشر
 والرواية (ألا يفاخرنا) برفع المضارع والبيت موزون فطاش الاستشهاد للنصب

٣ - استشهد به (في إعراب الفعل) أيضاً بعد قول الناظم (وبعد غير النفي
جزما اعتمد إلخ) على مجيء المضارع مرفوعاً بعد الأمر بقول الأخطل
كُرُّوا إلى حرتيكم تعمرونها كما تكرر إلى أوطنها البقر
والاستشهاد بالبیت مبنى على فعل الأمر أول البیت والحقیقة أنه فعل ماض
فانعدم الاستدلال بالبیت ، وتقدم فی الحديث على آیات سیدویه التي
خطأوا فيها روايته ما يتعلق بهذا البیت تفصيلاً لأن سیدویه أول من
استدل به - وكنت أحب أن أبسط القول فی تحلیل هذا الشرح لأنه
الكتاب المقرر على الطلاب ، وعسى أن تسنح فرصة أكتب فيها
تعريفاً خاصاً به أتناول فيه عناصره تفصيلاً ليكون مرشداً لمن يقرأه
عما فيه ، وقد رزق هذا الشرح القبول بين العلماء فعلق عليه كثيرون فمن
حواشيه حاشية المدابغى وحاشية الأسقاطى وحاشية الحفنى وحاشية الصبان ،
وسأفرد حاشية الصبان بنبعة خاصة في ترجمته توفي الأشموني سنة ٩٢٩ هـ ١

✽ النحو والنحاة في عصر الترك ✽

حان حين دولة المماليك فاضت عليها دولة بنى عثمان على يد السلطان
سليم الذى فتح بلاد القطرين عنوة بعد قتل السلطان (قانصوه الغورى)
فدخل القاهرة عاصمة القطرين سنة ٩٢٣ هـ ، وجد فى طلب (طومان باى)
آخر المماليك ثم صلبه عند (بوابة زويلة) فتم القضاء على المماليك ، وأسر
الخليفة العباسى (المتوكل على الله) الذى ما انفك سجيناً فى الآستانة حتى
تنازل عن الخلافة للسلطان سليمان القانونى بعد توليه ، وبذلك انتهى
عصر المماليك وبدأ العصر التركى فى القطرين فانتقلت الخلافة من العباسيين

(١) ترجمته فى الضوء اللامع ، وشذرات الذهب ، والبدر الطالع

إلى العثمانيين ومن القاهرة إلى (الاستانة) عاصمة المملكة التركية ؛ فاندج
القطران في البلاد التابعة للترك واحتمى استقلالهما واضطرب حبل الهدوء
والأمن فيهما وانتكث فتلها المبرم ثلاثة قرون ، فلا استقلال ولا خلافة
ولا استقرار نظام ، وتفشت فيهما أوبئة الضعف في كل النواحي . وكان
من هذا أن فرصت اللغة التركية على البلاد فركدت ربح هذا العلم
وانحط شأنه بين الناس ، فقل نتاج العلماء فيه وكان أغلب مؤلفاتهم
تلخيص مطولات أو حواشي على الشروح ، فلو تقربت مؤلفات النحاة
في القطرين لم تقع عينك إلا على الحواشي المترادفة على الشروح ، وناهيك
بحواشي شروح (متون ابن مالك) وحواشي شروح (متون ابن هشام)
وقد امتدت تلك الخطة إلى المشرق ، فتوالت الحواشي على شروح
(كافية ابن الحاجب) ولا سيما (الفوائد الضيائية للجامي) فقد جاوز
الامر فيها حده فكتبت على حواشيتها حواش أخرى - وإن التبت
أمامك في كشف الظنون والفهارس العامة فستقف منه على ما لا يدور
بخلدك من كثرة الحواشي كثرة تفضي إلى الاستغراب والدهش -
وسترى عين اليقين الدليل ماثلا في يديك عند سرد علماء هذا العصر مع
ذكر مؤلفاتهم فأنتك واجد أنها حواش على شروح السابقين - وهذه
الحواشي على البسط فيها مشوبة بالنقول المضطربة المتخالفة ولعل ذلك
منشؤه عدم السهولة في الوصول للمراجع المسند إليها النقول ، ومليئة
بالاعتراضات والردود عليها ثم الردود على الردود - هذا كله مع كثرة
التعقيد والالتواء في العبارات والتهافت عليها دون الغرض الحقيقي من
النحو ، ومع كثرة حشوها بالمصطلحات الأخرى من الفنون عريية وعقلية

ومع التعلق بالاستطراد لأوهى الأسباب وعدم ملاحظة من وضع لمستواهم
 الكتاب . ففي حواشي كتب المبتدئين كالسكراروى والأزهرية والقطار
 من المسائل ما لا يهضمها إلا من قد تزود من هذا العلم ، وقد ترتب على هذا
 أن نفر بعض الطلبة الذين لم يتحلوا بفضيلة الجلد والصبر حين صدموا
 في مطلع حياتهم العلمية بهذه الكتب وعيوا بأمرها وانطدمت عليهم
 مسالكها ، لكنه حرص العلماء على صالح العلم دون انتباه إلى ما سواه ،
 والخلاصة أن النهضة التأليفية في هذا العهد الغاشم إن صح لنا
 اعتبارها كانت في الحواشي ، ولم تمنع هذه الحال العامة في التصنيف أن يظهر
 بين الفينة والفينة بعض أفراد لا تنطبق عليهم أحكام هذا العصر ، غير أنهم
 تقسمتهم الزمنية المتطاولة جداً فأجادوا في التصنيف ترتيباً وتقريباً
 وإن لم تكن لهم آثار من ناحية ابتداع وتجديد إذ كان غرضهم الأولى
 إنما هو فهم أو تفهيم عبارات السابقين إذا كانت مغلقة وبسطها إن كانت
 موجزة فقدموا بعلمهم هذا صنعة جميلة وكانوا منحة في أيام كلها محن
 كابن قاسم والشنواني والدنوشري ويس والحفنى والصبان ، ولقد تغالى
 العلماء بعد هؤلاء وكتبوا تقارير على الحواشي كتقارير الانبأى المعروفة
 والواقع أن هذه السلسلة في التأليف الواحد ينوء بحملها الطالب
 عند ما ينتقل نظره مرات مترادفة من متن إلى شرح إلى حاشية إلى تقرير ،
 وإذا ضم إلى هذا ما قامات سلم منه هذه الخطوات في عرض التفسير والايضاح
 من انتقادات شائكة إما على ضعف العبارة أو خطأ الفكرة أو مجافاة
 الاصطلاح الفنى أو غلط الرواية المعزوة إلى غير ذلك تضاعفت الصوارف
 التي تصرف الذهن عن لب المقصود إلى القشور اللفظية والفلسفة التأليفية ،

وليس بخاف أن هذا اللون من التأليف وعبر المسلك على المؤلف
ويقتضيه مجهوداً جباراً يبذله في الوثام بين العلم وبين الكتاب الذي يعلق
عليه - فالفرق جلي بين من ينظر إلى العلم للعلم يدون فيه الفكرة الناضجة
متوخياً في تصويرها أسلوبه المفطور عليه غير ملتزم محاذاة مؤلف آخر
ربما كان معتسفاً في منهجه أو متنكباً جادة الصواب أو مشتت المادة
وما إلى ذلك ، وبين من ينظر إلى العلم لبيان دواخل الكتاب الذي يعاق
عليه باذلاهم في توجيه المراد من العبارة أو تكميل نقص فيها أو تمسيها
مع عبارة لكتاب آخر وأمثال هذا مما لم يحل العلم منه بطائل - فهذه
المؤلفات النحوية المترجمة التي يخطئها العد والتي لم يقيض لهن آخر غير
النحو منلها ، لو أنها كلها أو معظمها تفردت في طرقها وتوحدت في هدفها
وقل منها القليل والقال وأصاب فلان وأخطأ علان واعتمدت في الخلافات
النحوية على الأساليب العربية لا غير ، لو كان هذا لأضفت هذه المؤلفات
على النحو لحل البهجة والرواء - نعم لانستطيع أن ننكر أن هذا الأسلوب
من التأليف يربي فضيلة البحث والتحصيل في الطالب ويكون فيه حليلة
الاعتماد على النفس ويعوده دقة الملاحظة إلا أنه يفوت عليه العناية بتعرف
أطراف المسألة وتكوين صورة لها متضامة الأجزاء ، وفي ذلك نوع من
التضييع للفائدة المنشودة - فان لم يكن الطالب لقينا حاضر البديهة قوى
النظر فر بما أذهب عليه اللاحق من التعليقات السابق وانتهى إلى حيث ابتداء ،
ومن ثمة تدهش كثيراً من الطالب القارئ معظم كتب النحاة المتزود
بما فيها من الأقاويل المستظهر للآراء في الأوابد من المسائل النحوية
حينما تعرض عليه النصوص العربية فلمست بواجد منه خبرة في التطبيق

على معلوماته المكنوزة عنده ، وذلك الداء العقام والمرض العياء
ومن المعروف أن الشعور بالنقص مبدأ الكمال ومن ابتغى العرفان
سما إليه وإن طال السفر ، وإن هذه المحاولات الثقافية منذ انقضاء العصر
التركي سنة ١٢٢٠ هـ في سبيل استعادة النهضة العربية لمكاملة بالنجح إن
شاء الله تعالى ، لأن الثروة العامة المخلفة لعصرنا الحاضر إنما تتطلب منا
تنميرها ، والانتفاع بها موكول للرشد وحسن القوام ، ودراسة النحو
الآن - فيما نعتقد ويصدقه الواقع - يسرته على طالبه وأدنته إلى راغبه
ولو أنه تهيأ للأزهر الشريف وهو ينبوع الدين واللغة تلك الا عصر
الغابرة أن يسترد نهضته مرة أخرى ويعيدها جذعة لكانت له الآخرة
كما كانت له الاولى ، أبقاه الله للغة والدين معقلا ، ووقاه كيد الشائتين ،
ودونك أعلام هذا العهد مرتبين بحسب سني وفياتهم

١ - ابن قاسم العبادي : هو أحمد شهاب الدين الصباغ أخذ عن
ناصر الدين اللقاني وغيره ثم اشتهر بالتحقيق ، وله مصنفات في مختلف
الفنون غاية في الدقة ، منها في النحو حاشية على شرح ابن الناظم ، توفي
بالمدينة المنورة عائداً من الحج سنة ٩٩٢ هـ

٢ - الشنواني : أبو بكر شهاب الدين ، ولد بشنوان (من المنوفية)
وتلقى بالأزهر عن ابن قاسم العبادي وغيره مع شغف بالاطلاع ورغبة
في حفظ الشعر وميل لتتبع مذاهب النحاة وشواهدهم ، ومن مؤلفاته النحوية
حاشية (قطر الندى وبل الصدى) لابن هشام ، وحاشية على شرح القطر
للفاكي سماها (هداية مجيب الندا إلى شرح قطر الندى وبل الصدى)

وحاشية على شرح خالد لقواعد الاعراب لابن هشام سماها (هداية أولى الالباب إلى موصل الطلاب إلى قواعد الاعراب) توفي بالقاهرة سنة ١٠١٩ هـ^١

٣ - الدنوشرى : هو عبد الله بن عبد الرحمن أصله من دنوشر (قرية قريبة من الحملة الكبرى) ولد بالقاهرة وتلقى عن الشمس الرملى ومحمد العلقمى وابن قاسم العبادى وغيرهم ثم ارتحل إلى بلاد الروم وأقام فيها ثم عاد إلى القاهرة وانتفع الناس به فى الأزهر ، وصنف كتب قيمة فى النحو منها (حاشية) على التصريح ، وكان يقول النظم وأكثر شعره فى مسائل نحوية وهى مسرودة فى كتب النحو بكثرة توفي بالقاهرة سنة ١٠٢٥ هـ^٢

٤ - يس : هو يس بن زين الدين ، ولد بحمص وارتحل مع أبيه إلى مصر ، فتلقى عن الشهاب الغنيمى وغيره ، ثم برع فى علوم متنوعة وألف فيها ، ومن مصنفاته النحوية حاشية (قطر الندى وبل الصدى) لابن هشام وحاشية (حبيب الندا إلى شرح قطر الندى وبل الصدى) للفاكهى وحاشية (التصريح) لخالد ، توفي بالقاهرة سنة ١٠٦١ هـ^٣

٥ - الحفنى : يوسف بن سالم ولد بحفنا (قرية بجوار بلبليس) وتلقى بالأزهر عن أخيه محمد ثم نبغ واشتهر بالأدب والشعر ، ومن أبداع مصنفاته النحوية (حاشية) على شرح الأشموني تنافس فيها الفضلاء ، ولكن الصبان تتبعها فى حاشيته هو على الأشموني وفند كثيراً منها توفي سنة ١١٧٨ هـ^٤

٦ - الصبان : هو أبو العرفان محمد بن على ، ولد بالقاهرة ونشأ فقيراً متواكلاً مستجدياً الخلق مع العفة ولم ينشب أن حفظ القرآن والمتون

(٢) ترجمته فى خلاصة الأثر

(١) ترجمته فى خلاصة الأثر

(٤) ترجمته فى الجبرنى

(٣) ترجمته فى خلاصة الأثر

واجتهد في طلب العلوم وحضر على أشياخ العصر كالمدابغى والبليدى
والأجهورى والمدوي فنبغ في العلوم عقليها ونقليها ودرس الكتب القيمة
في حياة أشياخه واعترف العلماء بفضله في مصر والشام فالتف حوله
الخلايق الكثيرون ، وصنف مؤلفات في مختلف العلوم ومن أشهرها
في النحو (حاشيته) على الأشموني التي سارت بها الركبان ، وتلك كلمة خاصة بها

❦ حاشية الصبان ❦

رسم الصبان في مقدمة الحاشية الخطة التي سيعتبعها فيها وأنها تقوم
على ثلاثة عناصر : تلخيصه زبدة ما كتبه السابقون قبله على شرح
الأشموني ، وتنبيهه على ما وقع لهم من أسقام الأفهام ، وتعليقه
مما فتح الله به عليه فاهتدى إليه - كما رسم اصطلاحا خاصا في الإشارة
إلى أسماء السابقين ومنهم الحفنى الذي التزم التعبير عن اسمه بلفظ (البعض)
أما العنصر الأول فالصبان فيه موافى موفق

وأما العنصر الثاني فانه فيه عادل رائده تبيان الحقيقة العلمية مع غير
الحفنى ، فانه تحامل على الحفنى في شدة وعنف لاسجاجة معهما ، وأسرف
في التشهير به متجاوزا العرف التقليدى في رد العلماء بعضهم على بعض
حتى في الهنات الهيئات ، ولهذا كثر ما تندر به وبكتابتة ، ولو أردنا
إحصاء لما وافق فيه الصبان الحفنى ولما خالف فيه لتبين لنا موافقه له في النزر
اليسير مما لم يستطع الصبان فيه مجابهة الصحيح المسلم به - وهالك عشرة
أمثلة للنوعين : ما وافق فيه الصبان وما خالف فيه على ترتيب الكتاب
مع ذكر العبارات النابية من الصبان فيما خالف فيه

— مما وافق فيه الصبان الحنفى —

١ - ما كتبه في باب (النداء) على قول الأشموني (والثني والمجموع)

في شرح قول الناظم (وابن المعرف المنادي المفردا إلخ)

٢ - ما كتبه في باب (مالا ينصرف) على قول الأشموني (ما فيه

من الصيغة إلخ) في شرح قول الناظم (وإن به سمي أو بما لحق إلخ)

٣ - ما كتبه في باب (مالا ينصرف) على قوله (لضعف سبب

البناء إلخ) في شرح قول الناظم (والعدل والتعريف مانعاً مسجراً إلخ)

٤ - ما كتبه في باب (إعراب الفعل) على قوله (وبمعنى ما تأتينا

فأنت تحدثنا) في شرح قول الناظم (وبعد فاجواب نفى أو طلب إلخ)

٥ - ما كتبه في باب (لو) على قوله (إذ لو قدر حصوله) في شرح

قول الناظم (لو حرف شرط في مضي إلخ)

— مما خالف فيه —

١ - ما كتبه في باب (مالا ينصرف) على قول الأشموني

(يعنى ما كان من الجمع إلخ) في شرح قول الناظم (وذا اعتلال منه

كالجوارى إلخ) - ثم قال معلقاً (ولغفلة البعض إلخ)

٢ - ما كتبه في باب (مالا ينصرف) على قول الأشموني (وذكر

الآخفش إلخ) في شرح قول الناظم (ولسر أو يل به - هذا الجمع إلخ) -

ثم قال معلقاً مانصه (وأن تبججه هنا مما لا ينبغي على من لولاه مراح

ولا جاء لم يتم نسأل الله العافية إلخ)

٣ - ما كتبه في باب (إعراب الفعل) على قوله (ولا يطرده إلا بتجاوز

وتكاف) في شرح قول الناظم (وبعد غير النفي جزماً إلخ) - فقال معلقاً

مالفظه (وقد ظهر لك ان كان عندك أدنى تذبذبه أنه لم يخطئ، إلا ابن أخت خالته)
٤ - ما كتب في باب (العدد) على قوله (وإن ترد بالوصف المذكور إلخ)
في شرح قول الناظم (وإن ترد بعض الذي منه بنى إلخ) - فقال معلقا
(وللبعض هنا كلام حقيق بالطرح)

٥ - ما كتب في باب (التصريف) على قوله (من الحواية) في شرح
قول الناظم (كذلك همز آخر بعد ألف إلخ) - فقال معقبا ما حروفه
(وقول البعض بفتح الحاء لا يعتمد عليه وحده لكثرة تساهله كما لا يخفى
على ممارس حاشيتنا) - وما كنت أبغى تسطير هذا التعقيب اللاذع
فيما خالف فيه الصبيان لكنه مسطور في الحاشية، وليس على الراوى تبعه،
ومتوقف على ما تعرف منه أن الصبيان كان متجنبا في بعض الأحيان
وأما العنصر الثالث فالصبيان فيه بحق السابق المجلى في الكثير إذ
لم يسلم في القليل من التثريب واللوم في أمور تتعلق بالناحية العلمية،
وبالاستطراد إلى غير النحو، وبالخطأ في شرح الشواهد - وسأذكر عن
كل من الثلاثة كلمة خاصة به غير مسترسل في التفصيل
✽ التعقيب عليه في أمور ثلاثة ✽

الأمر الأول وقعت منه مسائل: منها عدم معرفته اصطلاح المذهب
الكوفي في تسميته (المنصرف) بالمجرى و (غير المنصرف) بغير المجرى،
وذلك أنه كتب على قول الأشمول في بيان مذهب الفراء (الأمثلة التي تكون
للأسماء والأفعال إن غلبت للأفعال فلا تجر في المعرفة إلخ) في شرح قول
الناظم (كذلك دوزن ينخص الفعل إلخ) - أن المنفى هو الجر بالكسرة
معتقدا أن الفعل (تجره) مفتوح التاء، والواقع أنه مضمومها والمنفى العرف

الأمر الثاني من أمثلته الظاهرة ما كتبه في باب عطف النسق
عند الكلام على (أم) فقد سطر قوله صافية فيما تستعمار له الهمزة
ثم اتجر الحديث إلى غيرها من الأدوات

الأمر الثالث وهو خليق بالعناية لأن شواهد الأسموني مستفيضة
في الأبواب كلها والصبيان كثير الحدس والتخمين فيها ، فقد يفسر البيت
بما يبدو له دون تنقيب عن أصله ، وقد يقف دون بيان معذراً ، وقد يردد
الاحتمالات التي يستغرب التعرض لها ، ودونك مقداراً كنموذج للبق
على ترتيب الكتاب

١ - في باب (المعرب والمبني) مبحث المثنى شرح قول الفرزدق
كلاهما حين جد الجرى بينهما قد أقلعا وكلا أنقيهما راى
بما يفيد أنه في وصف فرسين ، والحقيقة أنه للتندر في ابنة جرير وبعائها
٢ - في باب (كان وأخواتها) مبحث الأفعال الموافقة (صار) معنى
وعملاً ومنها (آض) شرح قول فرعان بن الأعرف
وبالخنض حتى آض جعداً عنطظنظاً إذا قام ساوى غارب الفحل غاربه
بما يفيد أنه في وصف بعير ، والحقيقة أنه في وصف (منازل) ابن الشاعر
كافي الحماسة (باب الهجاء)

٣ - في باب (المفعول المطلق) مبحث ما حذف عامله وجوبا وكان
مفيداً التشبيه شرح قول أبي كبير الهذلي

ما إن يمس الأرض إلا منكب منه وحرف الساق طى الحمل
بما يفيد أنه في وصف فرس ، والواقع أنه وصف رييب الشاعر (تأبط شراً)
٤ - في باب (أبنية المصادر) مبحث ورود المصدر بزنة اسم

المفعول كتب على قول الراعي

لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا

ما يؤخذ منه عدم الاطلاع على أصل البيت فظن أنه كامل مخمس
شدوذا ، وتبعة الخطأ على الأشموني وقد نبهنا على ذلك في ترجمته

٥ - في باب (عطف النسق) مبحث تقديم المعطوف شرح بيتي ذي الرمة
مع التهاافت في الرد على البعض في فهمه وخفيت معالم الحقيقة في غبار النقاش .

٦ - في باب (أسماء الأفعال) مبحث (رويد) كتب على قول الهذلي
رويدَ عليا جُدت ما ندى أمهم إلينا ولكن بغضهم متماين
مانصه (لم أر من تكلم على هذا البيت) ، مع أن البيت من شواهد سيبويه
ج ١ ص ١٢٤ ، ومن شواهد شرح المفصل في الجزء الرابع ص ٤٠

٧ - في باب (مالا ينصرف) منتهى المجموع شرح قول ابن ميادة
يحمد وثمانى مولعا بلقاحها حتى هممن بزيغة الارتاج
بما يفيد أن النياق طربت من الحدو ، والحقيقة أن البيت في وصف حمار
اشتد شبقة على الآن

٨ - في باب (النسب) مبحث المركب الإضافي شرح قول ذي الرمة
ويسقط بينها المرثى لغوا كما أغيت في الدية الحوارة
بما يضحك بعد تغيير الشطر الثاني من البيت بما لا قرابة بينه وبين الأول ،
والواقع أن البيت لجريز من أبيات أسعف بها ذا الرمة في ذمه المرثى -
كما في الأملى للقالى ج ٢ ص ١٤١ والأغانى الجزء السادس عشر (ساسى)
وما قدمناه من الشواهد فانه قليل من كثير ، ويضم إليها الشواهد التي عقبتنا
على الأشموني فيها ، فأن التحرى في سلامتها من مستلزمات الكتابة عليها

وصفوة المقال أن حاشية الصبيان مفيدة علمياً فحسب ، ولا يعتمد عليها في شواهد النحو ، نعم وكانت الأفادة العلمية أقوى وأقوم لو صرف الصبيان النظر عن تتبع عثرات الحفنى فإن النقاش يغيب في عجاذه الأبيض الأزهر ، ورحمة الله على الجميع ، وقد بسط الجبرتي ترجمة الصبيان في الجزء الثانى من تاريخه توفي وصلى عليه بالأزهر في حفل مهيب سنة ١٢٠٦ هـ

كلمة الختام

ولأبى العباس (ثعلب) نادرة مروية أسوقها ختاماً لهذا الكتاب ، عسى أن تبعث في طالب النحو الرغبة الصادقة في الأقبال عليه والأخذ بمحاسنه ، فانه يحز في نفوسنا ما نراه من فتور همم الطلاب في هذا العلم الجليل زعماء منهم أن الغرض المنشود منه لا يتكافأ مع ما يعانونه في مسائله وخلافاته المذهبية والشخصية وما يتبع هذا ، وقد عزب عنهم أنه سلم الفهوم وعلم العلوم ، وفاتهم أن الطالب لا يتذوق فنا من الفنون ويسير فيه على هدى وبصيرة إلا اذا كان آخذاً من هذا العلم بطرف - تلك النادرة هي ما حدث به أبو بكر بن مجاهد قال : (كنت عند أبى العباس ثعلب فقال يا أبا بكر اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا ، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا ، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا ، واشتغلت أنا بزيد وعمرو فليت شمرى ما يكون حالى فى الآخرة ؟ فانصرفت من عنده فرأيت تلك الليلة النبى ﷺ فى المنام فقال لى : أفرىء أبا العباس عنى السلام وقل له أنت صاحب العلم المستطيل قل الروذبارى : أراد أن المكلام به يكمل والخطاب به يجمل - أو أراد أن جميع العلوم مفتقرة إليه)^١

(١) راجع هذه النادرة فى ترجمة ثعلب فى الزهرة ، والمعجم ، والوفيات ، والبغية

حقاً أن العلوم مفتقرة إليه في مسائلها ومحتاجة إلى مراعاته في محاوراتها،
وعلى قدر النبع فيه يواتى الفوز بها ، والله سبحانه وتعالى أعلم
وكان إتمام هذا الكتاب في مساء يوم الخميس الموافق ١٠ من رمضان
سنة ١٢٥٧ هـ و ٣ من نوفمبر سنة ١٩٣٨ م بتوفيق الله ومعونته - فأنشد
إعلاناً بالشكر قول سحيم عبد بنى الحساس
الحمد لله حمداً لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوع
وصلى الله على سيدنا محمد وسائر الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان
إلى يوم الدين م

(١) قال ابو جعفر محمد بن حبيب (أنشد رسول الله ﷺ قول سحيم البيت
فقال: أحسن وصدق ، وإن الله يشكر مثل هذا ، ولئن سدد وقارب إنه لمن أهل
الجنة) - راجع الاصابة في تمييز الصحابة جرف السنين القسم الثالث ، ونقل ذلك
البغدادى في خزنة الادب في الشاهد الرابع والتسعين

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٢	أهم مراجع الكتاب
٥	مقدمة الكتاب
٧	تمهيد
٩	سبب وضع النحو
١٢	متى وأين كان وضعه ؟
١٣	وضعه عربى محض
١٥	واضعه والآقوال فيه
١٩	واضعه (أبو الأسود الدؤلى) على الصحيح
٢٣	التسمية بالنحو بعد أبى الأسود
٢٤	سبب التسمية بالنحو
٢٤	نشأة النحو وتدرجه
٢٦	أطوار النحو الأربعة
٢٧	الأول طور الوضع والتكوين (بصرى)
٣٠	الثانى طور النشوء والنمو (بصرى كوفى)
٣٥	الثالث طور النضوج والكمال (بصرى كوفى)
٣٧	كلمة فى مناظرات الطورين (الثانى والثالث)
٣٨	من مناظرات الطور الثانى : بين الكسائى والأصمعى — بين الكسائى وسيدويه — بين الكسائى واليزيدى
٤٤	من مناظرات الطور الثالث : بين المبرد وئعلب
٤٧	من المجالسات : بحالسة الرياشى وئعلب

الصفحة	الموضوع
٤٨	مشاهير البصريين والكوفيين
٥٣	جدول مبين فيه طبقات الفريقين
٥٤	(أبو الأسود الدؤلي) عماد الفريقين
٥٥	طبقات البصريين السبع
٥٥	الأولى : نصر بن عاصم ، عنبسة الفيل ، عبد الرحمن بن هرمز ، يحيى بن يعمر
٥٦	الثانية : ابن أبي اسحق ، عيسى بن عمر الثقفي ، أبو عمرو بن العلاء
٦٠	الثالثة : الأخفش الأكبر ، الخليل بن أحمد ، يونس
٦٢	الرابعة : سيبويه — (كتاب سيبويه ، شواهد ، أبياته المجهولة القائل ، بعض الأبيات التي قيل إنها مصنوعة ، الأبيات المزیدة على الشواهد ، تقدير الكتاب) — الزبيدي ، أبو زيد
٨٣	الخامسة : الأخفش — (من المسائل التي وافق فيها الكوفيين ، من المسائل التي انفرد فيها بالقياس) — قطرب
٨٧	السادسة : الجرمي ، التوزي ، المازني ، أبو حاتم ، الرياشي
٨٩	السابعة : المبرد
٩١	طبقات الكوفيين الخمس
٩١	الأولى : الرؤاسي ، الهراء
٩١	الثانية : الكسائي
٩٣	الثالثة : الأحمر ، الفراء ، اللحياني
٩٤	الرابعة : ابن سعدان ، الطوال ، ابن السكيت ، ابن قادم
٩٥	الخامسة : ثعلب
٩٦	أسباب الاختلاف بين البصريين والكوفيين
٩٨	المذهب البصري ، عناصره المبني عليها ، بعض المسائل التي لجأ فيها إلى التخلص بما هو بعيد من النظر متابعة لنزعه
١٠٦	المذهب الكوفي ، عناصره المبني عليها ، أمثلة لقياسه النظري جريا على نزعه ، بعض المسائل التي ظفر فيها الكوفي

- المصحفة الموضوع
- ١١٧ حكمة نخصص كل من المذهبين باتجاهه
- ١٢٤ نتائج المخالفة بين المذهبين
- ١٢٧ سرد مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين
- ١٣٢ موازنة بين المذهبين
- ١٣٦ أثر تلاقى الفريقين ببغداد في تنويع النزعات إلى ثلاث
- ١٣٨ فمن غلبت عليه النزعة البصرية: الزجاج ، ابن السراج ، الزجاجي ، الصفار ، مبرمان ، ابن درستويه ، السيراقي ، الفارسي ، الرمانى
- ١٤٢ ومن غلبت عليه النزعة الكوفية : أبو موسى الحامض ، وابن الانباري ، وابن خالويه
- ١٤٣ ومن جمع بين النزعتين : ابن قتيبة ، ابن كيسان ، الاخفش الصغير ، ابن شقير ، ابن الحياط ، نقطويه
- ١٤٤ نخبة مصر الآخذون عن العراقيين : ولاد ، الدينوري ، ابن ولاد ، ابن ولاد ، النحاس
- نشوء المذهب البغدادي على أيدي الجامعين بين النزعتين
- ١٤٩ الرابع طور الترجيح (بغدادى)
- ١٤٩ المذهب البغدادي وماأخذ به بعض قواعده ، من القواعد التي ركن فيها البغاددة إلى المذهب الكوفي ، من القواعد التي عولوا فيها على البصري ، من القواعد التي استدركوها وراء المذهبين
- ١٥٣ انقراط عقد المذهب البغدادي
- ١٥٣ انتهاء المتقدمين وابتداء المتأخرين
- ١٥٤ تشاطر الدول الإسلامية نهضة هذا العلم ، وفي ذلك مطلبان
- ١٥٤ المطلب الأول علم النحو وعلماؤه في عهد الدول الإسلامية
- المتعاصرة من عهد بني بويه إلى سقوط بغداد ، وفيه
- ثلاثة فصول

١٥٧ الفصل الأول النحو والنحاة في العراق وما يليه شرقا

١٥٧ ترسم النحاة خطى المذهب البغدادي طويلا

١٥٨ أشهر النحاة : ابن جني ، العبدى ، الربعى ، الثمانى ، ابن برهان ، التبريزى

الفصيحى ، ملك النحاة ، الزخشرى ، ابن الشجرى ، ابن الخشاب ،

ابن الدهان ، الأنبارى ، المطرزى ، الكندى ، العكرى ، ابن الحجاز

١٦٥ الفصل الثانى النحو والنحاة فى القطرين (مصر والشام)

١٦٥ انتهاج النحاة فيهما مذهب العراقيين طويلا

١٦٦ أشهر النحاة : الحوفى ، ابن بابشاذ ، ابن برى ، ابن معطى ، ابن يعيش ،

السخاوى ، ابن الحاجب

١٧٠ الفصل الثالث النحو والنحاة (فى الأندلس والمغرب)

١٧٢ (كتاب) سيبويه عندهم

١٧٣ المذهب الاندلسى وما أخذه وبعض مسائله

١٧٥ أشهر النحاة : الزبيدى ، الأعلم ، ابن السيد البطليموسى ، ابن الطراوة ،

ابن الباذش ، اللخمي ، ابن طاهر ، السهيلي ، ابن مضاء ، ابن خروف ،

الجزولي ، الشلوبينى ، ابن هشام الحضراوى ، الدباج ، ابن الحاج

١٨١ المطلب الثانى النحو والنحاة بعد سقوط بغداد وفيه

ثلاثة فصول أيضا

١٨٤ الفصل الأول النحو والنحاة فى المشرق

١٨٧ أشهر النحاة : ابن إياز - الرضى (تعريف بشرح الرضى على الكافية ،

من الأمثلة التى رأى قرب المذهب الكوفى فيها ، من الأمثلة التى خالف فيها النحاة ،

شواهد ، من شواهد الشعراء المحدثين ، انتقاد هين ، ظهور الشرح بمصر) -

الكافيجى ، الجامى

١٩٩ الفصل الثاني النحو والنحاة في (الأندلس والمغرب)

٢٠٠ أشهر النحاة : الأندلسي ، ابن عصفور ، ابن مالك ، ابن الضائع ،
ابن أبي الربيع ، ابن أجروم ، أبو حيان ، الشاطبي

٢٠٥ الفصل الثالث النحو والنحاة في القطرين (مصر والشام)

في العصرين (عصر المماليك وعصر الترك)

٢٠٦ النحو والنحاة في عصر المماليك

٢٠٨ السر في تغلب المذهب الأندلسي عندهم على البغدادى

٢١٠ أشهر النحاة : ابن الناظم ، ابن النحاس ، المرادى ، ابن هشام (كلمة عن

التوضيح والمغنى) — ابن عقيل ، ابن الصائغ ، ناظر الجيش ، ابن جماعة ،

الداميني ، الشمعى ، خالد ، السيوطى — الاشمونى — (تعريف بشرح

الاشمونى ، شواهد ، من شواهد الشعراء المحدثين ، من الشواهد المحرفة
أو المصحفة)

٢٢٦ النحو والنحاة في عصر الترك

٢٣٠ أشهر النحاة : ابن قاسم العبادى ، الشنوائى ، الدنوشرى ، يس ، الحفنى —

الصبيان — (تعريف بحاشية الصبيان ، ما وافق فيه الحفنى وما خالف ،

التعقيب عليه في أمور ثلاثة)

٢٣٧ كلمة الختام

18 JAN 20

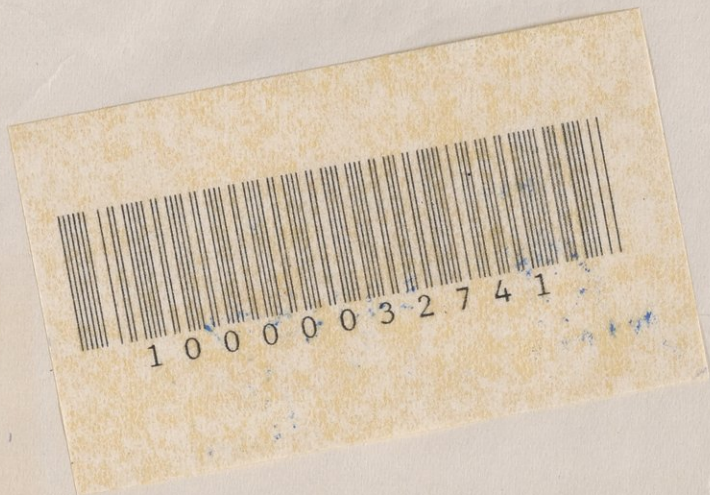
18 JAN 20

18 JAN 20

18 JAN 20



16 MAR 1972



13 JUN 1987

10000032741

10000032741

1893 MAR 13

THE UNIVERSITY OF CHICAGO

LIBRARY

